

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



سَائِلُ الثَّقَلَيْنِ

مَجَلَّةُ إِسْلَامِيَّةِ جَامِعَةِ

العدد الستون • السنة الخامسة عشرة • صيف سنة ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م

المراسلات والاتصالات باسم رئيس التحرير على العنوان التالي:

الجمهورية الإسلامية في إيران - قم. ص.ب: (٨٩٤ = ٣٧١٨٥)

هاتف: ٢١٣١١ (٠٠٩٨٢٥١) فاكس: ٢٩١٣١٠٠ (٠٠٩٨٢٥١)

موقعنا على الانترنت

WWW.ahl-ul-bayt.org

البريد الإلكتروني للمجلة: Tahrir-thaqalayn@hotmail.com

البريد الإلكتروني لإدارة المجلات: Bc@ahl-ul-bayt.org

محتويات العدد

□ كلمة التحرير

* رجب شهر التَّجْلِي الأعظم، وتموز شهر الانتصارات

رئيس التحرير ٤

□ من أريج القيادة الحكيمة:

* ولادة علي عليه السلام، في الذكرى العطرة لولادته الميمونة

من كلام القائد الخامنئي عليه السلام ١٢

□ ملف العدد : (المقاومة، الانتصار، الأسرى)

* المقاومة ضرورة، ثقافة وفعلاً

أ.د: أسعد السحمراني ٢٧

* العنف الممارس من قبل البعض، والعنف الممارس عليهم

د. غسان طه ٤٥

* مقومات النصر من منظور قرآني

ش. مُحَمَّد أبو الخير ٦٧

* قراءة في دلالات تحرير الأسرى والمعتقلين

ش. نعيم قاسم ٨١

* لكي لا ننسى أسرارنا (دراسة إحصائية)

إعداد قسم الأرشفة ٨٧

* صفقة تبادل الأسرى مع حزب الله (معان ودلالات)

أ. عبد الناصر فروانة ١٠٧

□ دراسات فكرية

* مقومات النظام الحقوقي في الإسلام

ش. معين دقيق ١١٢

• تعنى بالدراسات والنتائج الفكرية، خصوصاً التي تصب في خانة الدفاع عن حريم القرآن الكريم والنبي ﷺ الأمين، وآل بيته الطاهرين، في جميع الأبعاد المختلفة.

• تستقبل رسالة الثقلين نتاجات العلماء والمفكرين المشتملة على الشروط التالية:

◀ أن تكون خاضعة لأسلوب البحث العلمي منهجاً ومنهجيةً ومضموناً.

◀ أن لا تكون قد نُشرت سابقاً.

◀ أن لا تكون عملاً مكرراً، بل لا بد أن تحتوي على شيء من التجديد والحدثة. والأولوية دائماً للدراسات الفكرية المستحدثة.

◀ أن لا تتقص عن عشر صفحات، ولا تزيد على الخمسين، والصفحة الواحدة تتضمن (٢٥٠) كلمة.

◀ أن تُرفق المقالة بخلاصة لها في صفحة واحدة.

• الآراء الواردة في ما يُنشر لا تعبر بالضرورة عن رأي المجمع أو المجلة.

• تسلسل الموضوعات المنشورة يخضع لاعتبارات فنية محضة.

• لا تعاد المقالات المرسلة إلى المجلة، نُشرت أم لم تُنشر.



المجمع العالمي لدراسة القرآن

المشرف العام

الشيخ محمد حسن اخري

تصدر عن

المعاونية الثقافية - إدارة المجلات

رئيس التحرير

الشيخ معين دقيق

مدير التحرير

السيد علي الموسوي

العدد الستون

السنة الخامسة عشر

صيف سنة

١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م

مطبعة المجمع / طهران

٠٠٩٨ - ٢٢ - ٩٢٤٨٥١٨٢ ☎

* العلوم الواجبة في الإسلام، مجالاتها وآثارها

..... أ. مُحَمَّد قدير دانش ١٢٣

* الوحدة الإسلامية، مقاربات كاشف الغطاء

والبروجدي

..... ش. مُحَمَّد جاسم الساعدي ١٦٦

** مفهوم ابتغاء الوسيلة، دراسة قرآنية

..... ش. خالد الغفوري ١٨٨

□ من وحدي المناسبات:

* مع الإمام الخميني (ع) في رحاب شهر شعبان

..... ش. مصطفى جعفر پيشه فرد ١٩٨

* وقفة أمام ذكرى المبعث النبوي الشريف

..... س. مُحَمَّد حسن الأمين ٢٢٢

* مفكرة المناسبات الدينية

..... إعداد: لجنة المناسبات ٢٢٥

□ وجهة نظر:

* الإعلام العربي في خدمة مَنْ؟!

..... أ. أحمد فارح الحاشدي ٢٣٤

□ بأقل المكم:

* العواقب الوخيمة لخارطة طريق الاستبداد

..... أ. هلال آل فخر الدين ٢٤١

* قبس من شعر الإمام الخميني (ع)

..... أ. نجاح مُحَمَّد علي ٢٥١

رجب شهر التجلي الأعظم

وتموز شهر الانتصارات

واجتمعاً...

□ بقلم: رئيس التحرير (*)

في هذا العدد الذي بين أيدينا قد اجتمعت مناسباتٌ عديدةٌ، بعضها يرتبط بالتاريخ الهجري لأحداثٍ وقعت في تاريخ أمتنا، ونراها تتجدد عاماً بعد عام، وبعضها يرتبط بتاريخنا المعاصر، وما حصل فيه من وقائع استمدت وهجها من تلك المناسبات الهجرية...

فمن جهةٍ قد تواعد شهر رجب الأصبّ مع شهر تموز.. شهر رجب الذي يذكّرنا بالتجليات الإلهية التي حصلت في تاريخ أمتنا، والتي يأتي على رأسها بعثة النبي الأعظم ﷺ في السابع والعشرين منه، وولادة وصيه وخليفته وليد الكعبة المشرفة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام. ولقد كان لهاتين الواقعتين التأثير الكبير على مجريات كثيرٍ من الأمور

والحوادث، بل تعتبران زلزلاً ربّانياً غير وجه العالم، لا عالم الإنسان فحسب، بل عالم الكون والتكوين.

كيف! ومن أبرز مصاديق قوله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣] هما: المصطفى والمرضى صلوات الله وملائكته عليهما. وهذه الهداية المضافة إلى أمر الله تبارك وتعالى ليست بمعنى مجرد الإرشاد وإراءة الطريق؛ فإن هذا ثابت لجميع الأنبياء وإن لم يمنحوا منصب الإمامة؛ قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشِّرْ يَهُودُنَا﴾ [التغابن: ٦٦]، بل كل مؤمن يهدي إلى الله سبحانه وتعالى بالنصح هو هادٍ بالمعنى المذكور، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا يَنْقُورُ أَتَيْعُونَ أَهْدَكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٣٨].

وإنما هذا النوع من الهداية التي اختارها الله لمن جعلهم أئمة من رسله وأوصيائه بمعنى التصرف التكويني في النفوس بتسييرها في سير الكمال، ونقلها من موقف معنوي إلى موقف آخر.

فإذا كانت الهداية تصرفاً تكوينياً وعملاً باطنياً، فالمراد بالأمر الذي تكون به الهداية ليس هو الأمر التشريعي الاعتباري، بل ما يُفسره قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]^(١).

وتموز شهر الخزي والعار لبني صهيون ومن وراءهم من أئمة الاستكبار وعلى رأسهم الشيطان الأكبر أمريكا، ومن حام في فلکهم من حكوماتٍ منهزمةٍ باعت ضمايرها للشيطان، وخانت شعوبها ورسالة ربها... وشهر الانتصار والعزة لأمتنا...

وهذا بدوره ما زال يتجدد، فمن الانتصار الإلهي في حرب الـ ٣٣ يوماً في عام ٢٠٠٦، إلى الانتصار الآخر الذي لا يقل عنه أهمية في عملية الرّضوان... مروراً بشهر شعبان، شهر النبي الأعظم ﷺ، وما وقع فيه من ولاداتٍ

لأئمة الهدى عليهم السلام، وكانت ليلة النصف منه ليلة فيها يُفرق كل أمر حكيم، قد تشرفت بولادة منقذ البشرية، الإمام القائم المنتظر عليه السلام، الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً.

واختتاماً بشهر الله، شهر الصيام، الذي دُعي الناس فيه إلى ضيافة ربّ كريم، وما يشتمل عليه هذا الشهر من مناسبات يأتي على رأسها انتصار المسلمين في وقعة بدر الكبرى، ويتوّج الثلث الأخير منه بليلة هي خير من ألف شهر، كانت الملائكة تنزل فيها على من بلّت لحيته بدم الشهادة في محراب العبادة.

البعثة النبوية التجلي الإلهي الأكبر

في السابع والعشرين من شهر رجب حصل الانقلاب الكوني الهائل؛ حيث شاءت الإرادة الإلهية بعث خاتم أنبيائه وأفضل رسله على الإطلاق، رحمةً منه على البشرية، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨]، ومناً منه على المؤمنين خاصةً، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقد ورد في بعض أدعية هذه الليلة تسمية ما حصل في يوم المبعث بالتجلي الأعظم: «اللهم إني أسألك بالتجلي الأعظم في هذه الليلة من الشهر المعظم والمرسل المكرّم أن تصلي على محمّد وآله»^(٢).

وعلينا في هذه المناسبة أن نستذكر آليات هذه البعثة التي توصلنا إلى رضوان الله الأكبر، والتي تلخّصت في الآية المتقدمة في أمور ثلاثة:

- يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ .

-وَيُزَكِّهِمْ .

-وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ .

كُلُّ ذَلِكَ رَحْمَةٌ مِنْهُ بِعِبَادِهِ؛ لِكَيْ يُخْرِجَهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ؛ إِذْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ .

وهذه الوظائف الثلاث ليست آنيّة؛ بحيث تكون قد انتهت الاستفادة منها برحلة النبي ﷺ عن هذه الدنيا الفانية، وإنّما هي متجدّدة ما دام هناك أرض قابلة لتلقّي البذر، وقلبٌ منفتح على ربّه لم يحجبه الرّين والختم.

كيف، والاستفادة من رسول الله لم تنقطع بموته! وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]، فإنّ إطلاق الآية يقتضي ترتّب الأثر في حياته ومماته صلوات الله عليه وعلى آله.

وعلى هذا الأساس ينبغي أن تنفتح قلوبنا على رسول ربّنا، فنستمع بقلوب واعية إلى تلاوته لآيات الله، فنعمل بها، ونستفيد منها لما فيه خير أُمّتنا في الدنيا والآخرة.

والتأمّل في آيات ربّنا تزكّي نفوسنا، وتزيل منها رين العبودية لغير الله، عندئذ تصبح أرضاً طاهرة مستعدّة لتلقّي العلم والحكمة.

تجلّي النّصر الإلهي في شهر تمّوز

مِمَّا مِنْ بِهِ اللَّهُ عَلَى أُمَّتِنَا فِي هَذَا الْعَامِ أَنْ اجتمعت تلك المناسبات التي أشرت إلى بعضها مع النّصر الإلهي الذي لحق المسلمين على إثر عمليّة الرّضوان، التي تحرّر فيه الكثير من الأسرى. ولا ينبغي أن يمرّ هذا الحدث من دون أن نأخذ منه درساً لحاضرنا ومستقبلنا.

والملاحظ أنّ غالب الوعودات الإلهيّة في القرآن الكريم كانت بصورة جزاء

لشرطٍ معيّنٍ اشترطه الله على عباده، وكان تحقّقه موجِباً لتحقّق ذلك الوعد الإلهي .

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نُّنَصِّرُكُمُ اللَّهُ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].
وقال أيضاً: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقال أيضاً: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ
وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [المائدة: ٦٥].

وقال أيضاً: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ
لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤].

وقال أيضاً: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن
فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦].

ولو أردت استعراض مثل هذه الآيات لطال بي المقام، ولكن الذي يهمني أن ألفت النظر إليه أن هذا النوع من الوعودات الإلهية والتي تعتبر من السُّنن الربانية الثابتة تتميز بأمرين:

١. الصدق والتحقّق. كيف! وقد قال تبارك وتعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، وقال أيضاً: ﴿وَكَاذِبًا وَعَدَاهُ مَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ٥].

٢. التحقّق على أحسن وجه. ويخضع ذلك للكيفيّة التي على أساسها يؤدّي العبد ذلك الشرط، بما يتضمّن من نيّة وإخلاصٍ ونشاطٍ وشوقٍ ورغبةٍ. فالدُّعاء - مثلاً - من الشُّروط التي إذا تحقّقت تحقّق على أثرها استجابة الله، كما يدلُّ على ذلك قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، ولكن استجابة داعٍ قد تختلف عن داعٍ آخر؛ إذ كما أن الاستجابة من المفاهيم المشكّكة من ناحية الكمال والنقصان، كذلك الحال في الدُّعاء، بل إنّ تكامل مراتب الاستجابة يخضع لتكامل مراتب الدُّعاء.

هذا، وقد شهدت الأمة الإسلامية في وقتنا الراهن وفي الأعوام القليلة الماضية تجلياً لقوله تبارك وتعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧] على أكمل وجه، بحيث ذكرنا ذلك بأيام الله في بدرٍ وحنين والأحزاب، فمن انتصار الثورة الإسلامية بقيادة القائد الرباني الإمام الخميني رحمته الله وما استتبع ذلك من رفعة وعزة للأمة الإسلامية، مروراً بتحقيق الوعي الديني عند مسلمي العالم تجاه مطاعم الدول الانتهازية والمستعمرة، إلى الانكسار الساحق والمهزيمة النكراء للعدو الصهيوني في لبنان على أيدي رجال باعوا أنفسهم لله.

تمؤز ثمانية:

وقبل عامين من صدور هذا العدد، وبالتحديد بعد الانتصار الساحق الذي حققته المقاومة الإسلامية في لبنان، كنتُ قد كتبتُ كلمة التحرير للعدد (٥٤)، وعنوانها بعنوان: (تمؤز شهر التجليات)، ولم أكن في وقتها ملتفتاً إلا إلى بعض تلك التجليات للوعودات الإلهية التي أفرزها قيام حزب الله والمقاومة الإسلامية بتحقيق الشرط ﴿إِن نَّصُرُوا اللَّهَ﴾، والذي عُدد من قبل بعض من تهودوا من سياسيي بعض الدول الإسلامية بـ (المغامرة)، ولكن المراقب يرى أن هذه التجليات والنعم الإلهية ما زالت تنزل على الأمة الإسلامية الواحدة تلو الأخرى، والتي كان آخرها - بلحاظ ما عايشناه، وإلا فنعم الله لا حد لها، كيف! ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨] - النصر المبين في عملية تبادل الأسرى، الذي أطلق عليها بحق: (عملية الرضوان).

وهذا ما ينبغي دراسته دراسة جدية، إن من ناحية العوامل المادية والمعنوية التي كانت دخيلة عند تحقق الشرط، وإن من ناحية النتائج والنعم الإلهية التي ترتبت على ذلك.

وهذا ما سوف نترك له المجال في ملفات هذا العدد وغيره من الأعداد لأصحاب الأقلام الثيرة لكي يتحفوا قراء مجلة «رسالة الثقلين» بإبداعاتهم الفكرية التي تكون بنفسها بوقاً إعلامياً يساعد على تفعيل هذا الانتصار وتجديده أنا بعد أنا..

دعوة مفتوحة

ولا يفوتنا في نهاية هذه الافتتاحية أن نُلفت نظر الكتّاب الذين اعتادوا على المساهمة في صدور «رسالة الثقلين»، وغيرهم ممّا يمكن الاستفادة منهم في المستقبل إلى مجلة من الملفات الرئيسية التي ترى هيئة التحرير - بعد الدراسة المعمّقة لحاجات الأمة الإسلامية في الوقت الراهن - أهميّتها، وهي:

١. الدراسات القرآنية الجديدة، ورفع الشُّبهات المثارة من قبل البعض على جملة من الآيات القرآنية.

٢. ملف النظام الحقوقي في الإسلام. وما يتضمّن ذلك من بيان أهمّ الحقوق الإسلامية، ودفع الشُّبهات عنها.

٣. تناول أهمّ الشُّبهات التي تطرح على السّاحة الإسلامية في الجوانب المختلفة: الفكرية والكلامية والاجتماعية والسياسية وغيرها، والجواب عنها.

٤. الملف الأخلاقي. وذلك بإبراز التعاليم الأخلاقية في الإسلام بصورة مؤثّرة، وذكر السيرة الأخلاقية للنبيّ وأهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين ومن تبعهم من الأولياء والقادة والعلماء؛ لكي نساهم من خلال ذلك في إيجاد جيلٍ إسلاميٍّ يتمتّع بالأخلاق الفاضلة.

٥. ملفّ المقالات التي تستوجب الانسجام والوحدة بين أبناء الأمة الإسلامية، والتي تساعد على القضاء على حالة التنافر والتباعد.

٦. الدراسات التاريخية التي تُعنى بدراسة التاريخ وتسخيره لمصلحة الأمة في واقعها المعاصر.

٧. الدراسات التي تُعنى بإبراز الفكر الأصيل للإمام الخميني العظيم عليه السلام ووارثه السيّد القائد دام ظلّه؛ لكون هذا الفكر قد استمدّ أصالته من القرآن وتعاليم الأنبياء والأولياء عليهم السلام.
إلى غير ذلك من الدراسات النافعة التي يعالج فيها ما تحتاج إليه الأمة في عصرنا هذا.

على أن تكون كلّ الدراسات التي ترسل إلى المجلّة حاوية لشروط الموضوعيّة وأسلوب البحث العلمي منهجاً ومنهجيةً.

* * *

الهوامش:

(١) في هذا المطلب نظريّة عميقة للعلامة الطّباطبائي رحمته الله قد أفاده في أماكن متعدّدة من تفسيره الجليل.

(٢) الشّيخ الكفعمي، إبراهيم بن علي العاملي، البلد الأمين والدّرع الحصين: ١٨٣، نسخة مصوّرة عن النّسخة الحجرية.

من
أريج القيادة الحكيمة

عدالة علي عليه السلام

في الذكرى العطرة لولادته الميمونة

□ من كلام القائد الخامنئي رحمته الله

تجزيئة

إنَّه العبق المنبعث من بطن الوادي المقدَّس من جديد!! إنَّه الثَّالث عشر من شهر رجب الأصبّ.. إنَّه اليوم الذي تنهياً فيه الكعبة المشرفة كلَّ عام وترتدي أبهى حللها، وتزيّن وتجمّل وتُبرز مكنونات سحرها الرِّبانيّ، تمهيداً لاستقبال الوليد الجديد.. بل المولود الوحيد، الذي سُمح له بأن يُوكَّد في بيت الله الحرام، في جوف الكعبة المشرفة؛ لما له من مكانةٍ عند الله ومنزلة عند النّبّي الأعظم صلّى الله عليه وآله وجلالة قدره في نفسه وعند العالمين.

وعليّ عليه السلام الذي اشتق اسمه من اسم: العليّ الأعلى^(١) - كما اشتق اسم رسول الله صلّى الله عليه وآله قبله من اسم الله تعالى: المحمود^(٢) - بُدئت حياته في جوف بيت الله، وخُتِمت في محراب بيت الله.. هذا من النّاحية المكانية..

وأما من حيث الزّمان، فقد كانت ولادته عليه السلام في شهر رجب المبارك، وهو

أَوَّلُ الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ، وكانت الشَّهَادَةُ الْحُمْرَاءُ فِي شَهْرِ اللَّهِ الْأَعْظَمِ، شهر رمضان المبارك، والذي أيامه أفضل الأيام ولياليه أفضل الليالي، بل وبالتَّحْدِيدِ: في ليلةٍ هي خيرٌ من ألف شهر، في ليلة القدر..

وكذلك، فهو ﷺ من ناحية النَّسَبِ حفيد السَّلاَلَةِ الْهَاشِمِيَّةِ، المعروفة لدى العرب أَجْمَعِينَ بِالشَّرَفِ وَالْكَرَمِ وَالشَّجَاعَةِ، وهو حفيد عبد المطلب جدَّ النَّبِيِّ ﷺ وسيد قريش والعرب، والذي جرى بينه وبين أبرهة ما جرى، وهو أيضاً ابن أبي طالب سيد البطحاء، الذي كفل النَّبِيَّ ﷺ وحامى عنه وحفظه، بقدرة الله ومشيئته، وبما جعل الله له من الهيبة في قلوب المشركين، والذي اغتمَّ النَّبِيُّ ﷺ لوفاته وحزن عليه حُزْناً شديداً.. وهو ﷺ فوق ذلك كله: ابن عمِّ النَّبِيِّ ﷺ، ومن تعاهده النَّبِيُّ ﷺ بالتربية والعناية والاهتمام منذ صغره ونعومة أظفاره...

فهل - يا ترى - يُمكن لعقولنا أن تقبل بالزَّعمِ القائل: إنَّ هذه الملابس الزمانيَّة والمكانيَّة والنَّسبيَّة صُدْفَةٌ؟! وأية صُدْفَةٍ هي هذه؟! ثم لو قبلنا بأنَّها صُدْفَةٌ!! فهل من الصَّدْفَةِ أيضاً: أن يكون عليٌّ ﷺ أوَّل النَّاسِ إِسْلَاماً وأقربهم من رسول الله ﷺ وألصقهم به، كما قال ﷺ في وصف نفسه ومكانه من النَّبِيِّ ﷺ:

«وَلَقَدْ كُنْتُ أَتْبَعُهُ أَتْبَاعَ الْفَصِيلِ أَتْرَأُكُمْ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ عِلْماً، وَيَأْمُرُنِي بِالْإِقْتِدَاءِ بِهِ، وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُنِي كُلَّ سَنَةٍ بِحِرَاءٍ فَأَرَاهُ وَلَا يَرَاهُ غَيْرِي، وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْنَ وَاحِدٍ يَوْمَيْنِ فِي الْإِسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا»^(٣).

وهل كانت صُدْفَةٌ أيضاً أن يكون عليٌّ ﷺ باب مدينة العلم وباب دار الحكمة^{(٤)؟! أم كانت صُدْفَةٌ أن تكون ضربةٌ واحدةٌ من ضرباته في يوم الخندق، في لحظةٍ واحدة، تعدل عمل الأمة جمعاء، بل الثقلين كافةً، إلى يوم القيامة^{(٥)؟! أم من الصَّدْفَةِ تسليمه الرأية يوم خيبر وقد عجز أعيان القوم ووجهائهم عن}}

اقتحام حصون اليهود واقتلاع بابهم وكسر شوكتهم^(٦)؟ أم هي الصدفة في كونه ﷺ الشخص الوحيد القادر والمؤهل لكي يكون كفواً لسيّدة النساء، الزهراء البتول، والبضعة الطاهرة^(٧)؟! أم كونه من أهل البيت المطهّرين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً^(٨)؟! أم تصدّقه بالخاتم راعياً ونزول الوحي فيه: ﴿إِنَّا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥]؟! ... أم كُن نسل النبي ﷺ وولده من صلبه ﷺ؟! أم كونه أمير المؤمنين وإمام المتقين ويعسوب الدين؟؟ أم.. أم.. أم...

ومن يقدر على أن يُحصى فضائل علي بن أبي طالب؟؟!! وهو الذي - بتعبير الشافعي فيما نُمي إليه - أخفى أولياؤه فضائله خوفاً، وأخفى أعداؤه فضائله حسداً، وشاع من بين ذين ما ملأ الخافقين...

إذا كانت الصدفة لا تتكرّر ثانية - كما يقول الفلاسفة - فمن بابٍ أولى، أن لا تتكرّر بالمئات والألوف..

إننا لا نستطيع أن نستخفّ عقولنا أو أن ننحدر بها إلى هذه الدرجة التي تجعلنا نقول: إنّ هذه الخصال والفضائل والمناقب التي طار صيتها حتّى ملأت الخافقين لا تدلّ على الفضل والعظمة في أعلى درجاتها.. وإذا كانت هذه لا تُعدّ من مؤشّرات العظمة، فما هو الذي يُعدّ كذلك؟!

ولنعم ما قاله ابن أبي الحديد المعتزلي في شرح النهج:

«وما أقول في رجلٍ أقرّ له أعداؤه وخصومه بالفضل، ولم يُمكنهم جحد مناقبه، ولا كتمان فضائله، فقد علمت أنّه استولى بنو أميّة على سُلطان الإسلام في شرق الأرض وغربها، واجتهدوا بكلّ حيلةٍ في إطفاء نوره والتحريض عليه، ووضع المعاييب والمثالب له، ولعنوه على جميع المنابر، وتوعّدوا مادحيه، بل حبسوه وقتلوه ومنعوا من رواية حديثٍ يتضمّن له فضيلةً أو يرفع له ذكراً، حتّى حظروا أن يُسمّى أحدٌ باسمه، فما زاده ذلك إلّا رفعةً وسمواً، وكان

كالمسك، كلما سُتِرَ انتشر عُرْفُه، وكلما كُتِمَ تَضَوَّعَ نشره، وكالشمس لا تستر بالراح، وكضوء النهار إن حُجِبَتْ عنه عينٌ واحدة أدركته عيونٌ كثيرة.

وما أقول في رجلٍ تُعزى إليه كلُّ فضيلة، وتنتهي إليه كلُّ فرقة، وتتجاذبه كلُّ طائفة، فهو رئيس الفضائل وينبوعها وأبو عُذْرها وسابق مضمارها ومجلي حلبتها، كلٌّ من بزغ فيها بعده فمنه أخذ، وله اقتفى، وعلى مثاله احتذى^(٩).

لقد كانت ولادته المباركة ﷺ ولادةً لواحدٍ من أعظم أركان الدين ولبناته، كيف لا؟! وهي ولادةٌ لذلك الرجل العظيم الذي أعلى كلمة الإسلام مرتين: مرةً عندما حامى عن الدين وصاحبه ﷺ، ومرةً عندما عُرِفَ بأنه محطَّم الأصنام وقاتل عتاة المشركين والكفرة من العرب واليهود وغيرهم...

وقد كان لازماً أن تكون هذه الولادة الميمونة والمباركة على مُستوى الطفل المولود، فكان أن اتخذت من جوف الكعبة مكاناً لها؛ ليعرف الناس، كلُّ الناس، أن مكانة هذا الوليد من الإسلام هي العمق والصِّميم والقلب، وأنه كما يرى المسلمون في الكعبة قبلة صلاتهم وذكرهم ودعائهم، فكذلك عليهم أن يروا في عليٍّ ﷺ قبلةً لنفوسهم ومهوىً لأفئدتهم والمرتل الذي إليه تغادر أشواقهم..

ولأجل أن تكون المناسبة على مُستوى صاحبها، على مُستوى أمير المؤمنين ﷺ، صنو رسول الله ﷺ وأخوه وصهره ووصيه، كان لا بدَّ لها أن تختار من الأزمنة والشهور أعظمها وأفضلها.. وقد أراد الله تعالى أن يكرِّم علياً ﷺ، وأن يرفعه ويرفع المسلمين جميعاً معه، فلم يكتفِ بأن اختصَّه بجعله وليد بيته الحرام، حتَّى جعله وليد شهر (رجب)، أحد أشهر الحرم، التي يعظّمها ويقرِّر بحُرْمَتها الناس جميعاً، والذي تنصبُّ فيه الرِّحمة الإلهية على الخلق كأنَّها السَّيل العارم، ليكون من نتيجة ذلك أن تتحاتِّ الذنوب وأن تضمحلَّ عن كاهل العباد.

وكما كانت ولادته ﷺ في جوف الكعبة تُشعر - بفضل الملابس المتقدِّمة

عنها والمحيطه بها والمتأخرة عنها - بأنّ لهذا الطفل الوليد ﷺ مدخلية في قبول صلاة المسلم وأعماله، فكذلك، تُعتبر ولادته ﷺ في شهر الحُرمة والرحمة، منبهاً للمسلمين على أنّ وليد هذا الشهر المبارك والمحرم، هو أحد مظاهر البركة والرحمة، وآته ﷺ أيضاً الإمام الذي يجدر بهم الاعتناء بمراعاة حُرمته وتبجيله وإعلاء شأنه؛ إذ قد جاءهم وحلّ بينهم في سياق نزول الرحمة الإلهية..

وفي خلاصة القول: فقد كانت ولادته ﷺ في شهر الرحمة والحُرمة؛ لأنّه الشّهر الأصبّ، وأحد أشهر الله الحرم. ومن ناحية المكان أيضاً، كانت ولادته الطّاهرة ﷺ في بيت الرحمة والحُرمة؛ لأنّ الكعبة المشرفة هي بيت الله الحرام، ولأنّه البيت العتيق الذي تُغفر عند أعتابه الذّنوب، وتنزل عنده البركات.

وهكذا ارتبط أمير المؤمنين ﷺ، منذ ولادته، منذ اللّحظة الأولى التي رأى فيها نور الحياة، ارتبط بالرحمة وبالحُرمة.. فهو - بإجماع المسلمين - من أهل بيت النّبي ﷺ، الرحمة الإلهية الموصولة، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وهو أيضاً من أهل البيت الذين فرض الله مودّتهم وتبجيلهم ومراعاة حُرمتهم أجراً للرّسالة، ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشّورى: ٢٣]..

هذا، ولو شئنا أن نتحدّث الآن عن شهادته المباركة ﷺ، لوجدنا أيضاً، أنّه ﷺ لم يُبارح الحُرمة والرحمة حتّى في زمان ومكان شهادته، فبادى ذي بدء، لقد اختار الله له الشّهادة؛ لتكون الخاتمة الفضلى لحياته الحافلة بالعطاء، اختارها له لتكون بدلاً من الوفاة الطّبيعية، تماماً كما كان هو ﷺ يتمنّى ويقول: «والذي نفس ابن أبي طالبٍ بيده، لألف ضربة بالسّيف أهون عليّ من ميتة علي الفرائش»^(١٠). وكأنّ شهادته ﷺ أبت إلا أن تكون مميّزة كولادته، فاختارت لنفسها شهر الله الأعظم، شهر رمضان، الذي أيامه أفضل الأيام، ولياليه أفضل الليالي، بل اختارت - بالتحديد - ليلة القدر، التي هي خيرٌ من ألف شهر..

لتبدو بذلك رحلة حياته ﷺ وكأَنَّها سفرٌ يتدبَّر من شهره، رجب، إلى شهر الله تعالى، شهر رمضان، مروراً بالنبي ﷺ وشهره شعبان.. ومن ناحية المكان أيضاً، فقد خُصَّصَ رأسه من لحيته في محراب بيت الله، ولولا أَنَّه ﷺ لم يفارق الله وشرعه وبيته ودينه ونبيه أبداً، لَقُلْنَا إِنَّ عَلِيّاً ﷺ يبدو في شهادته، وكأنَّ نفسه قد اشتاقت إلى البيت الذي وُلِدَ فيه، فاختارت أنْ تبدأ عملية تسليم الرُّوح لبارئها في نفس المكان الذي بُعِثَ فيه هذه الرُّوح، فكما تَمَّت عملية الاستلام في جوف بيت الله، فكذلك، بدأت عملية التسليم في محراب بيت الله.. في إشارة واضحة إلى أَنَّ عَلِيّاً ﷺ قد حافظ على الأمانة وردّها كما هي، وأنَّ روحه الطاهرة لا تنفك عن عين الله تعالى ونظره ولُطفه وعنايته واهتمامه، حتّى أَنه استضافها في بيته، ولادةً وشهادةً، تسليماً واستلاماً..

وفي عودةٍ إلى المناسبة السعيدة، إلى ذكرى ولادته الميمونة ﷺ، إلى الذكرى العابقة بعطر الولاية، بأريج الإسلام الأصيل، لا بدَّ لنا، في كلِّ عام، أن نجدد الوقوف مليّاً على الدروس والعبر التي نستفيد منها من هذه المناسبة، التي هي إسلاميةٌ جامعةٌ موحدةٌ بامتياز، وأنْ نقرأ جيّداً ونتمعّن في المعاني التي تزخر بها ذكرى ولادته ﷺ؛ لتكونْ ذُخْراً لنا وسنداً في الحوادث التي تواجهنا في حياتنا المعاصرة.. لنستمدَّ منها، وليكون اسم عليٍّ، وهو الاسم الذي يدور الحقُّ معه كيفما دار، ليكون قريناً مرافقاً لنا في مواقفنا وتصرفاتنا، في أقوالنا وأفعالنا، في أمورنا وشؤوننا؛ لأننا عندئذٍ فقط نستطيع أن نصف أنفسنا: بأننا أُمَّة تنتمي إلى النبي الأعظم محمد بن عبد الله ﷺ؛ لأنَّ النبي ﷺ مدينة العلم ودار الحكمة، وعليٌّ ﷺ باب هذه المدينة وتلك الدار - كما أسلفنا - ولأنَّ المدن لا تُؤْتى إلا من أبوابها، والدور لا يجوز دخولها إلا من حيث أجاز أصحابها ومالكوها..

فطوبى لمن قرأ الإسلام وتعاليمه بعين علوية، طوبى لمن كان علوياً، فلم

يُفارق محمدًا ﷺ وتعاليمه ودينه، وطوبى لمن كان علويًا في جعله الدين وشريعة النبي ﷺ همًا دائمًا له، شاخصاً نصب عينيه، لا يفارقه أبداً..

ولكي نستلهم من قيم هذه الولادة ومعانيها، نرجع إلى من يكون قريباً من عليّ عليه السلام، وذلكم الفقهاء رواة حديث النبي ﷺ وأهل بيته عليه السلام، وأبرزهم في زماننا الحالي وليّ أمر المسلمين الإمام القائد السيّد عليّ الخامنئي دام ظلّه، الذي ألقى - كعادته كلّ سنة - كلمةً من وحي هذه المناسبة المباركة، في جمع غفير وشرائح مختلفة من الشعب الإيراني، وذلك في اليوم الثالث عشر من شهر رجب من العام الحاليّ ١٤٢٩ هـ، الموافق لـ ١٦ / ٧ / ٢٠٠٨ م.

ومّا جاء في كلمته دام ظلّه:

«أبارك الميلاد السعيد لسيدنا أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، في أحد أهمّ أيام شهر رجب المبارك.. أباركه لكم أيها الإخوة الأعزّاء والأخوات العزيزات، ولجميع مسلمي العالم ممّن يرون للإمام علي عليه السلام شأنًا رفيعاً.. وكذلك أبارك لكلّ المظلومين والأحرار وطلّاب العدالة في العالم كلّ ممّن سمعوا بعدل علي عليه السلام فاشتاقوا إليه...»

ونسأل الله تبارك وتعالى أن يجعلنا شيعةً لأمر المؤمنين وأتباعاً له، بالمعنى الحقيقي للكلمة.

وفيما يخصّ الاحتفاء بهذه الولادة العظيمة، ننوّه بالنقطة التالية، وهي: أنّ الخصائص التي يتحلّى بها أمير المؤمنين عليه السلام، وتميّزه وتألّق إيمانه الأصيل، يُضاف إلى ذلك: الجهاد العصيب الذي تكبّده والعناء الشاقّ الذي تحمّله ذلك الإنسان الكبير، منذ صدر الإسلام وإلى آخر عمره الشريف، والعدالة الفدّة واللامعة التي مارسها في حكمه، في قوله وفعله، العدالة التي سحرت جميع من له وعيٌ وقلبٌ وعقلٌ وبصيرة، بلا استثناء، من المسلمين وغيرهم، إلى جانب عبادته الخالصة لله تعالى، وتضرّعه المنقطع النظير، إلى بقية الأوصاف والخصال

والسّجايا التي تفرّد وتميّز بها ذلك الرّجل، إنّ كلّ هذه الأمور، ليست شيئاً يختلف بشأنه المسلمون، من أئمة فرقة أو مذهب أو طائفة كانوا.. بل إنّ شخصيّة عليّ عليه السلام، شخصيّة تحظى بإجماع من الفرق الإسلامية كافّة.. وإنّ عظمة عليّ عليه السلام، وكمال سماته، وحُسن سجاياه، وفضائله، وشأنه ومقامه، ومنزلته والمكانة السامية التي له في الإسلام، هي كلّها أمورٌ إجماعيّة اتّفاقيّة لا خلاف بشأنها ولا إشكال ولا نزاع.

ومن هنا نجد: أنّه يحقّ لنا أن نقول، برفيع الصّوت، وبكلّ جرأة ودقّة ومسؤوليّة:

إنّ علي بن أبي طالب عليه السلام يمثّل أحد أهمّ المحاور التي يجب العمل عليها للحفاظ على الاشتراك والانسجام والتضامن الذي ينبغي أن يحلّ وأن يفرض نفسه في المجتمع الإسلاميّ، بين كافّة الأطياف والفرق الإسلاميّة؛ لأنّ المنزلة التي كان، ولا يزال، أمير المؤمنين عليه السلام يحتلّها في قلوب المسلمين جميعاً، ولدى الفرق الإسلاميّة قاطبة، وعلى امتداد الأزمنة والعصور - باستثناء قلة قليلة من النواصب والخوارج الذين مرقوا وخرجوا بتفريطهم وتحجّرهم وجودهم عن ربة الفرق التي تدّعي لنفسها الإسلام وتدين به - منزلة رفيعة عالية ومميّزة، كما يُمكن لنا أن نلاحظه بوضوح من خلال ما هو مسطورٌ في كتب الفريقين: السّنة والشّيعة على السّواء. وباختصار، فأمر المؤمنين عليه السلام باعتقادنا، هو ملتقى الفرق الإسلاميّة، وهو نقطة اشتراكها، ويمكن أن يكون مصدراً ومنبعاً يبيّث الوحدة واللّحمة والانسجام والتناغم بين المسلمين.

وهذا بالتحديد ما يحتاجه العالم الإسلاميّ اليوم.

فبينما يعمل أعداء الإسلام اليوم، وبكلّ ما أُوتوا من قوّة، على بثّ الفرقة، وإذكاء نار الفتن والخلافات والنّزاعات بين المسلمين - وهم بالتأكيد ليسوا من أنصار وأتباع هذه الفرقة ولا تلك، بل لو اقتضى الأمر أحياناً أن يقوموا بدعم

هذه الفرقة لضرب تلك، لفعلوا، ولا يمنعهم ذلك عن أن يمارسوا العكس في أحيانٍ أخرى - وفي مثل هذه الفترة، حيث المسلمون بأمر الحاجة إلى الوحدة والتعاطف والتلاحم والانخراط في صفٍّ واحد، في جبهةٍ مترابطة، في مثل هذه الظروف ومع كل هذه المخاطر التي تحيق بنا، والمؤمرات التي تُحاك علينا، فإننا نجد أنه يمكن لأمر المؤمنين ﷺ أن يمثل مظهراً ناصعاً شفافاً لهذه الوحدة التي نحن في أمر الحاجة إليها. وبمقدوره ﷺ أن يكون المحور الذي يتوحد تحت رايته والذي يدعن له ويعمل برأيه ويعترف به جميع المسلمين بلا استثناء. ويعود السبب في ذلك إلى أنه ﷺ ليس ملكاً حضرياً لطائفةٍ دون أخرى، أو لفرقةٍ دون فرقة، بل ليس بوسع أي طرفٍ كان، إن على الساحة الإسلامية أو غيرها، أن يدعي أن أمير المؤمنين ﷺ ملكٌ له، أو حقٌّ خاصٌ به.

حتى نحن الشيعة، وبالرغم من أننا نقول في الزيارة الجامعة - التي نوجه فيها الخطاب للنبي ﷺ وأهل بيته ﷺ -: «معروفين بتصدقنا إياكم»^(١١)، حتى نحن الذين نشتهر بمودتنا لأمر المؤمنين وآل الرسول ﷺ ونُعرف بحبنا بل بعشقنا هؤلاء الأشراف والسادة العظماء، حتى نحن لا نستطيع أن نزعم بأن أمير المؤمنين ﷺ ملكٌ لنا نحن فقط. لا بل لجميع مسلمي العالم، من شتى الفرق والمذاهب نصيبٌ في عليّ ﷺ وصلتهُ إليه وعلقةُ تربطهم به، ما داموا يعتقدون بأن أمير المؤمنين ﷺ، هذه الشخصية العظيمة، وهذا الإنسان الفريد، والمظهر التام للإسلام المحمديّ الأصيل، ما داموا يعتقدون بما هو الحق من أنه ﷺ لم يتخلف ولم يقصر عن اتباع الرسول الأكرم ﷺ وعن نصرته، ولو بمقدار أنملةٍ ولو قدر ذرةٍ، ولو للحظةٍ واحدة، وأنه ﷺ منذ فترة طفولته، وحتى صباه، وإلى ريعان الشباب، وحتى آخر لحظةٍ من لحظات عمره، لم يتوان ولم يقصر لحظةً واحدة، ولا طرفة عينٍ، ولا أقل من ذلك ولا أكثر، عن الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة الإسلام ونصرة النبي الكريم محمد ﷺ وصيانة القرآن

ونشر تعاليمه ومفاهيمه وقيمه».

وفيما يمسّ الشأن الداخلي والخارجي معاً للحكومة الإسلامية في إيران،
أضاف سماحته قائلاً:

«إنّ العدالة هي أبرز شعارٍ أراد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام تطبيقه عملياً
وجعله نافذاً وساري المفعول، وبما أنّنا، كمسلمين، نزعم التبعية والولاء
له عليه السلام، فعلينا أن نجعل العدالة وإنفاذها وتطبيقها على رأس سلّم أولوياتنا،
ومن الأمور التي يجب أن تتصدّر أجندة العمل في نظام الحكم الإسلامي».

ثم قال عليه السلام مخاطباً الشعب الإيراني والمسؤولين في الدولة بإيران:

«إنّ المطالبة بالعدالة يجب أن تتحوّل إلى ثقافةٍ عامّةٍ تسود وتنتشر وتعمّق بين
أبناء الشعب الإيراني المسلم، وأن يتحرّى هذا الشعب العدل والإنصاف في كلّ
الملفات والقضايا الشائكة أو السهلة، داخلية كانت أم عالمية ودولية».

وفي السياق عينه، شدّد الإمام القائد الخامنّي عليه السلام على أنّ «الشرط الرئيسي
لتطبيق العدل وإرساء دعائمه هو الاعتماد على العون الإلهي، وتمتين الصّلة
بالخالق جلّ شأنه وتحويلها إلى عُلقَةٍ وثيقةٍ وراسخة. وإنّ ما ينبغي علينا أن
نستغلّ وأن نستثمر هذه الأيام المباركة، أيام شهر رجب وشعبان ورمضان،
للدّعاء والتوسّل وتمتين العلاقة بالله تعالى لكي نتمكّن من السير بإرادةٍ قويّةٍ
واقتحام ميادين الحياة على الصّراط المستقيم، الذي يمثّله عليّ عليه السلام خير تمثيل».

كما وألح الإمام الخامنّي على الإقبال النّادر للنّاس عموماً، وللشّباب
خصوصاً، على إقامة وإحياء مراسم الاعتكاف بأجوائها الروحية العابقة،
معتبراً أنّ هذا التوجّه قيّم جدّاً، لما يمثّله من اعتكاف النّاس عن المادّيّات
وشؤون الدّنيا، ونزوعهم وارتحالهم نحو عالم المعنى وتهذيب الرّوح. وأضاف
عقب ذلك:

«ينبغي علينا أن نعرف جيّداً قيمة وقدّر أيام الاعتكاف هذه.. ويجب على

المسؤولين عن مراسم الاعتكاف أن يثابروا على تهيئة كافة المُستلزمات التي يحتاج إليها المشاركون في هذه المراسم، حتّى لا ينشغل المُعتكفون بالأُمور الصّغيرة التي تؤدّي إلى الإخلال بعبادتهم ومناجاتهم لرّبهم».

ثمّ أوصى سماحته عموم النّاس، وبالأخصّ: الجيل الشّابّ، بالانتهال في هذه الأيّام من المعارف العميقة التي أودعها الإمام السّجّاد في أدعيته المجموعة في ما يُعرّف بـ «الصّحيفة السّجّاديّة»، مُردّفاً:

«إنّ شهر رجب هو شهر التّوسّل بالله، وشهر التشبّه بأمر المؤمنين عليه السلام».

وفي مقطعٍ آخر من كلامه، اعتبر قائد الثورة الإسلاميّة: أنّه لا سبب للضّغوط والتّحديات والعقوبات التي يُواجه بها الشّعْب الإيرانيّ المُسلم إلّا مقاومته في خطّ الإسلام، والتّزامه بمبادئ النّظام الإسلاميّ، وحرصه على الإبقاء على سيادته واستقلاله.. مؤكّداً بالقول:

«إنّ على الشّعْب الإيرانيّ، ولكي يتمكّن من حفظ عزّته وصيانة استقلاله، أن يزيد من عزمه، وأنّ يشدّ من إرادته القويّة، التي استطاع من خلالها أن يقف على قدميه بكلّ قوّة وثبات في مواجهة أطماع المُستكبرين والمستعمرين وعجرفتهم طوال السّنوات الثلاثين الماضية».

وأشار آية الله العظمى الخامنئيّ إلى أنّ الأسلوب الذي تتّبعه القوى الكبرى دائماً هو تهديد الشعوب وإرهابها وإرعاها بغية إخضاعها وإقصائها عن ساحة الحياة المعاصرة وميادينها ومجالاتها، مضيفاً:

«إنّ هذا الأسلوب لا ينفع إلّا مع الحكومات التي لا تعتمد على شعوبها ولا تثق بهم، ولا تستمدّ شرعيّتها منهم، ولا تعمل لهم، وأمّا الحكومة التي تقوم على أصوات الشّعْب وتمثّل خياراتهم وتستند إلى إيمانهم بها وعاطفتهم تجاهها، فهي حكومةٌ يستحيل إقصاؤها عن السّاحة، وفرض التّراجع عليها، وهي حكومةٌ لا يُمكن إخضاعها، لا بالقوّة والسّلاح، ولا بالتهديد والتخويف، ولا بالإرهاب

والفوضى».

وأردف سماحته قائلاً:

«إنّ أمريكا حاولت مراراً، ومنذ انتصار الثورة الإسلامية المباركة، أن تُخرج دولة ونظام وحكومة الجمهورية الإسلامية ومسؤوليها عن الساحة العالميّة، لكنهم لم ينجحوا في مساعيهم هذه ولم يُوفّقوا في ذلك، لا لشيءٍ إلاّ لأنّ النظام الإسلاميّ الذي تعتمده إيران يركّز على أصوات الجماهير وينبع من عواطفهم ومن عميق إيمانهم ويمثّل حقيقة خياراتهم الوطنيّة، وكما لم ينجحوا سابقاً وإلى يومنا الحاليّ، فهم لن ينجحوا بعد اليوم أيضاً، إنّ شاء الله تعالى».

ولم يفت قائد الثورة الإسلامية أنّ ينوّه بالإنجازات العظيمة التي حقّقها الشعب الإيرانيّ في مجال التقنية النوويّة، فقال:

«إنّ شعبنا ليس مديناً لأحد في هذا الإنجاز العظيم والتاريخيّ؛ لأنّه عندما أنجز، أنجز دون منّة من أحد، بل تمتّ عملية تطويره وتثميّره وتخصّيبه بالهمة العالية والرغبة العارمة والإقبال الحثيث الذي أظهره الجيل الإيرانيّ الشاب، والذي تمّ استغلاله بالشكّل المناسب - بحمد الله تعالى - بفضل الدّرجة العالية من الوعي التي حملها المسؤولون عن هذه الدّولة المباركة».

وإذ أكّد الإمام الخامنّيّ بأنّ هذا المكسب ملكٌ لكلّ الشعب الإيرانيّ المسلم، وأنّه ما من قوة تستطيع سلبه هذه التقنية، أو منعه عن امتلاك هذا الحق العظيم، ذكر بأنّ:

«الشعب الإيرانيّ لديه من الوعي والبصيرة ما يجعله قادراً على التمييز بين أطرافٍ ودول تمنع بشدّة وتنكر حقّه في التوفّر على التقنية النوويّة التي هي ضروريّة للغاية في العلم الحديث، وتستكثر عليه أن يتمتّع - هو أو غيره من شعوب العالم - بهذا الامتياز الكبير، كأمریکا ومن يدور في مدارها، وبين دولٍ وأطرافٍ أخرى تكنّ الاحترام للشعب الإيرانيّ، وتعترف بحقوقه، وتراعي

خطوطه الحمراء، ولكنّها تطالبه بالتفاوض والحوار حول قضايا شتى، منها: الملف النووي».

كما أعلن قائد الثورة الإسلامية موافقة الجمهورية الإسلامية الإيرانية على التفاوض مع أوروبا، مؤكداً على أن:

«المفاوضات يمكن أن تتقدّم بيسر وسهولة شرط أن لا تسودها المناخات السلبية وأجواء التهديد». مذكراً الأوروبيين بأنّ عليهم أن يتنبهوا إلى أنّ الذي يفاوضونه هو الشعب الإيراني، وهو - كغيره من الشعوب المسلمة وأحرار هذا العالم - شعبٌ غيورٌ لا يستسيغ التهديدات ولا يرضى بها، ولا ولن يخضع لها. وأوضح الإمام الخامني بأنّ القرارات التي يتخذها مسؤولو البلاد في الملف النووي، هي قراراتٌ يتمّ اتخاذها بعد دراسةٍ مُعمّقة، وبمنتهى الدقة والمسؤولية، مذكراً بأنّ المسؤول المباشر عن التعاطي مع الملف النووي هو المجلس الأعلى للأمن القومي الإيراني، وعلى رأسه رئيس الجمهورية المحترم، وأنّ ما يصرح به رئيس الجمهورية والمسؤولون حول الموضوع النووي هي تصريحاتٌ مقبولةٌ متفقٌ عليها من كافّة مسؤولي البلاد ورؤساء السلطات الثلاث.

وقال آية الله العظمى الإمام الخامني رحمته الله:

«إنّ مواقف الجمهورية الإسلامية الإيرانية والخطوط الحمراء التي يعتمدها الشعب الإيراني واضحةٌ جداً، وإذا تمّ التفاوض على أساس هذا الإطار، فإنّ مسؤولي البلاد سيتفاوضون معهم بكلّ رحابة صدر، ولكن شريطة أن لا يهدّد أحدُ الشعب الإيراني. وإنّا نعلن هنا أنّه إذا فكّر أحدٌ بارتكاب أيّة حماقة تجاه الجمهورية الإسلامية الإيرانية، فإنّ ردّها العمليّ سيكون حاسماً سريعاً وعنيفاً، وهذا أمرٌ لا تردّد فيه ولا مهادنة ولا نقاش». وأضاف سماحته:

«أنّ تقوم الإدارة الأمريكية والكيان الصهيونيّ الغاصب بالتفوّه ببعض الكلام المتسرّع أو إطلاق بعض التهديدات ذرّاً للرّماد في العيون وتغطيةً على

مشكلاتهم الداخلية الكثيرة، فهذا أمر يعينهم. ولكننا نحذّرهم: إذا أقدموا على ارتكاب أية حماقة عملية، فعليهم أن يعلموا جيداً: أنّ الشعب الإيراني سيقطع اليد التي تعتدي على الجمهورية الإسلامية الإيرانية العزيزة. ولا فرق، بالنسبة للشعب الإيراني، أن تكون هذه اليد المجرمة والآثمة، من الدّاخل أو من الخارج، في إطار مسؤوليّة حكومية أو خارجها».

وأوضح القائد الخامنئي:

«إنّ من الخطأ ما يقوله البعض من أنّ الرّئيس الأمريكيّ إذا بادر لفعل أيّ شيء في الأشهر الأخيرة من ولايته الرّئاسيّة، فإنّ الإدارة الأمريكيّة المقبلة ستكون في حلٍّ من تبعات هذا الفعل وعواقبه.. بل إنّ الشعب الإيرانيّ المسلم والعزيز سيقوم بملاحقة ومعاقبة كلّ من يفعل شيئاً، حتى ولو لم يكن في موقع المسؤوليّة».

ثمّ في ختام هذه الكلمة، أكّد قائد الثورة الإسلاميّة على أنّ الشعب الإيرانيّ لا ييأس لحظة واحدة من عون الله تعالى ومدده ولطفه، بل هو صاحب إرادة واندفاع وأمل، وإنّ أفق الجمهورية الإسلاميّة ومُستقبلها أفقٌ مُشرقٌ ووضاء. وأخيراً وليس آخراً...

نسأله تبارك وتعالى أن يحفظ الأُمّة الإسلاميّة من كلّ سوء، وأنّ يجمعنا تحت راية الإسلام، وتعاليم محمّد ﷺ، وأخلاق عليّ ﷺ.. إنّهُ سميعٌ مجيبٌ..

* * *

الهوامش:

(١) المجلسي، العلامة محمّد باقر، بحار الأنوار ٣٥: ٩، الطّبعة الثّانية المصحّحة ١٤٠٣، دار إحياء

التّراث - مؤسّسة الوفاء، بيروت

(٢) المجلسي، بحار الأنوار ١٣: ٣٣٨، (مرجع سابق).

- (٣) ما جمعه الشريف الرضي من كلام أمير المؤمنين عليه السلام، نهج البلاغة ٢: ١٥٧، خطب الإمام علي عليه السلام، شرح وتحقيق: الإمام الشيخ محمد عبده، نشر: دار الذخائر ١٤١٢، الطبعة الأولى، قم، إيران.
- (٤) المتقي الهندي، علاء الدين علي، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ١١: ٦٠٠، ضبط وتفسير: الشيخ بكرى حياني، تصحيح وفهرسة: الشيخ صفوة السقا، نشر: مؤسسة الرسالة ١٤٠٩، بيروت.
- (٥) الحاكم الحسكاني، عبيد الله بن أحمد، شواهد التنزيل لقواعد التفضيل ٢: ١٤، تحقيق: الشيخ محمد باقر المحمودي، الطبعة الأولى ١٤١١، نشر: مؤسسة الطبع والنشر التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، طهران.
- (٦) البخاري، الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري ٤: ٢٠، باب: دعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الإسلام والنبوة...، نشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨١م، مصورة عن طبعة دار الطباعة العامة باستانبول.
- (٧) القندوزي، الشيخ سليمان بن إبراهيم الحنفي، ينابيع المودة لذوي القربى ٢: ٦٧، تحقيق: السيد علي جمال أشرف الحسيني، طباعة: دار الأسوة للطباعة والنشر، ١٤١٦هـ، الطبعة الأولى، قم.
- (٨) الأحزاب: الآية ٣٣.
- (٩) ابن أبي الحديد المعتزلي الشافعي، شرح نهج البلاغة ١: ١٦-١٧، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، نشر: دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٥٩م.
- (١٠) نهج البلاغة، ٢: ٢، خطب الإمام علي عليه السلام، (مرجع سابق).
- (١١) المجلسي، بحار الأنوار ٩٩: ١٥٢، (مرجع سابق).

ملف العدد
المقاومة، الانتصار، الأسرى



المقاومة ضرورة
ثقافة وفعلاً

□ أ.د: أسعد السحمراني (*)

لماذا ثقافة المقاومة؟

يشهد العالم في هذه السنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين للميلاد تطلّعاً امبراطورياً، ونزعةً تسلّطية استعلائية استكبارية، تقوم على مزاعم الأمة الممتازة عند قادة الولايات المتحدة الأمريكية، ومزاعم الشعب المختار عند الصّهيونية اليهودية، وبذلك نشأ مشروع استعماريّ احتلاليّ وإحلاليّ استيطانيّ صهيو - أمريكي يكتوي العالم كلّ بنار أطماعه، وبشكلٍ خاص العالم الإسلامي والأمة العربية.

هذه المشروعات الاستعمارية التي تتخذ مسميات عديدة من الحقّ في أرض

(*) مسؤول الشؤون الدينية في المؤتمر الشعبي اللبناني، أستاذ العقيدة والأديان في جامعة الإمام الأوزاعي/ بيروت.

فلسطين الَّذِي يدّعيه يهودٌ، والصّهاينة منهم بشكلٍ خاص، إلى شعارات العولمة والنّظام العالمي الجديد والشرق أوسطيّة والأورومتوسطية وغير ذلك، تمثّل خطراً داهماً يهدّد الأُمّة العربيّة والعالم الإسلامي ديناً ومقدّساتٍ وشعباً وأرضاً وحقوقاً وقيماً واقتصاداً وفنوناً... الخ.

إنّ هذه الهجمة التي أدّت إلى اغتصاب الأرض وتدنيس المقدسات وقتل أو تشريد أو أسر الشّعب، وإلى نهب الثروات، واستباحة كلّ الحرمات لا يكون ردّها بالأمني، ولا بالتوسّل والاستجداء، بل بالإعداد والاستعداد والمواجهة والتّضحيات.

الثقافة والمقاومة:

إنّ ضبط المصطلح وبيان الدلالة منه أمران أساسيان في المسار الفكري الَّذِي يؤسّس للفعل والتّنفيد. والثّقافة يحتاج الوقوف على حقيقتها قبل أن تنسب إلى مسارٍ ليستخدمها الإنسان من أجل مقاصده.

إنّ الثّقافة هي الهويّة، وهي خصائص الشّخصيّة المجتمعيّة للأُمّة ومن ضمنها الأفراد، ولا يكون مجتمع أُمّة بلا ثقافة تخصّه، ولا يستطيع إنسان أن يحيا في محيطه وهو مجرّد من الثّقافة. قال مالك بن نبي: «الثّقافة هي التّعبير الحسيّ عن علاقة الفرد بهذا العالم؛ أي: بالمجال الرّوحي (noosphere) الَّذِي ينمي فيه وجوده النّفسي، فهي نتيجة هذا الاتّصال بذلك المناخ. فالفرد إذا فقد صلته بالمجال الحيوي قرّرنا أنّه مات موتاً مادّيّاً، وكذلك الأمر إذا فقد صلته بالمجال الثّقافي، فإنّه يموت موتاً ثقافياً. فالثقافة إذن - إذا ما رددنا الأمور إلى مستوى اجتماعي - هي حياة المجتمع التي بدونها يُصبح المجتمع ميتاً»^(١).

العلاقة بين الفرد وانتمائه الاجتماعي تسيّره الثّقافة، وتعامل الفرد ومجتمعه مع المحيط كلّ بيئة وثروة ومعالم وإنساناً تسيّره الثّقافة التي يلتزمها.

وما ذلك إلا لأنَّ «الثَّقافة أمرٌ ينطلق من ذات الإنسان، ويحمل معنى التَّقويم والتَّقيّة رقيّاً بهذه الذات باتجاه معاني الخير والحقّ والعدل والجمال وسائر القيم. والثَّقافة في جوهرها عملية إطلاقٍ للطّاقات باتجاه توليد وعي جمعيّ يشكّل الهوية التي تقود وتطبع الحضارة بطابعها، وهي عندنا العقيدة والنّظرة إلى الكون، ومجمل المبادئ والأسس والقيم التي نؤمن بها ونلتزمها ونعمل على تطبيقها، وهي كلّ ما يميّز شخصيّة الأُمّة من لغة وفكر وفنونٍ وعلومٍ وتقاليده وأعراف»^(٢).

الثَّقافة هي هويّة الأُمّة ولها صفة الثّبات والخصوصيّة، ومن مهام الثَّقافة أن تصوغ نُظم التّربية وسائر أنواع الخطاب على قاعدة «التّحدّي والاستجابة». فهذه القاعدة هي الرّكيزة الأساسيّة لحركة الحضارة في أيّة أُمّة، وإذا كانت الأُمّة العربيّة والإسلاميّة - كما هو معلوم - تتعرّض لتحدياتٍ متنوّعة استعماريّة تتمظهر في الميادين كافّة فإنّ قاعدة «التّحدي والاستجابة» تقتضي التّربية والإعداد لكلّ فئات المجتمع وشرائحه على ثقافة المقاومة من أجل ردّ التّحديات، وتحرير الأرض والمقدسات، ووقف كلّ أشكال التّطاول والاستكبار الصهيوني - أمريكي.

إنّ المقاومة عملٌ مشروعٌ تقتضيه الفطرة البشريّة التي تقوم على حبّ الحفاظ على الحياة واستمرارية النّوع، كما أنّ مسار العلاقات بين الأمم والشّعوب قام على اعتماد المقاومة سبيلاً لردع الاعتداءات.

المقاومة في المعاجم العربيّة هي: «مواجهة القوّة ومجابهتها بالقوّة والصُّمود في وجه المهاجم، والاعتراض على ما ينافي العدل، وينافي الرّغبات، وقوّة الاحتمال والصّبر على الشّيء، ومنه مقاومة العنف»^(٣). والمقاومة المسلّحة: «لجوء جماعة من المواطنين المسلّحين إلى محاربة العدو أو المحتلّ بوسائل متنوّعة، كشنّ الهجمات المتفرّقة أو إحداث تخريبٍ في قواعده ومنشآته من ساكنيها»^(٤).

وغير بعيدٍ عن هذا المفهوم ما ورد في المعاجم الأوروبية لجهة تعريف المقاومة الخاصة تلك التي كانت في مواجهة اجتياح هتلر لأقسامٍ من أوروبا؛ حيث جاء في معجم فرنسيّ تحت مصطلح (Résistance) مقاومة، ما يلي: «اسمٌ أُطلق على النشاط السّريّ الذي جرى في فرنسا وسائر أوروبا من قبل مختلف المنظّمات والحركات من أجل الكفاح ضدّ الاحتلال الألماني منذ الحرب العالمية الثّانية حتّى تحرير الأرض. وفي فرنسا بالإضافة إلى ذلك كانت المواجهة مع النّازيّة من خلال العمل وفق برنامجٍ سياسيٍّ واقتصاديٍّ واجتماعيٍّ يحدّد مستقبل البلاد، وقد قمعت النّازية بعنف المقاومة، وحسب مصادر موثوقة فإنّه تمّ أسر ١١٥٠٠٠ مقاوم، وقد توفي ٧٥٠٠٠ منهم في معسكرات الاعتقال تحت التعذيب»^(٥).

إنّ تعريف المقاومة السّابق ذكره يقودنا إلى التّأكيد على أنّ قرار المقاومة، وإرادة المقاومة ضرورتان في حياة الفرد والأُمّة؛ لأنّ الإنسان بفطرته وطبعه يميل إلى حبّ الحياة، وهذا ما يدفعه إلى الاجتماع فالتّعاون والتّحالف والتّناصر مع الآخرين لتحقيق هذا الميل.

إنّ ثقافة المقاومة ليست استثناء، ولا هي أمرٌ خاصٌّ بأُمّةٍ أو ظرفٍ أو مرحلة، وإنّما تُشكّل ثقافة المقاومة حاجةً ضروريّةً؛ لذلك كان امتلاك أدوات الدّفاع وإتقان أساليبه في رأس قائمة اهتمامات الإنسان أيّاً كان موقعه أو الحال الذي هو عليه.

والثقافة المطلوبة لنشر فكر المقاومة ليست تلك التي تعتمد القوّة بشكلٍ غاشمٍ وغير مشروع، وإنّما تلك التي تردع العدوان، وتنشر العدل، وتمنع الظّلم.

هل المقاومة شرعيّة ومحقّة؟

إنّ مراجعة تاريخ الأُمم والشّعوب تبين بشكلٍ جليٍّ أنّ مقاومة العدوان

ضرورة رافقت الإنسان في كُلِّ المراحل والمواقع، من ذلك مقاومة الحيوانات المفترسة والمؤذية، ومقاومة التقلبات الطبيعية (زلازل، براكين، سيول... الخ)، وقد تنوّعت وسائل الدِّفاع عن الحياة وأساليبه من الغذاء إلى الملبس والسكن إلى الاستطباب فالزواج وتكوين الأسرة والتكاثر وصولاً إلى الدِّفاع عن الأوطان والحقوق.

وضوابط قبول الآخر أو مقاومة ظلمه وعدوانه وردا في آيتين كريمتين من سورة الممتحنة، جاء فيهما قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ بَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَظَهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾.

إنَّ المؤمن مأمورٌ بمقاومة كُلِّ من اعتدى على دينه، أو أرضه وممتلكاته وسائر حقوقه، ويستوي مع هذين الصّنفين مَنْ ساعد المعتدي في إخراج النَّاس من أوطانهم، أو اغتصاب أرضهم ومالهم وسائر ما يخصهم، وكذلك لا يصحُّ الشُّكوت عن المعتدين أو موالاتهم، أو التحالف معهم، ومن فعل ذلك كان ظالماً، وقد أصدر المجمع الفقهي الإسلامي في رابطة العالم الإسلامي في دورتها السادسة عشرة التي عقدها في شهر شوال من العام ١٤٢٣هـ بيان مكّة، وقد جاء فيه انطلافاً من الآيتين السابقتين تعريف الجهاد بأنّه:

«إنَّ الجهاد في الإسلام شُرّعُ نصرةً للحقِّ، ودفعاً للظلم، وإقراراً للعدل والسّلام والأمن، وتمكيناً للرّحمة التي أرسلَ مُحَمَّدٌ ﷺ بها للعالمين؛ ليخرجهم من الظُّلمات إلى النُّور، ممّا يقضي على الإرهاب بكُلِّ صوره. فالجهاد شُرّع لذلك، وللدِّفاع عن الوطن ضدَّ احتلال الأرض ونهب الثروات، وضدَّ الاستعمار الاستيطاني الَّذي يخرج النَّاس من ديارهم، وضدَّ الَّذين يظاهرون ويساعدون على الإخراج من الديار، وضدَّ الَّذي ينقضون عهودهم، ولدفع فتنة المسلمين في

دينهم، أو سلب حرّيتهم في الدّعوة السلمية إلى الإسلام... ولا يمكن التّسوية بين إرهاب الطُّغاة وعنفهم الّذين يغتصبون الأوطان، ويهدرون الكرامات، ويدنسون المقدسات، وينهبون الثروات، وبين حقّ الدفاع المشروع الّذي يجاهد به المستضعفون لاستخلاص حقوقهم المشروعة في تقرير المصير»^(٦).

ويكمل البيان مطالباً دول العالم، والمؤسسات الدولية بأن تأخذ هذا الأمر بعين الاعتبار، وأن توقف إرهاب الدّولة الّذي يمارسه العدو الإسرائيلي في فلسطين المحتلّة، وما يمثله من أشكال الاستعمار والعدوان؛ لأنّه لا استقرار عالمياً، ولا علاقات سوّيّة بين الشُّعوب ما دام هناك مثل هذا العدوان والاعتصاب للأرض والاحتلال والظلم والعدوان والقتل والتّشريد والنّهب والسلب.

ولم يكن موقف مجمع البحوث الإسلاميّة في الأزهر الشّريف مختلفاً عن موقف الرّابطة، وقد صدر عن المجمع في جلسته المنعقدة بالقاهرة في ١٥ شعبان من عام ١٤٢٢هـ، الموافق ١ / ١١ / ٢٠٠١ بيانٌ جاء فيه:

«والجهاد الإسلامي: هو بذل الجهد ونصرة للحقّ ودفعاً للظلم وإقراراً للعدل، وفي حالتين اثنتين:

١. الدفاع عن الوطن ضد احتلال الأرض ونهب الثروات، وضدّ الاستعمار الاستيطاني الّذي يُخرج المسلمين من ديارهم، وضدّ الّذين يظاهرون ويساعدون على الإخراج من الديار، وضدّ الّذين ينقضون عهودهم.

٢. دفع فتنة المسلمين في دينهم، وإجبارهم على تغيير عقيدتهم، أو سلب حرّيتهم في الدّعوة السلمية إلى الإسلام. وقد استشهدت لهذا الموقف بالآيتين السابقتي الذكر من سورة الممتحنة.

إنّ هذا الحقّ في مقاومة كلّ أشكال الاحتلال والعدوان أكّده الحديث النبوي الشّريف، ومن ذلك الحديث: «من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل

دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد^(٧).

إنَّ الإنسان في الأُمَّة العربية والإسلامية يسلب الاستعمار والمحتلون الغاصبون ماله، ويعتدون على مقدّساته، وأبرز ذلك ما يحصل من عبث بالقدس من قبل العدو الإسرائيلي المحتلّ وغير ذلك كثيرٌ في ميادين عديدة إعلاميّة، وأمّا الدماء فمستباحةٌ من فلسطين إلى لبنان إلى العراق وسواهم من المواقع، والحال نفسه باعتداء الأعداء على القوم والأهل بمختلف أشكال العدوان على الفكر والاقتصاد والفنّ والكرامة، وبعد كلّ ذلك ألا يكون الواجب أن يطلب المؤمن الشّهادة دفاعاً عن كلّ هذه الخصوصيات المعتدى عليها؟! ودرب الشّهادة يحتاج أن يسبقه الإعداد، ولا إعداد أو استعداد إلاّ حال توافر ثقافة المقاومة التي ترغّب بالشّهادة بدل أن يرتضي أيّ إنسان الخضوع والخنوع والتّسليم بالأمر الواقع.

وعن أنسٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأيديكم وألستكم»^(٨).

والقتال في الإسلام ليس مطلباً وإنّما هو حاجة يفرضها الواقع حين يحصل عدوانٌ أو احتلالٌ، قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

ولكن ذلك لا يجوز أن يكون مبرراً لبعض نهّازي الفرص ليركنوا إلى الدّل، وليفروا من المجابهة والمواجهة، والجهاد والمقاومة أصل وأساس، ولا تستقيم الحياة إلاّ بهما. وقد رغّب الإمام عليّ - كرم الله تعالى وجهه - بذلك، قائلاً: «إِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ فَتَحَهُ اللَّهُ لِلْخَاصَّةِ أَوْلِيَائِهِ، وَهُوَ لِبَاسُ التَّقْوَى وَدِرْعُ اللَّهِ الْحَصِينَةُ وَجُنَّةُ الْوَيْقَةِ، فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ أَلْبَسَهُ اللَّهُ ثَوْبَ الدُّلِّ وَ شِمْلَةَ

البلاء»^(٩).

وهذه الشرعية الإسلامية للمقاومة لم تخالفها المواثيق الدولية، لا بل أقرّ ميثاق هيئة الأمم المتحدة بحقّ كلّ شعبٍ يُعتدى عليه بأنّ يعتمد إلى استخدام كلّ ما تيسّر له من أشكال القوة لردع العدوان ولتحرير أرضه، واسترداد حقوقه. ففي المادة (٥١) من ميثاق الأمم المتحدة جاء النصّ التالي:

«ليس في هذا الميثاق ما يضعف أو ينقص الحقّ الطبيعي للدول، فردى أو جماعات، في الدفاع عن أنفسهم إذا اعتدت قوة مسلحة على أحد أعضاء الأمم المتحدة، وذلك إلى أن يتخذ مجلس الأمن التدابير اللازمة لحفظ السلم والأمن الدولي، والتدابير التي اتخذها الأعضاء استعمالاً لحقّ الدفاع عن النفس تبلغ إلى المجلس فوراً، ولا تؤثر تلك التدابير بأيّ حال فيما للمجلس، بمقتضى سلطته ومسؤولياته المستمرة من أحكام هذا الميثاق»^(١٠).

إنّ هذا النصّ يؤكّد حقّ أيّة أمةٍ معتدى عليها باستخدام القوة والمقاومة لردع المعتدي والمحتلّ، وإنّ هذا الحقّ طبيعيٌّ لا يحتاج إلى تشريعاتٍ أو قوانين. وقد توالى التوصيات الصّادرة عن الهيئة العامة للأمم المتحدة مؤكدة على هذا الحقّ في المقاومة، وصدّ أيّ عدوان. من ذلك قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة الّذي يحمل الرّقم: (٢٦٢١)؛ وذلك في الدّورة الخامسة والعشرين بتاريخ: ١٢ / ١٠ / ١٩٧٠، ونصّ القرار هو:

«أ. إنّ استمرار الاستعمار بأيّ شكلٍ من أشكاله أو مظاهره هو جريمةٌ تشكّل خرقاً لميثاق الأمم المتّحدة، وإعلان منح الاستقلال للبلدان والشّعوب المستعمرة، ولمبادئ القانون الدولي.

ب. إنّ للشعوب المستعمرة حقّها الأصيل في الكفاح بجميع الوسائل الضّرورية التي في متناولها ضدّ الدول الاستعمارية التي تقمع تطّعاتها إلى الحرية والاستقلال.

ج. إِنَّ عَلَى الدُّولِ الأعضاء أَنْ تَقْدِّمَ إِلَى شعوبِ الأقاليمِ المستعمرة كُلِّ مساعدةٍ معنويّةٍ وماديّةٍ تحتاج إليها في كفاحها لنيل الاستقلال».

وهناك قرارٌ رقمه: (٣٣٨٢) صدر عن الدورة الثلاثين للجمعية العامة للأمم المتحدة بتاريخ: ١٠ / ١١ / ١٩٧٥، وفي نصّ القرار: «تؤكد الجمعية شرعية كفاح الشعوب في سبيل الاستقلال، والسّلام الإقليمي، والتّحرير من السّيطرة الاستعمارية بجميع الوسائل بما فيها الكفاح المسلّح».

وأظنّ هذه النصوص وغيرها كافية لتأكيد شرعية المقاومة وضرورتها، وأنّ الكفاح المسلّح وسائر أنواع الكفاح هي سبيلٌ وحيدٌ للتحرير واسترداد الحقوق المسلوبة، واتّهامات الأمريكي وحلفائه لمقاومتنا بأنّها إرهابٌ مردودٌ عليهم؛ لأنّهم يمارسون إرهاب الدولة مع شركائهم كافة، أمّا مقاومتنا الوطنيّة والإسلاميّة، وكُلّ ما نقوم به من ممانعة ومجابهة إنّما هو حقٌّ طبيعيٌّ أكّده الشّرائع والمواثيق، ولا خيار أمام الشّرفاء سوى المقاومة فكرياً وفعلاً.

كيف نستطيع صناعة أمةٍ مقاومة؟

إنّ الوصول إلى النّصر والتّحرير يحتاج إلى شعبٍ مشبّع فكره بثقافة المقاومة، وفكر المقاومة، وهذا رهين أسسٍ تحتاجها هذه الصّناعة، منها:

١. نشر التدين وتعميق قيم الدّين في الإنسان فرداً ومجتمعاً وفق قاعدة «الإيمان بلا تعصّب»؛ لأنّ الإيمان مع الرّشاد والحكمة تربوياً ينتجان جيلاً جاهزاً للتضحية والفداء من أجل الإنسان والمقدسات والأوطان دونها حسابٍ للخسائر المادية، ولا تردّدٍ في الإقدام حتّى لو كلّف ذلك الحياة. فالرّوح الجهاديّة تحتاج صناعتها للعامل الإيماني - الديني عاملاً حاسماً.

٢. نشر المنهج الوحدوي الذي تنفسح ساحاته للتنوّع تحت سقف الوحدة بنوعيتها: الوحدة الدينية وإنّ تنوّع الفقه أو تنوّعت المذاهب. والوحدة الوطنيّة

والقومية وإن تنوّعت المعتقدات والانتماءات الدينية أو العرقية أو القبلية أو سواها. فالوحدة ركنٌ أساسيٌّ في العمل المقاوم؛ لأنّ الجبهة الداخلية المتماسكة والمعززة تشكّل دعماً حاسماً وأساسياً للمقاومة الرسميّة أو الأهليّة؛ لهذا نجد العدو الصهيوني - أمريكي وحلفاءه يعملون لضرب الوحدة، وزرع الفتنة والفرقة، والعمل لتفتيت الأمة إلى كياناتٍ طائفية وعرقية؛ لئلا يتمكنوا من السيطرة عليها، وهذا ما يسمّونه: الشرق الأوسط الجديد. والأمر الطبيعي أن يعمل جميع الغيارى لوأد الفتن بأيّ رداء استترت.

٣. التحريض والتعبئة ورفع الروح المعنوية على أساس الآية الكريمة: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضٌ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥]. فمثل ذلك يولّد إرادة المقاومة، والمعلوم أنّ المقاومة إرادة وليست خاضعة لموازين القوى. إنّ المؤسسات الإعدادية والتربوية، ومعها الإعلام وكلّ مؤسسات المجتمع الأهلي تحتاج إلى مناهج وبرامج مشحونة بالروح المعنوية العالية، وبالاندفاع إلى ساحات المواجهة ليس على أساس موازين القوى، وإنّما طلباً لهدف هو صناعة الرعب للعدو كي تنهار معنوياته، ويستسلم فيقرّ وهو يجرّ أذيال الخيبة، وقد قال الله تعالى: ﴿سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢].

هذا التوجيه لا يتناسب معه أيّ هوانٍ أو ضعفٍ، أو كلامٍ ينشر ثقافة اليأس ويضخم قدرات الأعداء بدل أن يبرز مواقع القوة في الأمة، ويرفع من المعنويات، ويقوّي العزائم.

٤. إنّ مقاومة الاستعمار بكلّ أشكاله يحتاج ثقافة تنزع من صدر كلّ فردٍ في الأمة القابلية للاستعمار؛ لأنّ القابلية للاستعمار على مستوى كيان الفرد الداخلي الفكري والنفسي أخطر على الأمة وعلى حركة المقاومة من الاستعمار نفسه. لقد نبّه إلى خطر القابلية للاستعمار المصلح الجزائري مالك بن نبي (ت):

١٩٧٣م)، ومِمَّا قاله: «لكي نتحرّر من أثر الاستعمار، يجب أن نتحرّر أولاً من سببه، وهو القابليّة للاستعمار. فكون المسلم غير حائزٍ جميع الوسائل التي يريدّها لتنمية شخصيته، وتحقيق مواهبه: ذلك هو الاستعمار. وأمّا ألا يفكر المسلم في استخدام ما تحت يده من وسائل استخداماً مؤثراً، وفي بذل أقصى الجهد ليرفع من مستوى حياته، حتّى بالوسائل العارضة، وأمّا ألا يستخدم وقته في هذا السبيل، فيستسلم لحظة إفقاره وتحويله كما مهملاً يكفل نجاح الفنية الاستعماريّة فتلك هي القابلية للاستعمار»^(١١).

إنّ نزع القابلية للاستعمار من النفوس يحصّن الفرد من قبول الاستتباع أو التّبعيّة للأجنبي ومخططاته، أو قبول الوافد المسموم من عنده، وهذه تربية يحتاجها الجميع، وهي مقدّمة أساسية لصناعة الشّخصيّة المقاومة للاستعمار.

٥. الإعداد والاستعداد في ميدان الفكر والسياسة والاقتصاد والقوّة العسكرية. إنّ مجتمع الإسلام الأوّل الذي صاغه رسول الله ﷺ بعد الهجرة في المدينة المنورة يشكّل النموذج الواجب اعتماده من قبل كلّ مسلمٍ وكلّ مجتمعٍ من مكوّنات الأُمّة العربيّة والإسلاميّة.

بعد الوصول إلى المدينة المنورة كان الفعل الأوّل بناء المسجد الجامع المعروف بالمسجد النبوي بعد اختيار موقعه، والمسجد يربط الإنسان المؤمن مع الله تعالى ومع دينه، وهو موقع العمل القيادي والتّعليمي والتّربوي.

والفعل الثّاني كان شراء بئر رومة، وهذا أمرٌ اقتصاديٌّ؛ حيث لا يخفى دور الماء في مناطق في قلب الصّحراء، ومن ثمّ كان الاهتمام بالإعداد العسكري، ومنه الأمور التّالية:

أ. اعتماد القاعدة التي تقضي بأنّ كلّ بالغٍ من الرّجال مقاتلٌ، والجهد عليه واجبٌ.

ب. استقدام السيوف والأسلحة من مصادرها، هذا مع إرسال اثنين من

الصَّحابة، هما: عروة بن مسعود وغيلان بن سلمة إلى جرش (في الأردن)؛ ليتقنوا فنَّ تصنيع أسلحة العصر من منجنيق ودبابات؛ حيث كان جرش تحت الحكم الروماني البيزنطي، وكانت معتمدة مكاناً لمثل هذه الصناعات العسكرية.

ج. التشجيع على اقتناء الخيول لما لها من دورٍ في ميدان المعارك.

أمّا على صعيد المجتمع، فقد كان بناء المجتمع بالتّجاهين:

- التّآخي بين مَنْ دخلوا في الإسلام، وهم المهاجرون والأنصار؛ حيث أمرهم رسول الله ﷺ قائلاً: «تآخوا في الله أخوين أخوين»^(١٢).

- بناء العلاقات مع غير المسلمين بناء لميثاقٍ وطنيٍّ يضبطُ أسس قبول الآخر ويحدّدها، وكان ذلك من خلال النّصّ التعاقدي المعروف باسم «الصّحيفة». هذا البناء هو الَّذي أهل السّابقين الأوّلين لمواجهة الظّلم، ومقاومة الامبراطوريات المعاصرة، هذا مع نشر الدّعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وترافق مع ذلك قيام مجتمعٍ لا ظلم فيه ولا جوع أو تشريد، وساد العدل والخير والحقّ والكفاية.

٦. إنّ مقررات الموادّ التّعليمية في الوطن العربي وفي العالم الإسلامي تحتاج لتعديلٍ خاصّة مواد العلوم الإنسانيّة بدءاً من مادة التّربية الدّينية إلى الأدب والاجتماع والاقتصاد والجغرافيا والفلسفة والحضارات وسواها؛ بحيث يلحظ واضعوا المناهج ومؤلفوا المقررات أمر التّربية على المقاومة.

واجب العملية التّعليمية أن تؤمّن للأجيال المفاهيم والأفكار لتكوين شخصيّة مقاومةٍ عمادها السّماحة من جهة، والعزّة من جهةٍ أُخرى، تلك الشّخصية التي تتربّى على الفدائية والتّضحية، ومن مفاهيمها الجوهرية: «الجهاد حتّى نيل إحدى الحسين: النّصر أو الشّهادة»، لا يقدر على دفع ضريبة الدّم غير الدّين يقدّرون شرف الحياة.

٧. إنَّ علم الاستراتيجية يوجّه إلى قواعد أساسية في ميدان المواجهة، منها: قاعدة «اعرف عدوك»، وقاعدة: «حشد القوى».

وتطبيقاً لهاتين القاعدتين يحتاج مشروع التربية على المقاومة إلى فكرٍ ووسائل نشرٍ من منابر وملتقيات وإعلام، إلى علمٍ واسعٍ بحقيقة الأعداء ومشاريعهم الاستعمارية الاحتلالية والاستيطانية الإحلالية، أو مشاريع الغزو الفكري والاقتصادي؛ كي يجعل الأجيال على درايةٍ بمن يقاومونه.

أما حشد القوى، فيستلزم حرصاً على الوحدة، وبالتالي مواجهة كُلِّ دعوةٍ للتفرقة والانقسام، هذا مع التوظيف السليم للطاقات والقدرات، وعدم هدرها في معارك وهمية بحيث نصل إلى المواجهة الحقيقية منهكين.

٨. لقد أعدت المنظمة الإسلامية للتربية والتعليم والعلوم والثقافة - آيسيكو - مجموعة وثائق نشرت تحت اسم: (استراتيجية)، وعالجت موضوع التقريب بين المذاهب الإسلامية، وموضوع إدماج القيم الإسلامية في المناهج الدراسية، وموضوع أدب الاختلاف والحوار، وكانت تحت عنوان: «الاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي»، ومضامين وتوجيهات هذه الاستراتيجيات بقيت في معظمها حبيسة الوثائق المطبوعة، ولم تتلقفها الحكومات ولا المؤسسات الأهلية لتصوغ على أساسها برامج عملٍ تسترشد بها في مسارها الحضاري، ومن ذلك التأسيس لثقافة المقاومة.

٩. إنَّ إرادة الحياة فطرة الإنسان، وغريزةٌ في سائر المخلوقات، ولكن الحياة البشرية لجهة الحفاظ على الحياة، واستمرار النوع بالتوالد، وهي مقاصد في الإنسان لا قيمة لها ما لم تقترن بالكرامة والعزة.

يقود هذا إلى القول: إنَّ الإنسان يجب أن يتربى على رفض الحياة مع الذلِّ، وأن تقوى فيه نزعة حبِّ الآخرة والموت وكرهية الدنيا بما فيها من مطالب وعلائق مادية الطَّبائع. إنَّ الواجب على المربي أن يعزّزوا في الناشئة حبَّ

الشَّهادة، وفلسفة الموت دفاعاً عن الدِّين والوطن والحقوق؛ لأنَّ ذلك يزرع الوهن في صفوف العدو، ويُلقي الرُّعب في قلوب جنوده وقياداته، وبذلك يتحقّق النصر.

١٠. نشر الأدب الملتزم، وبشكلٍ خاصّ الشعر الَّذي يحمل من خلال صاحبه مشاعر أبناء الأُمّة وانفعالهم تجاه التّحديات، ويعبّر عن روح الصُّمود فيهم، وعن تطلُّعاتهم نحو المستقبل.

قال رسول الله ﷺ في الحديث: «التمسوا غريب القرآن في الشعر؛ فإنّه ديوان العرب»^(١٣).

وعندما يراجع المطالع نماذج من الشعر الملتزم فإنّه يجد الموقف والتّعبئة والحدس الصادق بالتّصر، ولو أخذنا نماذج من شاعرٍ معاصرٍ هو الشّاعر اللُّبناني طارق ناصر الدين^(١٤)، الَّذي حمل معاناة الأُمّة وقضاياها، فكان لسان الأُمّة بكلِّ ما لذلك من دلالة.

القدس هي القلب من القضية المركزية فلسطين، وهي المدنسة والمهانة والمحتلّة، قال فيها شاعر المقاومة طارق ناصر الدين:

القدسُ في بالنا مرمى النّجوم، ألمْ

يسرّ الرّسول لها والليل متّددٌ

وجاء حاخام إبليس يجرّدها

من ثوبها وهي عذرائي التي تلدُ

خاف السّلاطينُ من بطش اليهود، ويا

عار السّلاطين لا لبّوا ولا حشدوا

حتّى أطلّت يدٌ في متنها حجرٌ

يا قدس لا تجزعي، أطفالك المددُ^(١٥).

لأنّ الشّاعر المقاوم أدرك أهمية وحدة المسلمين في أساس ثقافة المقاومة، فقد

قال في قصيدة له:

ما أورثونا فرقةً أو بدعةً زورٌ على الإسلام حشد مذاهب
من لم تعد تكفيه نسبة مسلم واختار أن يبقى أسير الناس
لا أنت مرشده ولا إسلامه حتى ولو أدّى الفروض كراهب
الدين ليس مذاهباً مهزومة الدين بذل النفس يوم الواجب^(١٦)
ويخاطب الشاعر قوافل الفدائيين من الذين يتقدمون على درب الشهادة غير
آبهين بالثمن، فكان ديوانه الثالث تحت عنوان: (تابعوا موتنا)، ومنه قصيدة
حملت العنوان، ومما قاله:

تابعوا موتنا...

كل يوم ستشرق الشمس فوق القبور...
وتنمو العصافير والعشب والغناء...

تابعوا موتكم...

نحن من أمة عظيمة يبدأ في قبورها الانتفاء^(١٧)...

وأبداع شاعر المقاومة مجموعة قصائد وجهها إلى الرئيس الأمريكي جورج
بوش، منها هذا المقطع:

يا مستر بوش الجونيور...

يا أنفه طاغية عرفته الأرض المقلوبة...

صهيونيتك تفح فحيحاً دورك دور الألعبوة...

شارون أمر فنقد خطته المرغوبة...

قتل الأطفال، وحرقت الأشجار...

وتهجير القدس المسلوقة...

لكن أبابيل الثأر ستأتي تحت جوانحها السجيل...

لماذا روحك مرعوبة؟

إرهابيون نعم، إرهاب الشيطان...
رسالتنا المكتوبة...
تملك أسلحة الشرّ الأقصى... تملك أسلحة الحقّ المطلوبة...
تملك أموالاً...
نملك أبطالاً...
ترسل أشباحاً...
نرسل أرواحاً...
ولديك سلاح نووي...
ولدينا إسلامٌ وعروبة^(١٨)...

هذه مقاطع من رسالة شاعرٍ مقاومٍ تضجّ بمعانٍ تعبوية، وتستجيب للتحدي، وتدعو لردّ العدوان الصهيوني - أمريكي، الذي يقوده طاغية العصر: الرئيس الأمريكي جورج بوش، ومثل هذا الأدب الملتزم هو ما تحتاجه المناهج التعليمية والمقررات الدراسية، وهو ما على وسائل الإعلام أن تتبنى تداوله، كما أنّ المنبرين يحتاجونه مادةً للخطاب. والشاعر طارق ناصر الدين واحدٌ من الأدباء المقاومين الذين نحتاج إلى إبداعاتهم في إطار صياغة استراتيجية ثقافة المقاومة فكرياً وفعالاً.

* * *

الهوامش:

- (١) مالك بن نبي، مشكلة الثقافة: ٤٩، دمشق، دار الفكر، سنة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- (٢) السحمراني، أسعد، ويلات العولمة على الدين واللغة والثقافة: ٨٢، ط ١ ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، نشر: دار النفائس بيروت.
- (٣) معجم النفائس الوسيط: ١٠٤٤، إشراف: د. أحمد أبو حاق، نشر: دار النفائس، بيروت ٢٠٠٧.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) Dictionnaire Hachette Encyclopédique, Paris, Lannée 1996, P. 1617

(٦) موقف رابطة العالم الإسلامي من الإرهاب: ١٣، منشورات رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة.

(٧) الترمذي، مُحَمَّد بن عيسى، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٢: ٤٣٦، حققه وصححه: عبد الرحمن مُحَمَّد عثمان، الطبعة الثانية ١٤٠٣، نشر: دار الفكر، بيروت.

(٨) الإمام ابن حنبل، أحمد، مسند أحمد ٣: ١٢٤، دار صادر، بيروت.

(٩) الشَّريف الرُّضي، نهج البلاغة: ٦٩، ضبط وفهرسة: د. صبحي الصالح، الطبعة الأولى ١٩٨٠، نشر: دار الكتاب اللبناني، بيروت.

(١٠) الأمم المتحدة، ميثاق الأمم المتحدة والنظام الأساسي لمحكمة العدل الدولية: ٣٣، نيويورك، إدارة شؤون الإعلام بالأمم المتحدة.

(١١) مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي: ١٠٥، ترجمة: عبد الصَّبور شاهين، نشر: دار الفكر، بيروت.

(١٢) المتقي الهندي، علاء الدين علي، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ٩: ١١، ضبط وتفسير: الشَّيخ بكري حياني، تصحيح وفهرسة: الشَّيخ صفوة السَّقا، نشر: مؤسسة الرسالة ١٤٠٩، بيروت.

(١٣) لم نجد هذا الخبر مسنداً إلى الرَّسول ﷺ، نعم رواه الحاكم في المستدرک موقوفاً على ابن عباس، قال: «إذا خفي عليكم شيءٌ من القرآن فابتغوه في الشَّعر؛ فإنه ديوان العرب».

(١٤) طارق ناصر الدِّين: مولود في قرية كفر متى من جبل لبنان عام ١٩٤٣ من عائلةٍ برز فيها الجدُّ الشَّاعر أمين ناصر الدِّين، والأديب ناصر الدِّين اللُّغوي والإعلامي. طارق ناصر الدين شاعرٌ مؤمنٌ، قلمه مسخَّرٌ للمقاومة والدِّفاع عن الأمَّة ثقافَةً وحضارةً ومقدساتٍ وحقوقاً. يشغل منصب المستشار الثقافي في قيادة المؤتمر الشعبي اللبناني، ونائب الأمين العام لاتحاد الكتَّاب اللبنانيين، له مئات الأنشطة والندوات الشعرية والنصوص المنشورة في المطبوعات، وقد أصدر أربعة دواوين: ١- العائد من كُلِّ الأشياء. ٢- قصائد مؤمنة. ٣- تابعوا موتنا. ٤- قصائد ضاحكة (إخوانيات).

(١٥) ناصر الدِّين، طارق، العائد من كُلِّ الأشياء: ١١٨، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ، نشر: مكتبة مدبولي، القاهرة.

- (١٦) ناصر الدين، طارق، قصائد مؤمنة: ١١١، الطبعة الأولى ١٩٩٦، بيروت.
- (١٧) ناصر الدين، طارق، تابعوا موتنا: ٦٥، الطبعة الأولى ٢٠٠٥، بيروت.
- (١٨) المصدر نفسه: ٣٩.

العنف الممارس من قبل البعض والعنف الممارس عليهم (العنف والإرهاب والتطرف)

□ د. غسان طه (*)

تحديدات مفهومية

يُشير العنوان أعلاه إلى مفهوم مركزي هو العنف، وتتنوع سياقاته بين فعلٍ وفعلٍ مضادٍّ، جَنَّبته الأساسية دول وفئات أو مجموعات تظهر بمظهر المتلقي أو الفاعل للعنف كسلوكٍ على نحو التطرف.

ولارتباط هذا المفهوم بالتطرف، تفتح معالجته على إشكالية أخرى تتعلق بمدى تفارق العنف مع الإرهاب، وهي مهمة قد يصعب الخروج منها؛ إذ ليس من تعريفٍ محددٍ للإرهاب من الناحية القانونية الدولية، فيما يجد العنف له سنداً في بعض هذه القوانين.

يقتضي الأمر ضرورة الفصل بين المفهومين عبر المزيد من إمعان النظر وإخضاع المقاربة إلى حقول معرفية علّها تصل بالبحث إلى غاياته المنشودة، ومن

(*) رئيس منتدى الفكر اللبناني، حائز على دكتوراه دولة: حول الشيعة في بعلبك.

بين هذه الحقوق علم الاجتماع والأخلاق والفلسفة والقانون.

فالعنف هو كُـلُّ استخدامٍ للقوّة والشّدّة ضدّ الآخر، سواء كان فرداً أو جماعةً بهدف إجباره على سلوكٍ ما، وقد يكون مبرّراً من النّاحية الأخلاقيّة والقانونيّة، فيما الإرهاب يتجاوز الاستخدام الفيزيقي للقوّة على نحوٍ تعسّفي متطرّف دون أن يجد له مسوّغاً أخلاقياً أو قانونياً، ويمكن له أن يتّخذ سلوكاً عنيفاً أو تهديداً يحقّق فاعله غايته من خلال الأداء^(١).

وعلى هذا النّحو يمكن الفصل بين المفهومين، وهو فصلٌ لم يكن غريباً عمّا جاء في الاستخدامات الدّلالية لكليهما.

فوفقاً لقرار الجمعية العامّة للأمم المتّحدة عام ١٩٧٤، والذي يذكر فيه شرعيّة كفاح الشّعوب في سبيل التّحرّر من السّيّطرة الاستعماريّة والأجنبيّة ومن القهر الأجنبي بكافّة الوسائل، بما في ذلك الكفاح المسلّح.

يتضح - من هذا التعريف - أنّه ينطوي على جنة قانونيّة تتصل بكفاح الجماعات أو التنظيمات تجاه عدوّ خارجيّ من أجل تحرير الأرض ودفع العدوان.

لذا، فالعنف قد يستحوذ في إحدى جنباته على حظوة قانونيّة دوليّة، لكنّ الإرهاب لم يقيّد له ما لسلفه، وقد بذلت الأسرة الدوليّة جهوداً كبيرةً من أجل وضع تعريفٍ عالميّ للإرهاب، إلّا أنّ مساعيها لم تنجح حتّى اليوم؛ إذ جاءت على شكل اتّفاقات دوليّة عرّفت هذا المفهوم، ولكنه بقي يعاني من الالتباس والغموض، ورغم هذا الغموض فثمة مجموعة من الأفعال الجرميّة لا تحظى بموافقة قانونيّة كما درج عليه المفهوم.

مع خلوّ مصطلح الإرهاب من تعريفٍ موحّد، جاء القانون الوطني في حوالي ثلاث وخمسين دولة ليحدّد الإرهاب عبر اتّفاقات أُرسيّت خلالها بعض المبادئ والقوانين التي تتصل به، وأحد هذه القوانين هو القانون الفرنسي لعام

١٩٨٦^(٢)، الَّذِي حَدَّدَ الإرهاب بأنه خرقٌ للقانون، ويُقدم عليه فردٌ من الأفراد أو تنظيمٌ جماعيٌّ بهدف إثارة اضطرابٍ خطيرٍ في النظام العام عن طريق التهديد.

مفهوم التطُّرف

ثمة مصطلحٌ آخر جرى استخدامه على نحوٍ يتصل بمفهومَي العنف والإرهاب، هو: التطُّرف، دون أن يكون بينهما تفارقات تنحو نحو التمييز بين ما ينطوي عليه هذا المصطلح عما سبقه من خصوصية.

فواقع الحال - وكما في العلوم الاجتماعية - يرتبط التطُّرف بنحو التعاطي مع الآخر كمقدمة للعنف والإرهاب، والتطُّرف ليس الإرهاب أو العنف نفسه، وإنَّما هو إحدى المقدمات التي يمكن أن تؤدي إلى العنف أو قد لا تؤدي إليه. ذلك أنَّ التطُّرف يُعبَّر عن أسلوب الشخص المغلق في التفكير الَّذي يتسم بعدم القدرة على تقبل أية معتقدات تختلف عن معتقدات الشخص أو الجماعة الأخرى، والفرد أو الجماعة المتطرفة تنظر إلى معتقدها على أنَّه صادقٌ كُلُّ الصِّدق، ويصلح لكلِّ زمانٍ ومكانٍ^(٣)، ولديها استعدادٌ للدِّفاع عن معتقداتها وفرضها على الآخرين، حتَّى ولو استلزم الأمر استخدام العنف، فهو مقررٌ لاستخدام العنف وليس العنف نفسه.

وليس بالضرورة أن نعبر عن التطُّرف أنَّه: هو كُلُّ خروجٍ عما ألفه الناس في سلوكهم ومعتقداتهم وعاداتهم وتقاليدهم، وإلا لأصبحت النظريات العلمية والفلسفية ونتائج الدراسات والأبحاث والتجديد الثقافي تطرفاً. كما أنَّه ليس بالضرورة أن يوسم بالتطُّرف كُلُّ جماعةٍ أو فردٍ يعتقد بأن أفكاره صادقةٌ كُلُّ الصِّدق وتصلح لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، وإلا فماذا عن الأديان السماوية في تطابقها مع ما ورد ذكره؟!

إذاً، التأسيس على أرضيةٍ مشتركةٍ لهذا المفهوم يقضي ربطه بالانغلاق

والتَّحَفُّزُ نحو العنف كمقدمة للعنف.

على هذا النحو، فإنَّ مساوقة هذا الاصطلاح - أي: التَّطَرُّف - لما جاء في أدبيات العلوم الاجتماعيّة من تفسيرٍ للتَّطَرُّف ليس دقيقاً وتاماً، بل مصطلح التَّطَرُّف - بالمعنى الَّذي فسّرناه - يمكن أن يندرج - من بعض الجهات - بما ورد في مصطلح العنف والإرهاب في الكتابات القانونيّة والحقوقيّة، وعليه يمكن أن نجد مورداً لتحديد التَّطَرُّف من النّاحية القانونيّة والفلسفيّة في هذا الشّأن، وذلك وفقاً لقانون الحقّ الَّذي كرّسته المواثيق الدّوليّة حول المعتقد وإبداء الرّأي مع عدم فرضه على الآخرين عن طريق الإكراه، وكُلّ ما لا ينطبق على قانون الحقّ هذا ممّا هو من هذا القبيل يقع تحت دائرة التَّطَرُّف.

على أيّة حال، فثمة مصطلحات ثلاثة ليس بينها تطابق أو تماثل تام، فالعنف والإرهاب والتَّطَرُّف يحتزن كلّ منها خصوصيّة وتمايزه مع عدم إلغاء جُسور الالتقاء بينها، فالتَّطَرُّف بما هو انغلاقٌ يعدّ مقدّمة للعنف، وليس كلّ عنفٍ إرهاباً.

والعنف يمكن أن يكون مقبولاً كالدّفاع عن النّفس والوطن وما شابه، ويمكن أن يكون مرفوضاً، وذلك حين يتجاوز حدوده القانونيّة، والتي استوى عُرِف العقلاء والتشريعات على عدم الموافقة عليه، أمّا الإرهاب فهو كلّ استخدام للقوة بلا مسوّغ.

احتكار العنف

يتّضح من هذه التّحديدات أنّ ثمة عنفاً يقع تحت دائرة المقبوليّة الحقوقية والقانونية، وآخر يخرج عنها.

وغالباً ما يقترن العنف بوجود سلطنة أو قدرةٍ تتيح لمن يقوم به إمكانيّة فعله؛ ولذلك فإنّ لوجود السّلطة مدخلية في ظهور السّلوك العنفي، والسّلطة ليست

مختصةً بفردٍ أو جماعةٍ أو جهةٍ؛ لأنّها يمكن أن تكون موزّعةً بين جهاتٍ متعددة، وأحياناً يرتبط العنف بالشّعور بوجود سلطةٍ على نحوٍ منقوصٍ يقضي الأمر بتوفير مستلزمات استكمالها، فيكون العنف أحد الآليات المتوسّلة في هذا السبيل.

وبالانطلاق من توزّع السلطة بين جهاتٍ متعددة يمكن القول: إنّها تبدأ من دائرتها الضيقة التي تتمثّل بسلطة الفرد على نفسه أو امرته على نفسه، لجهة التصرّف بدفع ورفع كلّ ما يهدّد أمنه الذاتي باستخدام أسلوب العنف، أو يكون استخدامه نابعاً من جرّاء الشّعور بنقصٍ في السلطة أو القدرة، وهناك العنف المستخدم بين الجماعات، وذلك حين تملك جماعاتٌ ما سلطتها التي تستخدم فيها قوّتها العنفيّة، وتسخرها للدفاع عن نفسها والاعتداء على الآخرين؛ نتيجة بعض التسويغات التي تجد فيها مقبولة ومشروعية لديها. وهناك السلطة التي يكون العنف أحد جنباتها المستخدمة، وهو العنف الذي تلجأ إليه الدّولة كسلطة^(٤)، وفي الاستخدامات الحديثة للعنف، يصبح هذا الأخير صفةً محتكرةً للدولة كوظيفةٍ لا يختصّ بها غيرها من جماعةٍ اعتباريّةٍ أو حقيقية.

ويعدّ ذلك إحدى الوظائف التي ترافقت مع مسير تطوّر نشوء الدّولة، وهو يسير مع المقتضيات المنطقية لهذا الأمر، فبدون حصره بجهة الدّولة يعيد العنف المجتمعات إلى المرحلة التي تسبق نشوء الدّولة التاريخي، أو إلى المجتمعات المجزأة التي تتوزّع فيها سلطة استخدام العنف على الجماعات التقليديّة، والمستندة في تسويغ استخدامه إلى أحكام عرفية ترتبط بتقاليد وأعراف، دون أن ترقى إلى قوانين ومؤسسات راعية لوظيفته وآليات استخدامه.

ولذلك فإنّ الدّولة أو سلطة الدّولة كجهة، هي المخوّلة باستخدام العنف

للفصل بين النزاعات أحياناً، ولحماية الفرد من الاعتداء على أمنه الشخصي والمالي وعلى أرضه، سواء كان هذا التهديد ناشئاً من الداخل أم وافداً من الخارج.

فبالاستناد إلى احتكار استخدام العنف من قبل سلطة الدولة كسلطة مخولة قانونياً باستخدامه حصراً، ليس هناك من مسؤوليات لاستخدامه من قبل الجماعات الداخلة في نطاقها، إلا إذا كانت هذه الجماعات توجد في المرحلة التي تفتقد فيها الدولة كيانها جراء تهديد خارجي كاحتلال، أو جراء الحروب الأهلية، أو حتى مع وجود الدولة ولكن مع عدم قيامها بإحدى وظائفها الأساسية، وهي حماية أمن مواطنيها من التهديد.

على هذا الأساس، فالعنف بالنسبة لسلطة الدولة أصبح متأصلاً على فكرة «الحق» في البناء القانوني للدولة ككيان اعتباري يملك هذه الصلاحية، مما يعني أن عنفها يرتبط بالمشروعية، وكل ما عداه - خلا الدفاع عن النفس بحال تخلي الدولة عن وظيفتها - يفتقد إلى مثل هذه المشروعية.

إن هذا التأسيس لمفهوم المشروعية في استخدام العنف، يؤدي في نهاية المطاف إلى سحب كل أشكال الحق الطبيعي من المحكومين أفراداً أو جماعات في استخدامه.

غير أن هذا الإجراء يقود إلى إشكاليات تضع المشروعية القانونية والحقوقية أمام تساؤلات كبيرة، وهي تقع في مجملها حول التعسف الذي يمكن أن يساء استخدامه في حال وقوع سلطة الإمرة بيد دولة أيديولوجية، وأثناء ضعف الدولة وتراخياها في تحديث آلياتها الضبطية، أو جراء ركون سلطة الدولة إلى العنف وحده والتخلي عن القيام بوظائفها الأخرى التي باتت تملكها، والتي تتجاوز الأمن الشخصي للأفراد إلى الأمن الاجتماعي المتعلق بتأمين مستلزمات العيش الكريم الذي لا يتقوم بدون القيام بوظيفتها الاجتماعية، ووضع خطط

اجتماعية وسياسية واقتصادية تضمن الحصول على مستلزمات العيش، وتضمن حرية الاعتقاد والتعبير والمشاركة، والحق في الحصول على العناية بالصحة والتعليم، وتحقيق الطموح والشعور بالانتماء إلى الوطن والدولة.

من هنا فإن سلطة الدولة ليست في تمام شديد مع العنف مع احتكارها له، ولكونها متماهية مع وظائف أخرى من شأنها الإسهام في خلق اعتراف الأفراد بها وإظهار الطاعة لها، وبدون هذه الطاعة تصبح مشروعية العنف الدولة أو العنف من قبل سلطة الدولة معرضة للتهديد بعدم الاعتراف والذي يمكن أن يقود بالتالي إلى عنفٍ مقابل.

فمع القيام بوظائفها المتنوعة تحظى الدولة باعتراف مواطنيها بحق استخدامها للعنف وحصره بها ونزع هذه الوظيفة عن غيرها.

وبالرجوع إلى مظاهر التطبيق، نجد أن العالم الإسلامي يشهد استخدامات متنوعة من العنف تتجلى في عدة مظاهر: كالعنف اليومي المستخدم بحق الفلسطينيين من قبل العدو الإسرائيلي، والعنف المستخدم من قبل الدولة في قمع بعض الجماعات، ثم العنف الذي يتخذ له تسمية دولية، وهو العنف الأصولي الموجه ضد الدولة وضد أفراد وجماعات أخرى، تتناظر معها في الموقف والاعتقاد والتوجه المرحلي والمستقبلي.

صناعة العنف

تأسيساً على الناحية الحقوقية، يمكن أن يكون للعنف جنتان: إحداها تحظى بمشروعية قانونية، وأخرى تفتقر إليها، غير أن الإرهاب بما هو عنف، ليس ثمة من مقبولة تُشرعن استخدامه، لكن من جهة أخرى، ومع عدم الاستقرار على تعريف واحد للإرهاب، فإن مرجعية تفسير العمل العنفي في خانة الإرهاب، تخضع هي الأخرى إلى جملة من التفسيرات المتعارضة، بعضها

يرتكز على تبريرات أيديولوجية، كما لدى الجماعات الأصولية، وأخرى مصلحية ترتبط بتوسّله لتحقيق مصالح سياسية، وهو ما تقوم به الدولة تجاه رعاياها، أو ما تقوم به الدول في سعيها لمّد سيطرتها خارج نطاقها الإقليمي، فالمجاهد يصبح إرهابياً، والإرهابي يصبح مجاهداً، والعمل الإرهابي لدى دولة ما يصبح مشروعاً على أنّه ردّة فعل، أو دفاع مشروع. إنّ اختلاف المفاهيم والمعايير والتّصورات سيّقي موضوع الإرهاب محلّ مناقشة، ويفتح المجال في الانقسام حوله كما هو الحال راهناً.

ومن خلال هذا الاختلاف في المفاهيم والمعايير، يصبح تصنيف الأعمال المتّسمة بالعنف ضمن دائرة الإرهاب وعدمه، تابعاً لما يحاط به هذا العمل أو ذاك من تفسيرات وتأويلات تشريعية وحقوقية. فإمعاناً في إضفاء المشروعية على بعض أعمال العنف بغية عزلها عن التّصنيف في دائرة الإرهاب، ثمة سعيّ إلى إحاطة هذه الأعمال بممّهّدات تتجاوز ما هو مقنّن من تشريعاتٍ حول مسوّغات العنف وآليات استخدامه، كالمبادئ الأخلاقية والقيم الإنسانية التي تُسخر كلّ منتجات العصر الحديث من منابر الرأي وقنوات الدبلوماسية، وصناعة الرأي لأجل إسقاطها على بعض أعمال العنف (الإرهابي) الغير المقبول بحسب واقعه لا اجتماعياً ولا أخلاقياً ولا إنسانياً، خصوصاً فيما يتعلّق بالإرهاب الدولي - الذي يمكن أن تتجلّى أبرز وجوهه بالتّدخلات الأميركية، وممارسة العنف تجاه العالم الإسلامي، تغطيةً لمصالح مادية وضماناً لمُدّ ظلال الهيمنة وإبقائها - أو ما تقوم به الدولة ضدّ رعاياها كلما وجدت أنّ سلطتها تفتقد القدرة على التأثير وتتناكل من الداخل.

العنف الدولي

بين هذه الأحكام المعيارية نجد أنّ المقاومين للغزو السّوفيّاتي لأفغانستان

صنّفوا في ذلك الوقت ضمن خانة المجاهدين ضدّ امبراطورية الشرّ وفق المعايير الأمريكية، وهؤلاء هم أنفسهم صنّفوا فيما بعد إرهابيين حين نُسب إليهم قتال الأمريكيين في العراق.

وعندما غزت الولايات المتحدة الغزو الأول للعراق عام ١٩٩١ سعت عبر الأمم المتحدة لاستصدار قانونٍ من مجلس الأمن لتمرير الغزو، ومع الغزو الثاني للعراق أمكن للتبريرات المتّصلة باقتناء السلاح النووي وغيره من الأسلحة المحرّمة دولياً كالجراثمية والبيولوجية بما يمثّله اقتناؤها من تهديد للأمن العالمي أن تُساق كدوافع أخلاقية تُشكّل هدفاً نبيلاً يُبرّر هذا الغزو، ويؤمّن عزله عن التصنيف في دائرة الإرهاب، ومع الإخفاق في العثور على السلاح تصبح المهمة أرقى من ذلك، وهي إحلال الديمقراطية بدل القمع والنظام القائم على الديكتاتورية.

وبإمعان النظر في خطاب الرئيس الأمريكي بوش الثاني، في معرض تنصيبه للولاية الثانية للرئاسة^(٥)، حدّد استراتيجيّة التعاطي مع الخارج وفق السعي لإرساء الحرية والعدالة والمساواة في البلدان التي تفتقر إليها، وهي مهمّة تضيي الكثير من مزايا السموّ والرفعة لقضية ذات جنبه رسالية عالية، لا يتيّسر القيام بها إلّا من أمةٍ وعت معنى الحرية وعاشتها، وتعمل لتلبّي نداء الواجب الحضاري، وبذلك تكون هذه القيم المزعومة ممهدات أخلاقية لصناعة العنف، وتدفع عنه تصنيفه في دائرة الإرهاب.

أمّا التّهديدات للأنظمة لكي تتجه نحو الديمقراطية، فإنّها لا تقلّ بمحاكاتها للمبررات السّالفة.

ويُضاف إليها ما يشكّل توفير التّغطية القانونيّة لبعض الممارسات الإرهابيّة التي لا تشدّ عن المصلحة الأمريكيّة، كالأعمال العنيفة اليوميّة للكيان الصّهيوني بحقّ الفلسطينيين، هذا على الرّغم من صدور قراراتٍ متعدّدة للأمم المتحدة

بشأنها لا تجد سنداً داعماً لضرورة مراعاتها أو تنفيذها، فيما قرارات أخرى - على غرار المطالبة بالانسحاب السوري من لبنان - تُطرح بشكلٍ ضاغطٍ وملحٍ من قبل المجتمع الدولي.

إنَّ هذا الإهمال بضرورة تنفيذ القرارات الدوليَّة الصَّادرة بحق الفلسطينيين المترافق مع غُصَّ النظر عن الممارسات الإرهابية من قبل إسرائيل، واللاحاح من جهةٍ ثانيةٍ بضرورة تنفيذ القرارات الأخرى كالانسحاب السوري من لبنان ليس من شأنه أن ينتج سوى إضفاء المزيد عن اختلاف المعايير وازدواجيتها، وتوفير مناخات صناعة الأعمال العنفيَّة التي يمكن تصنيفها في دائرة الإرهاب الدولي.

هذه الصَّناعة تمرّ عبر منظومةٍ من الأفكار المرتكزة على دعائمٍ مرجعيَّةٍ في المتخيّل الإنساني لدى الشَّعوب، الملامسة لجوهر الإنسان في حريته، فيما هي ترتبط في الأصل بنوازع شريرة، فواجهتها المسطّحة تشكّل غلافاً ساتراً لهذا العمق، مستنداً على أفكار ودعائمٍ قيمية^(٦).

لم تكن تلك الأفكار - بوصفها أفكاراً متطرّفة - وليدة التحوّلات التي طرأت على المسرح العالمي بعد انهيار الاتحاد السوفياتي وحلول الرأسمالية الأمريكية والغربية عموماً، وإنما هي أسبق من ذلك بكثير، حيث تعود إلى العلاقة التي حكمت الغرب بالعالم الإسلامي، كعلاقة تميّزت بالتوتر ثمّ العدائية، لما عكسته الرُّؤية المتطرّفة للغرب من أعمالٍ عنفيّة.

فالتاريخ القريب الَّذي يعود إلى القرن التاسع عشر، شكّل بدايةً لعلاقةٍ مأزومةٍ بينهما، ولم يكن لأربعمئة سنة خلت - وهي تاريخ الامبراطورية العثمانية في العالم الإسلامي - أن تشهد مثل هذه العلاقة إلّا في نهاياتها، ثمّ مع زوال الحكم العثماني، فبداية القرن التاسع عشر هي بداية علاقةٍ استعماريّةٍ لم تنجلٍ أواخرها في ستينيات القرن العشرين، إلّا لتدخل معها مرحلة جديدة من

العلاقة التي حكمها الانقسام العالمي إبان الحرب الباردة، فعلاقات الاستعمار هي علاقات عنف، ولكن سبقها مرجعية ثقافية وفكرية، يمكن أن نطلق عليها نظرة الغرب الذاتية لنفسه ولموقعيته في العالم، هذه الموقعية تظهرت وفق ما يطلق عليه بالأنوية الحضارية، أي: الغرب كمرجعية للإشعاع الحضاري، حيث الذات الحضارية المتفارقة حضارياً مع الآخر، دون أن يكون للآخر وزن حضاري.

ولقد قام هذا التفارق على نفي هذه الشعوب ووصفها بالتخلف والتقليد والهمجية، فهي تحتاج إلى الأخذ بيدها للسير على خطى الغرب، سيراً استتباعياً يراد له تأمين مستلزمات استمرار التدفق الحيوي للمواد الخام للصناعات الغربية، والابقاء على العالم الإسلامي سوقاً لتصريف المنتجات الغربية^(٧).

لم تتأسس علاقات العنف بين الغرب والعالم الإسلامي على نفي الغرب للآخر وحسب، وإنما رفدت بما يتيح استمراريتها بعدما وُوجه الغرب بصدماتٍ رافضةٍ للاستعمار، فكانت إسرائيل الكيان هي البديل العنفي المحتمل، إذا ما اختلت موازين العلاقة القائمة على ثقل أحد طرفيها لصالح الغرب.

لقد ساهم تثبيت قدرات الكيان الصهيوني وزرعه في المنطقة وتوفير الغطاء الدولي والإنساني لهذا الكيان، بكل ما تحويه أدبياته وعقائده من نفي للآخر، ومن سجل عنفي ما زال يُحظى بمقبولية تبريرية لدى الغرب عموماً، والغرب الأميركي خصوصاً، فأدى إلى التزخيم الشعوري والوجداني لدى الشعوب الإسلامية، المحملة بالشعور بالدونية الحضارية وبالاستلاب الوجودي لمقدراتها^(٨).

مع كل التغيرات التي حدثت بعد انهيار الاستقطاب الدولي، ورغم الطّروحات حول حوار الشمال والجنوب والانفتاح الثقافي، فإنه يعاد إنتاج ما

اختزنه تراث الغرب - وأمريكا خصوصاً - من أنويّة حضاريّة، تُقدّم في المرحلة الرّاهنة أيضاً على نفي الآخر المحتاج - وفق العولمة - إلى تعميم دعوات الديمقراطية والليبرالية، والأخذ بكافة المستلزمات الثقافية السّائدة في الغرب، دون أن تكون مرتكزة على دعواتٍ حضارية، بقدر ما تركز على محاولات إعادة تشكيل للمنطقة الإسلامية بآلياتٍ عنفية، مسخّرة ما توفّره تكنولوجيا الإعلام وصناعة الراي العام وأسلحة الدمار الشّامل^(٩).

إرهاب الدّولة

شكّلت العلاقة المأزومة بين الغرب والإعلام الإسلامي مناحاتٍ ملائمة لإنتاج أفكار تحريرية هادفة للاستقلال ولبناء الكيانات الذاتية ولتقديم تجربتها الحضارية في هذا المجال.

لم تركز هذه الأفكار على مسوّغاتٍ اعتقاديّة دينيّة بقدر ما ارتكزت على أيديولوجيا قومية اشتراكية، بعضها زواج بينها وبين الإسلام لناحية الانتماء القومي الإسلامي، والآخر ذهب فيها حداً بعيداً عن دائرة العروبة والإسلام وذلك بفضل المدّ الشّيعوي آنذاك.

لقد أذن لهذه الدعوات في فرض سلطتها، وتثبيت أركان الدّولة وفق ما سعت إليه هذه الأفكار من جاذبية تثويرية في ظلّ اختلال العلاقة مع الغرب الاستعماري، وما يهمّ في هذا المجال هو الولوج إلى مداخل العنف الّذي اعتمدته العديد من هذه الكيانات تجاه الجماعات المتبنية للعنف والتي أصبحت توصف بالأصولية والجهادية والسلفية.

وبالرجوع إلى مسوّغات الحق القانوني لاستخدام العنف كآلية تحتكرها السّلطة، فقد جرى استخدام هذه المسوّغات وفق هذا المنظور - وفي كثيرٍ من الأحيان - بمعزلٍ عن سائر الوظائف التي ينبغي للدولة الاضطلاع بها، فتنازل

الأفراد عن جزءٍ من السُّلطة الذاتية وعن بعض الحريات لصالح الدَّولة ككيانٍ اعتباريٍّ وفق نظرية العقد الاجتماعي إنَّما يكون من خلال دورٍ مقابلٍ تقوم به الدَّولة وهو المحافظة على الأمن الفردي والجماعي وضمان حرية الرأي والتعبير، وهو ما لم يكن ليحدث في الكثير من الكيانات العربية.

لم تستطع هذه الكيانات ومن خلال خوضها أربع حروب مع العدو الصَّهيووني إرضاء نزوع شعوبها نحو ردِّ الاعتبار واسترجاع الأرض ورفع التَّهديد، فيما الوحدة العربية والتَّنمية بقيت حلمًا منشودًا لدى أفرادها، وحرية الرأي لم تجد هي الأخرى سبيلًا نحو التطبيق، فالمشاركة في الانتخاب وتبادل السُّلطة وتشكيل المعارضة والمساهمة بتقديم المشورة في تعزيز دور الدَّولة، لم تلقَ سوى القمع بالعنف وبالتَّهديد بالسجن والنفي والتشريد بحجَّة الخيانة والمؤامرة والتدخلات الخارجية، وقد ساد ذلك حتَّى قبل نهايات القرن الماضي. ومع حلول القرن الجديد، فإنَّ اختلال العلاقة بين الدَّولة والخارج ساهم بالمزيد من تراخي الدور السيادي للدولة، ممَّا ساهم في تعزيز الشُّعور بانعدام الوزن الوجودي لدى الشُّعوب الإسلاميَّة تجاه الخارج وتجاه الدَّولة نفسها، الأمر الَّذي أدَّى إلى المزيد من توفير المناخات التي توفِّر إعادة الوشائجية الداخلية لمجموعاتٍ تتشكَّل وفق أيديولوجيا واعتقادات وفهم يُعاد إنتاجه للتعاطي مع الواقع القائم.

العنف الأصولي

ارتبطت الأعمال (العنفية) ببعض الجماعات التي درجت الأدبيات المعاصرة على تسميتها بالجماعات الأصولية، علمًا بأنَّ مصطلح الأصوليَّة نفسه لا يرسو على تعريفٍ دقيق، فالأصولية أصبحت تقترن بالتَّطرُّف والعنف والإرهاب. ويجري تمييز الجماعات الأصوليَّة عن المؤسسات الدينية المرتبطة بجهاز

الدَّولة نفسها كأحد المؤسسات الموجودة فيها، والتي ترعى الشؤون الدينية للأفراد، كما يجري التمييز نفسه بينها وبين بعض الجماعات التي تسلك مسلكاً سياسياً على نحو تطبيق مشروعها المتصل بالشريعة الإسلامية، لكنّها لم تتوسّل العنف آليةً لتطبيق برنامجها المتصل بالعودة إلى الإسلام كأطروحةٍ تصلح لإدارة المجتمع والسلطة.

وقد شهد العالم الإسلامي عدّة نماذج من الجماعات (العنيفة) وما يزال حتّى وقتنا الراهن، تحت وطأة الكثير من الأعمال المستندة إليها؛ إذ لم تنشأ هذه الجماعات من الفراغ، وإنّما ارتبطت بمجمل العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ولكن ما يهم في هذا المجال هو مقاربتها في دائرة العنف الممارس عليها من قبل الدَّولة وعنفها المضاد.

فمنذ انهيار الخلافة العثمانية وصعود التيارات القومية والاشتراكية، ثمّ إخفاقاتها في منتصف القرن الماضي في تحقيق التنمية والوحدة ومناهضة الاحتلال الصهيوني لفلسطين، والشعور المتنامي بعدم القدرة على المشاركة السياسية، نمت هذه الجماعات عبر التّشكيل الدولي لجماعة الإخوان المسلمين، ورغم العديد من ملاحظاتها حول الاختلاف بين الديمقراطية والشورى، تعتمد بعض تشكيلاتها إلى المواءمة بين هذين المفهومين، فتسلل العنف إلى التيار الأوّل، دون أن يتاح له الاستمرار أو النجاح في تطبيق برنامجه.

غير أنّ إحدى المحطّات الفاصلة في تاريخ هذه الجماعات، هو نشوء تشكيلات نمت في السّجون المصرية في الستينات والسبعينات، فنسجت بسبب التعذيب والضغط، أفكاراً تكفيرية سعت إلى تكفير الدَّولة والمجتمع في آنٍ معاً، وقد تجلّت أولى هذه المعالم مع كتاب سيّد قطب «معالم على الطّريق» الذي يركّز على أولوية الحاكمية لله، بعد أن أعاد اكتشاف أفكار أبي الأعلى المودودي^(١٠). ووفق هذا المنظور، ليس ثمة من مشروعية لسلطة الدَّولة كسلطة

تحتكر العنف أو كسلطةٍ تحتكم إلى قوانين وتشريعات مستندة إلى أسسٍ علمانية. لقد أدّت هذه الأفكار المتأسسة على عوامل موضوعيّة وذاتيّة في آنٍ معاً إلى العديد من الصدامات، منها الصدام مع سلطة الدولة، التي عمدت بدورها إلى زجّ العديد من أفراد الجماعات (العنفيّة) في السجون، ومنعتها من العمل الصريح، فتحوّلت إلى العمل السري، مستكملة أعمال العنف الذي بتحوّله تحوّل أفرادها إلى قنابل بشرية، تنطوي على قدرة تدميرية هائلة لا تعصم الأبرياء والمدنيين حتّى في المساجد وأماكن السكن والتجمعات العامّة، الأمر الذي يضعها ضمن دائرة التصنيف بالتطرّف والإرهاب، فوفقاً لمفهوم التطرّف الذي يستند على صحّة الاعتقاد، وعدم الحوار، وفي الآخر، تصبح هذه الجماعات متماثلة معه، فضلاً عن التهديد لأمن المواطنين في الداخل والمدرج على أنّه نوعٌ من الإرهاب بحقّ الأمنين.

ومن هنا، فإنّ التطرّف في الأفكار يصبح ممهداً لأعمال العنف؛ لاقتراانه بالتكفير وبالنفى، فلو اقتصر على مبدأ الحاكمية، وعلى حالٍ من التعبئة التي تؤدي إلى تسلله إلى مختلف الشرائح الاجتماعية، بحيث يسعى المجتمع إلى تطبيقه عبر وسائله الديمقراطية، أو عبر الثورة التي لا تتوسّل العنف كأحد الآليات المستخدمة، حينذاك فلا مندوحة من الاعتراف الواقعي بها، فضلاً عن الشرعيّة الدوليّة التي ستعترف بها أيضاً.

أمّا لو توجّهت هذه الجماعات في أعمالها (العنفيّة) لردّ العدوان الخارجي، الذي يشكّل تهديداً لأمن مواطنيها في حياتهم واقتصادهم، فحينئذٍ يمكن تصنيف أعمالهم (العنفيّة) في دائرة المشروعية، استناداً إلى المعيارية المزدوجة في تنفيذ القوانين الدوليّة، وذلك حين نجد أنّ الشرعيّة الدوليّة لم تستطع أن تردع عنهم العدوان الخارجي، فيكون هذا العنف الصادر من قبل هذه الجماعات هو (عنف مضاد) سوّغه قيام العدو بأعمال عنفية تجاههم، ولكن هذا يدخلها من

جهة أخرى في دائرة العنف المضاد من الدولة نفسها كسلطة تحتكر أعمال العنف، بمعزلٍ عن النقاش الذي يدور حول أهمية دور الدولة في تأمين مستلزمات الأمن لشعبها وحمايته من التهديد الخارجي، وهو بالأصل يجب الاضطلاع به انطلاقاً من النظرة الحقوقية المتأسسة على هذا النحو.

و الدولة حين تستعين بالخارج، أو حين تعقد اتفاقيات السلم مع العدو، بحيث يكف عن كونه يُشكّل حالة من التهديد لمواطنيها، ممّا يعطيها مشروعية في تأمين مستلزمات اتفاقياتها، بحال تأسست السلطة الأمرة لديها عبر المشروعية الشعبية، التي تتجلى بالانتخابات للمجالس التمثيلية كما هو حال الدول الحديثة، فحينذاك يصحّ القول: إنّ ثمة إرادة شعبية ارتضت سير الأمور على هذا المنوال، وإلا فمروعية الاتفاقيات تكون مشروعية صورية وليست حقيقية.

أمّا في حال استمرار التهديد الخارجي، فتصبح الجماعات حينذاك مستندة إلى خياراتها في توفير الحماية لنفسها من التهديد، انطلاقاً من الحق القانوني للأفراد، وبدون التعرّض لأمن المواطنين.

لكن هذه الجماعات حتّى لو أسقطت العملية الديمقراطية من قناعاتها كمطلب وكآلية للوصول إلى السلطة، فإن آراءها تبقى في دائرة المشروعية ما لم تتوسّل العنف آلية لتطبيقه في ظلّ عدم توفر الظروف الموضوعية، ويصبح برنامجها مفتوحاً أمام الوسائل الإقناعية كأحد الآليات التي تتصادم مع مفهومي «التطرّف والإرهاب» كما مرّ في التحديدات السابقة لهذين المفهومين.

العنف والمقاومة في لبنان

تعدّ الأعمال التي قامت بها المقاومة في لبنان أحد موارد الخلاف حول ما إذا كان عملها «العنفي» يقع تحت دائرة العنف المشروع أو يعدّ إرهاباً.

ومع سبق الإشارة إلى المواثيق الدوليّة التي تعطي للعنف مشروعته ضدّ الاعتداء الخارجي، يصبح العمل المقاوم في لبنان مشروعاً، غير أنّ مشروعيته تعيد فتح النقاش من جديد بأنّه لا يزال يقع تحت دائرة التّصنيف كعملٍ عنفيٍّ غير مبرّر من النّاحية القانونية.

وتنطلق التّفسيّرات من مبدأ أساسي يقوم على أساس نظريّة الحقّ المكرّس للدولة في احتكار العنف وتوسّله للدّفاع عن مواطنيها، ما يعني أنّ التّبرير القانوني للدّفاع ضدّ التّهديد الخارجي معطى للدولة، وإذا كان للشعب من خيارٍ في اللجوء إليه فيتمّ ذلك مع غياب الدّولة.

ولذلك، فالمقاومة الفرنسيّة أثناء الاحتلال النازي هي مقاومة شعبية، تستند إلى مبررات متأسّسة على عدم وجود الدّولة، وعلى انهيارها آنذاك.

فالدّولة هي صاحبة القرار باستخدام العنف للدّفاع عن شعبها، وفي حال القصور عن استخدامه ثمة جهةٍ دوليّةٍ تتمثّل بالأمم المتّحدة ومجلس الأمن تضطلع بدور استخدام وسائل القوّة، ومن بينها العنف لردّ الاحتلال وعودة الحقّ إلى الشّعوب.

وبذلك لا يعود لأية جماعةٍ - في ظلّ وجود الدّولة كسلطة - الحقّ في استخدام العنف، فوجود الدّولة ينفي وجود جماعاتٍ (عنفية) من النّاحية النظريّة.

مع ذلك وُوجه الاحتلال الصّهيوني للبنان بمقاومةٍ (عنفية) من جماعاتٍ مسلّحةٍ اتخذت شكل حرب العصابات، تزامن ذلك مع وجود الدّولة كبنیانٍ مادي، ولكن تزامن أيضاً مع استقالةٍ تاريخيّةٍ للدولة عن دورها، تمثّلت في العجز عن الدّفاع عن شعبها إزاء أعمال العنف المتكرّرة، التي قام بها الكيان الصّهيوني.

إنّ العمل المقاوم في هذه الحالة لا يخرج عمّا درجنا عليه في النظرة الحقوقية

المتأسسة على حقّ الدّفاع عن النّفس من النّاحية الفلسفية والقانونية، في ظلّ غياب سلطة العنف المحتكرة للدولة، فلا يصحّ القول - والحال كذلك - إنّ الفعل العنفي للمقاومة يفتقر إلى المشروعية القانونية مع وجود الدّولة، أو هو يشابه الحالة الفرنسية إبان الاحتلال النازي، أو الحالة الجزائرية إبان الاحتلال الفرنسي؛ لترافقه آنذاك مع عدم وجود الدّولة كسلطة عنف، في حين هو خلاف ذلك في لبنان.

فصحيح أنّ الدّولة بقيت ماثلة إبان صعود المقاومة، ولكن بنيانها ترافق مع غياب سلطتها (العنفية)، وتجاوزه إلى حال الانقسام اللبناني الذي لم يكن بمجمله رافضاً للاحتلال الصهيوني، ومعه فريق من أركان الدّولة نفسها.

وفي ظلّ غياب سلطة العنف المحتكرة من الدّولة وبروز حالة الدفاع عن النفس انطلاقاً من المشروعية الحقوقية، لا يعود العمل المقاوم مصنفاً في دائرة التّعارض معها؛ لكونه يعبر عن حاجة أصليّة في الدفاع عن النّفس.

لكنّ الإشكالية الأخرى التي تثار في هذا المجال، أنّه مع عدم قدرة الدّولة على استخدامها العنف، تأتي الشّرعية الدّوليّة الممتثلة في الأمم المتحدة لتحلّ مكان هذه السلطة المفقودة، عبر استخدام الهيئة الدّوليّة سلطتها الإكراهية لدفع الاحتلال، إلى جانب اللجوء إلى العنف عن طريق مجلس الأمن بحال عدم جدوائية الضغوط التي تتوسّلها هذه الجمعية في البداية، ممّا يلغي مشروعية الجماعات التي تقوم بالعنف كبديل عن دور الدّولة.

قد تصحّ هذه المقاربة من النّاحية النّظرية المستندة إلى النّصوص، لكنّ المقاربة العملية تجعل التأسيس النّظري لسلطة العنف الخارجة عن نطاق الجماعة (العنفية) متعارضة مع النّاحية النّظرية، ممّا يلغي مفاعيل القوّة لدى النّص؛ لعجزه عن الاقتراح بما يؤدّي إلى تحقيق غاياته وأهدافه.

لقد تجلّى هذا العجز منذ صدور القرار الدولي (٤٢٥) دون أن يسلك مسلكاً

عملياً في هذا المجال، ممّا أعطى الفعل المقاوم مشروعته الحقوقية، فيما أضفت الناحية العملائية - المتمثلة بموافقة الدولة والشعب اللبناني على الفعل المقاوم بتهيئة مناخاته المساعدة - المزيد من القوة لهذه المشروعية.

وهنا سؤال يبرز نفسه، وهو أنّه مع صعود الفعل المقاوم نحو غاياته الممثلة بتحرير الأرض، فهل يُصبح الاستمرار بحمل السلاح مصنفاً ضمن دائرة الإرهاب، خصوصاً مع زوال الاحتلال واستعادة الدولة ركائز سلطتها، وغياب الانقسام اللبناني الذي تجلّى عبر الحرب الأهلية؟

إنّ العودة إلى المفاهيم المطروحة حول تحديدات معنى الإرهاب والعنف - كما ورد سابقاً - واستمرار حمل السلاح مع عدم وجود احتلال للأراضي اللبنانية، لا يُفقد الأمر مشروعته؛ ذلك أنّ حالة العداء بين الكيان الصهيوني ما زالت ماثلة، وأنّ خروجه من لبنان لا يعني أنّ الصراع قد بلغ حداً انتفت معه كلّ مسوّغات استخدام العنف من قبل الكيان الصهيوني، كما أنّ خروج العدو من الأراضي وتطبيق القرار (٤٢٥) سوف يعيد لبنان إلى اتفاقية الهدنة عام ١٩٤٩، وهي هدنة تقف على طرفي الحرب والسلام، أو تجميد مؤقت للصراع وليست نهاية له، ممّا يعني أنّه يحقّ لكلا الطرفين الاستمرار في التعبئة من قبل أحدهما ضدّ الآخر، والإبقاء على المشاعر العدائية، مع تجميد مؤقت للعنف ريثما تصل الأمور إلى حالة من التكيّف بينهما.

وفي ظلّ واقع الحال هذا، يصبح اقتناء السلاح أحد عناصر القوة الرادعة في ظلّ بقاء موازين القوة على حالها خصوصاً وأنّ سلطة العنف المحتكرة للدولة تفتقر إلى القدرة الدفاعية مع استمرار مفاعيل الهدنة، ومع ما يمكن أن تؤوّل إليه المساعي الدبلوماسية لنزع فتيل العنف عبر ما يسمّى العودة إلى تنفيذ القرارات الدولية، تبقى مشروعية السلاح ماثلة في الوقت الحاضر، رغم العمل على ضرورة شيوع حالة من السلام.

ولكن حتّى لو تمّ ذلك يبقى العنف كإرهابٍ خاضعاً للنقاش حول مرتكزاته الحقوقية؛ لأنّه وفقاً لاعتبار الإرهاب بأنّه يمثل خروجاً على القانون بما يركّز إليه من أعمال عنفٍ وتهديد، يصحّ القول إنّ جنبته (العنفية) مجمّدة في حال توقيع اتفاقياتٍ مغايرة لاتفاقية الهدنة، كما لو وقعت معاهدة سلام، وحينئذٍ فيتحوّل هذا العنف إلى إرهابٍ محضٍ، ليس له جنبه عنفية مسوّغة من الناحية الحقوقية، ولكنّا إذا نظرنا إليه من ناحية أخرى، بما يمثّله من تهديد بسبب استمرار الاستحواذ عليه من قبل جماعةٍ ما فيبقى خارج هذا التصنيف، أي: خارج التصنيف بكونه خروجاً على القانون، بل يبقى له من المسوغات الحقوقية والقانونية ما يجعله أمراً مشروعاً ومقبولاً، وأهمّ هذه المسوغات:

- إنّ حمل السلاح الدفاعي يبقى خارج دائرة الفعل (العنفي)؛ لكونه استعداداً وليس فعلاً.

- إنّّه ليس سلاحاً مستخدماً في الدّاخل بما يخرج الدّولة عن حقّها في استخدام سلطتها إزاء مواطنيها.

إنّّه لا يركّز على أفكار متطرّفة بما يعنيه التّطرّف من أفكارٍ مجمّدة لا تعترف بالآخر في الدّاخل، سيّما وأنّ العمل المقاوم في لبنان لم يُسخّر للعبء الداخلي؛ لكونه ارتكز في التّمثيل السياسي على مبدأ الديمقراطية التوافقية، والمستندة إلى التّنافس في أطر المؤسسات السياسية، مع اعتراف حزب الله - كأحد أهمّ تشكيلات العمل المقاوم - بأنّه في عمله السّياسي هو جزءٌ من التّشكيكة الاجتماعية الموجودة وليس كلّها، ولا يسعى إلى تطويعها وفق مبادئٍ مجمّدة بقدر ما يركّز على مبدأ رفض الطّائفية السياسية للخروج من تصلّب الحالة الطّائفية وتكلّسها، ممّا ينزع عنه فعل التّهديد الدّخلي؛ ليغدو حالةً دفاعيةً مقابلة للتهديد من قبل الكيان الصهيوني، سيّما أنّ هذا الكيان ليس ثمة ما يؤشر إلى وجود حدود مرسومة له، فدستوره يخلو من هذا التّحديد ويجعله مفتوحاً على

قضم أراضي كيانات ودول أخرى، فيما سلاح التهديد النووي يبقى هو الآخر محتاجاً إلى مسوغاته الحقوقية لدى هذا الكيان رغم حالة التظاهر بالعمل من أجل السلام.

- إن اتفاقيات السلام حتى لو تم توقيعها لا يمكن أن تتخذ مفاعيل حقوقية مع عدم توفر التوازن في القوة؛ لأن السلام هو حالة تعقب الصراع عند عدم استطاعة أحد أطرافه الحسم لصالحه فتصبح المعاهدات حلاً بديلاً، غير أن ما يدور في الوقت الراهن يعبر عن الحالة الإكراهية للسلام، بحيث يصبح استسلاماً مفروضاً يبقى على اختلال الموازين واستمرار حالة التهديد.

ختاماً نقول:

إن الشرعية الدولية مدعوة لإعادة النظر في طبيعة دورها، بما يشكل ضمانات للاعتراف وللاطمئنان إلى دورها الضامن إزاء التعرض للتهديد ولللعنف، بعدما سجلت المراحل التاريخية والراهنة، خضوعاً لمعايير القوة الدولية المتمثلة بالولايات المتحدة الأمريكية، التي تفصح وبشكل علني عن تحالفها مع الكيان الصهيوني ومدّه بكل مستلزمات القوة (العنفية).

* * *

الهوامش:

- (١) فتحي المسكيني: الهوية والزمان، دار الطليعة، بيروت.
- (٢) أمل يازجي: الإرهاب الدولي والنظام العالمي الراهن، دار الفكر، دمشق.
- (٣) سمير نعيم أحمد: التطرف الديني في مصر، المستقبل العربي، العدد: ١٣١، ١٩٩٠.
- (٤) برتران بادى: سوسيولوجيا الدولة، معهد الإنماء العربي.

- (٥) خطاب الرئيس الأمريكي جورج بوش، السفير تاريخ: ٢٢ / ٠١ / ٢٠٠٥.
- (٦) عبد الله الشايعي: إرهاب الدولة في النظام العالمي المعاصر، المستقبل العربي، العدد: ٢٢٦.
- (٧) محمد حسين دكروب: الأنثروبولوجيا، معهد الإنماء العربي.
- (٨) المصدر نفسه.
- (٩) سمير أحمد: المستقبل العربي، مرجع سابق.
- (١٠) محمد جمال باروت: يثرب الجديدة، دار رياض الريس، بيروت ١٩٩٤، ص: ١٨٣.

مقومات النصر من منظور قرآني

□ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ أَبُو الْخَيْرِ (*)

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

النَّصر في الحروب والصِّراعات من الأمور المهمَّة التي يسعى إليها المتحاربون، ولكنَّ لذلك شروطاً ومقومات لا بدَّ من تحقُّقها، وقد اهتمَّ القرآن الكريم بتوضيح هذه المقومات؛ كي يوفرَّها المؤمنون.

ولا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ النَّصر العسكري - على أهمَّيته - ليس هو الهدف الأساس الذي يبتغيه المؤمن في صراعه لأجل الحقِّ والعدالة، وإنَّما الهدف الحقيقي الذي يحقِّق مبتغى المؤمن هو الوصول إلى رضا الله سبحانه وتعالى والسَّعي إليه:

﴿قُلْ أُوْتِيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥].

والشُّروط التي يراها القرآن الكريم لتحقيق النَّصر متعدِّدة وتتنق في بعضها

(*) باحث إسلامي / العراق.

مع الشُّروط والمقومات التي تراها القوى التي لا ترتبط بالسَّماء، ولكنها تتميز عنها بمجموعةٍ من هذه المقومات، فوق الموازين المادية فإنَّ النَّصر حليف من يمتلك أقوى الأسلحة، والترسانات الضَّخمة، والعدد الهائل من الجيوش، لكنَّ القرآن يرى أنَّ النَّصر حليف تلك الفئة القليلة، التي تحمل الإيمان والاعتقاد الرَّاسخ بعقيدها، ففي آيات القرآن نرى التَّأكيد الرَّبَّانيَّ على إمكانيَّة انتصار الفئة القليلة على الفئة الكثيرة:

- ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:

٢٤٩].

- ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣].

نصر الله

عاملٌ معنويٌّ ربما لا يعيره المؤرخون الغربيون وأتباع المناهج الأرضية أيَّ اهتمام، ولا يشعرون به، إلَّا أنَّنا نعتقد أنَّه من أهمِّ العوامل: إنَّه نصر الله المؤكَّد للمؤمنين الحاملين لرسالته والعاملين على طرح منهجه؛ لتتوحَّد الأجيال وتتنظَّم كُلُّها في مسيرة واحدة، هي مسيرة العدل والإخاء والحرِّية، فكثيرٌ من الآيات تؤكِّد أنَّ النَّصر الإلهي من نصيب القوى الرِّسالية العاملة في سبيله، بشرط صدقها وإخلاصها وإيمانها برسالتها وأهدافها.

أمَّا إذا رحنا نلتمس الشُّواهد التَّاريخية على هذا العنصر، فإنَّنا قد نبتي بما ابتلى به المؤرِّخون الذين لا يعتقدون بتأثير غير المادة، فعندما يحاولون دراسة الظواهر التَّاريخية، فهم يتصوِّرون أنفسهم وقد أحاطوا بكُلِّ العناصر الدَّخيلة في المواقف، فلم يفلت منهم شيءٌ مطلقاً، في حين أنَّ أكبر نقطة ضعفٍ يمكن أن

تؤثر على الباحث بشكل عام، والباحث في سنن التاريخ والمجتمع بشكل خاص هي اعتمادهم على لقطات تاريخية من زاوية نظرهم الخاصة، دون دراسة جميع العناصر التي لها دخل في تكوين الحدث التاريخي، فهم غير محيطين بكُل عناصر الموقف، وإذا كانت الحال هذه فلا يمكن إذن الاطمئنان القاطع بنتائج البحوث التاريخية التي تكون على هذه الشاكلة.

والواقع أنَّ أكبر نقطة ضعف تواجه المادية في ادّعاءها صفة العلمية لماديتها التاريخية هي هذه النقطة بالذات، فإنّ دعوى الإحاطة الكاملة بجميع العناصر المؤثرة بالحدث التاريخي من الصُّعوبة بمكان، خصوصاً لمن لا يرى الأمور إلا من منظاره الخاص.

فعنصر (نصر الله) إذا كان لا يمكن إثباته، بمعنى عدم إخضاعه للتجربة، فلا يمكن نفيه قطعاً، على أنَّ هناك العديد من الحوادث التاريخية لا يمكن تفسيرها إلا بالنصر الإلهي، ومنها الانتصار الرائع لفئة قليلة مؤمنة لا عدّة لها ولا عديد على فئة كبيرة مدججة بالسلاح والعتاد والذخيرة، وقد أخبرنا القرآن بالتدخل السّمائي في المعارك لصالح المسلمين، ومن المدد السّمائي: الأخبار الغيبية التي كان ينزل بها جبرائيل ليحذر الرسول ﷺ من أمور لا علم له بها إلا من طريق الوحي، وأمثال ذلك.

فالفئة المؤمنة تملك الإيمان المطلق بالغيب، والثقة بالله سبحانه وتعالى، ليس في الجانب العقلي والقلبي والتطبيق العملي للأحكام الشرعية فحسب، بل في جانب تأثير الأسباب المادية في الأشياء، وعلاقة الغيب في التأثير بالنصر، والهزيمة، والقوّة، والضعف، والعزيمة، والفشل، فإنّ هذا الإيمان من الصفات التي يميّز بها المؤمنون عن غيرهم؛ لأنّ غير المؤمنين - بصورة عامّة - ينظرون للأُمور من خلال الحسابات المادية في حركة الأشياء، وفي النتائج، وفي الآثار، والأسباب، والمسببات. أمّا الثلّة الإيمانية، فهي تهتم بالحسابات المادية، وفي

نفس الوقت تعتقد بأنَّ القوَّة الحقيقية المتعلقة بالغيب: بالله تعالى وملائكته، والإسناد الإلهي، والتوفيق الإلهي، إلى غير ذلك مما يرتبط بعالم الغيب؛ لأنَّ القدرة لله جميعاً، والإمكانات بيد الله سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ [يونس: ٦٥].

وهذا الأمل من الأمور التي ربيَّ أئمة أهل البيت عليهم السلام أتباعهم عليه، عندما تحدَّثوا عن موضوع الانتظار، والفرج، وقيام القائم، من أجل إيجاد هذا الأمل، الذي لا ينطفئ في نفس المؤمن؛ ليعمل دائماً، وأمامه الأمل بالنصر والفتح والوصول إلى الأهداف؛ لأنَّ الإنسان عندما يفقد أمله، ويتحرك بروح التشاؤم، وبروح اليأس، والقنوط، سوف يفقد قدرته على التأثير، والحركة الصحيحة، مهما كانت لديه من مواصفات.

وستعرّض إلى سرد المهمّ من هذه العوامل التي تشكّل الدّعم الأساسي للنّصر في الصّراع الذي يخوضه المقاتلون في ساحات المعارك والمواجهات:

١. الإيمان بعدالة وأحقية القضية التي تؤمن بها الأمة، وتجاهد و تضحي لأجلها، وفي سبيلها تقدّم أعلى ما تستطيع لتحقيق النصر فيها، وذلك عندما تتحرّك وفق منهج الله تبارك وتعالى والمبادئ المقدسة، دفاعاً عن العقيدة، ودفاعاً عن المقدسات، والتحرك لنصر الله جلّ وعلا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن نَصْرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

نعم، فالنصر هو نصرُ الله، وهو النصر الحقيقي الذي تكون ثماره حقيقةً وباقية لفائدة الأمة والإنسانية، وهو وعد الله الصادق الذي وعد به الصّالحين من عباده المؤمنين:

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وتأكيداً للشّروط والجواب في قوله عزّ وجلّ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن نَصْرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

فالشرط هو الانتصار لله سبحانه وتعالى بمعنى المسير على سنة الله والعمل على طاعته وامثال أوامره وتطبيق سننه والسعي لأعمار الأرض وتحقيق العدالة والإخلاص له؛ فلا تتم حققوا معية الله التي طلبها منهم فكان النصر الأكيد لهم وتثبت أقدامهم وإعطائهم العزم والهمة على مقارعة الأعداء، فإذا تحقق هذا الشرط كان الله معهم كما جاء في قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

وهو وعده الذي تكرّم به لرسوله ﷺ:

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر: ٥١].

فينبغي للمؤمنين المحافظة على الروح المعنوية العالية، والأمل بالمستقبل، والثقة بالنصر والفتح، وتحقيق الأهداف، فإن ذلك هو العنصر الأساس، الذي يمدُّ الأمة، والجماعة، والأفراد بالطاقة على الاستمرار، وتحمل الصعاب والمشكلات.

ولا ينبغي لهم اليأس من النصر الإلهي في أقصى الحالات والظروف، وأشار الكتاب الحكيم إلى أن النصر قد يأتي في لحظة يبدو فيها أن لا أمل في النصر، والذي يعبر عنه بحالة استيئاس الرسل:

﴿حَقَّ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠].

٢. القيادة المؤمنة والواعية والأمانة والرشيدة والقادرة على تحمل مسؤولية قيادة الجهاد والمجاهدين، وهمّها العمل لصالح الأمة وعزّها ونصرها. فحين تمتلك الأمة قيادةً رشيدةً فذلك يعني امتلاكها للنصر؛ لأن القيادة لها الدور البارز في توجيهه، وتنظيم الطاقات، ودفعها نحو الهدف المراد تحقيقه.

ومن بين الصفات التي ينبغي أن يتمتع بها القائد - وهي كثيرة - فبالإضافة إلى التقوى: الخبرة والوعي للظروف، ونفاذ البصيرة، والشجاعة في اتخاذ

القرارات، والقدرة على تمييز المصالح الإسلامية العليا، وتكاملية الرؤية، كُلُّ ذلك يستدعي اختيار المكان، والزمان، والرجال، وفق خطة، ووفق بصيرة واضحة، ثُمَّ نقل هذه الرؤية إلى أصحابه وأتباعه حتَّى يحثهم على الإقدام في مواجهة العدو، فتكون عندهم الأهلية لمواجهة العدو والتغلب عليه. وهذه القيادة عنصرٌ مهمٌ في تحقُّق النصر، والمراقب لأحداث التاريخ عموماً وتاريخ الرسالات الربانية خصوصاً يجد بوضوح الدور الكبير للقيادة المؤمنة في تحقيق الانتصارات الباهرة لقافلة المؤمنين.

وكان اللازم على المؤمنين والمقاتلين السَّمع والطَّاعة لأمر الله وأمر الرسول والتفاني في تنفيذ أوامر القيادة؛ لأنَّها تدعوهم لنصرة الله وتدعوهم لما يحْييهم:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠].

وهذه القيادة تعبئ المؤمنين على القتال وتحرضهم، وتزرع في نفوسهم الهمة والروحية العالية التي تجعلهم على أتم الاستعداد لمواجهة أعدائهم دون الوجل من عدَّتهم وعديدهم، فيكون الواحد في مقابل الكثير، كما في الآيتين من سورة الأنفال:

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَاعِدُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٦٥)

أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾

٣. الطليعة الرسالية، فهم أولاً رجال الله، ثُمَّ أُنهم رجال الإسلام، وهم العمود الفقري في الجهاد.

وهذه الطليعة كانت تمتاز عن غيرها بصفاتٍ، منها: الشَّوق للشَّهادة، والحبُّ والولاء للقيادة الشرعية، فكلُّ واحدٍ منهم كان يريد أن يتقدَّم للدِّفاع

عن الحق ولو أدى إلى الشهادة، فهم على عقيدة بسمو أهدافهم التي جعلتهم يستमितون في القتال دفاعاً عن تلك الأهداف، مما جعلهم أكثر الناس سعيًا إلى الموت في سبيل الله، وليس محض حب الموت، فهم يحبون الحياة لإعلاء كلمة الله في الأرض، وتحقيق الأمل الرباني في وراثة الأرض، لكنهم يسترخصون أرواحهم للأهداف السامية، فكانوا يأملون أن يكونوا من أصحاب الجنة، حيث يعيشون في ظل العناية الإلهية والرعاية الربانية فرحين بما آتاهم الله من فضله، فهم جند الله:

﴿وَأَن جُنْدَنَا لَهُمُ الْعَلِيُّونَ﴾ [الصافات: ١٧٣].

وهم حزب الله:

﴿أَلَا إِنَّ حَرْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

نعم، إن وجود هذه الطليعة التي هي قليلة العدد، لكنها تتدفق إيماناً بالله، وإيماناً بقضاياها الإسلامية العادلة، هو الذي يمكن الأمة من النصر، فهم باعوا أنفسهم لله وتاجروا مع الله، فوعدهم الله المغفرة والرحمة ولقاء الله سبحانه وتعالى:

﴿وَكَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (١٥٧)
 ﴿وَكَيْنَ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لِّإِلَهِ اللَّهِ تُخَشَرُونَ﴾ (١٥٨) [آل عمران].

﴿...وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ...﴾ [الحديد: ١٩].

وفي نفس الوقت حذرهم من الفرار من المعركة والوعيد للمنهزمين أمام الأعداء بالعذاب الشديد، فعليهم الوقوف أمام الأعداء، وأن لا يتراجعوا أمامهم، بل يكونوا كالطود الشامخ:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْاَدْبَارَ﴾ [الأنفال:

[١٥].

ويبين لهم أن طريق العزة وأسس النصر بالثبات والصبر واستحضار عظمة

الله تعالى والاعتصام بالمدد الرباني الذي يعينهم على الثبات والوقوف بشموخ أمام أعداء الله ورسوله بقوله:

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

وأوضح لهم أنَّ ما يدعو إليه الرسول هو العزة والسَّعادة في الدنيا والآخرة، والحياة الحقيقية التي يتمناها كلُّ مؤمن:

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَٰهٌ مُّحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وفي النهاية يجب على هذه الثَّلة المؤمنة التوكُّل على الله تعالى في أداء العمل، واستمراره، واستمداد العون منه تعالى؛ للتوفيق في الاختيار، وفي القدرة على أداء الوظيفة بالنحو الأحسن، وذلك في كلِّ خطوة يخطونها، فيتذكرون الله وقدرته، وإحاطته بكلِّ الأمور، وعلمه بالمصلحة، وأنَّ النصر بيده، والتوفيق بيده، واستلهامه بذلك كُلِّه، فهو الموقِّق، وهو الذي ينزل عليهم النَّصر؛ لأنَّ القدرة لله جميعاً، والإمكانات بيد الله سبحانه وتعالى.

﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٦٥].

٤. وحدة الأمة والتفافها حول قضاياها الكبرى والمصيرية، باتجاه تحقيق أهدافها، والتي تتمثل بوحدة القرار والموقف، وهو أمرٌ يرتبط بوحدة القيادة، والالتفاف حولها، وبوحدة الهدف والمعرفة، في تركيز اهتمامها على مواجهة الطغيان، والاستبداد. هذه الوحدة تعطي الأمة القوة والعزة والكرامة والصمود في وجه التحديات الكبرى ومؤامرات الأعداء، وقد منَّ الله سبحانه وتعالى على المؤمنين؛ إذ وحدهم بعد أن كانوا أعداءً متفرِّقين، وجعلهم أُمَّةً واحدةً مهما اختلفت ألوانهم وأجناسهم:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٣٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا

ءَاتَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ [آل عمران].

بل وصل الأمر في حثّ المؤمنين على الاتحاد في القتال إلى درجة عبّر الله سبحانه وتعالى عنها بمحبّته للمؤمنين المقاتلين إذا كان قتالهم كالبنیان المخصوص في اتحادهم وتماسكهم مع بعضهم:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُنْيَنٌ مَرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

إنّ توحيد الصفوف واجتماع الكلمة هما الدعامتان الوطيدتان لبقاء الأمة ودوام دولتها ونجاح رسالتها، فإنّ توحيد كلمة الأمة سرّ بقاء الدين الخالد، وهو ضمانّة الأمة لحمل الرسالة الخالدة؛ لأجل أن تصل إلى جميع بقاع المعمورة، وبالنّهاية الفخر بأداء التّكليف الذي شرّفنا الله سبحانه بتحمّله:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ، وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال آية ٤٦].

وضرب لهم الأمثال كي يحذروا عواقب الفرقة والاختلاف بعد أن منّ عليهم بالدين الحنيف والبيّنات، وهدّدهم من طرفٍ خفيٍّ؛ حيث أوضح لهم عاقبة الذين تفرّقوا بعد مجيء البيّنات:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران ١٠٥].

ولذا حرص أعداء الأمة على تفريق كلمتها وتشتيت شملها وتمزيق وحدتها؛ لعلمهم بأنّ هذا الطّريق الأهمّ للتغلّب عليها.

وتاريخ الأمة أكّد لنا أنّ النّصر كان حليفاً لها عندما كانت يداً واحدة، ولم يستطع الأعداء النّيل منها إلّا بعد أن دبّ الاختلاف فيها وصارت شيعاً، ولقد حدّر القرآن المسلمين من عاقبة الفرقة والتنازع، فقال:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران ١٠٥].

وبيّن لهم العاقبة السيئة التي تنتظرهم إن هم تفرّقوا:

﴿...وَلَا تَنَزَعُوا أَنْفُسَكُمْ فَيُشَلُّوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ...﴾ [الأنفال: ٤٦].

٥. الاستعداد:

أرشد القرآن الأمة والمؤمنين للإعداد والأخذ بالأسباب وأهمية التخطيط، فقد قال تعالى في كتابه الكريم:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

مبيناً أن التوكّل على الله لا ينافي الأخذ بالأسباب؛ إذ إن ذلك من صميم العبودية لله، فإعداد الأفراد الربّانيين، والقيادة الربّانية، ومحاربة أسباب الفرقة، والاستعداد لدفع كيد الأعداء الذين يتربّصون بالأمة الدوائر، هذا الإعداد مهمّة الأمة بأكملها. فالخطاب الربّاني موجّه للجميع، وشرف امتثاله كذلك للجميع.

والتعبير القرآني: ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ يُشير إلى بذل أقصى حدود الطاقة، فلا يتوان المؤمنون عن سببٍ من أسباب القوّة يدخل في طاقتهم، فالكلّ مطالبٌ أن يهتّى كلّ ما يمكن لأجل الهدف الذي تتوقّف عليه حياة الجماعة المؤمنة، وبالنهاية يتوقّف عليه الهدف الإلهي من تكريم الإنسان بالخلافة على هذه الأرض:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ...﴾ [الأحزاب: ٧٢].

إنّ ساحة الصراع التي اختارها الإنسان عندما حمل الرسالة التي أشفقت من

حملها السماوات والأرض يتطلب منه الاستعداد الدائم والحقيقي في جميع الميادين التي تهيم مستلزمات تحقيق الأمل الرباني، وهو بسط العدالة في الأرض.

فالتخطيط في المفهوم القرآني هو الاستعداد في الحاضر لما يواجه الإنسان في عمله أو حياته في المستقبل.

ومساحة الاستعداد والإعداد تشمل جميع المجالات، فهناك الإعداد الاقتصادي، والإعداد الإعلامي، والإعداد الأمني، والإعداد العسكري. وهذا الاستعداد وبذل النفس وعدم التخلف عن الرسول الأكرم ﷺ هو من العمل الصالح، وكُلَّه بعين الله سبحانه وتعالى، وأجر المؤمنين محفوظ لهم، قال تعالى:

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظُلْمٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كُنِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٢٠].

فالإسلام لم يتجاهل موازين القوى في معاركه العسكرية، ولم يقل لمعتقيه: إِنَّ الإيمان والعزيمة كافيان لتحقيق الانتصار - على الأهمية التي يوليها الإسلام لهذين العنصرين -، بل حثهم بالإضافة إلى ذلك على مواصلة الإعداد واختيار اللحظة المناسبة بعد تقدير الموقف بكل تفاصيله، والإعداد لوقت القتال والمنازلة مع الأعداء الذين هم أيضاً يعدون العدة كذلك، ويحاولوا ما أمكنهم لدحر الإيمان وأهله.

وعد الله المؤمنين بالنصر والإمداد الغيبي ومؤازرة الملائكة لهم في جهادهم، ولكن لا بد من التخطيط والاستعداد، وتغيير أنفسهم، وجعلها ملائمة لما أمر الله به، فقد جعل الله سبحانه وتعالى سنناً لا بد من رعايتها ليصل الإنسان إلى

مراده، وإذا لم يراع ذلك، فالفشل نصيبه مؤمناً كان أو كافراً:
﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعَمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣].

فلا بد من تنظيم صفوف الأمة، وإحكام العلاقات بينها، وإعداد عناصر القوة والقدرة فيها، وتفجير الطاقات والإمكانات، باستثمارها، وترتيب التّكامل بينها.

الرّعب

ونختم المقال بالحديث عن سلاح خفيّ أيد الله به أنبياءه والمؤمنين من عباده، وهو سلاح الرّعب، وأهمية هذا التأييد والسّلاح واضحة؛ لأنّ السّلاح مهما كان متطوراً فتاكاً لا يجدي نفعاً إذا سلب صاحبه إرادة القتال، وتضعف جانبه المعنوي.

ولذا اعتبر المختصّون أنّ السّلاح المعنوي (تقوية معنويات المقاتلين وتضعيف روحية العدو وجنده) من أهمّ عوامل النّصر، ومن أجله ترصد الدّول والمتحاربون الأموال والإمكانات الطّائلة، ويخصّصون له الوسائل والخبرات الكثيرة.

وسلاح الرّعب والخوف، وسلب المعنويات من أمضى وأظهر الأسلحة التي أيد الله بها نبيّ الإسلام ﷺ في صراعه المرير مع قوى الشّرك والنفاق والكفر. وإذا أردنا أن نعرض لوحة توضّح للقارئ الكريم صورةً لهذا التأييد الإلهي من جهة، وتوضّح التأثير البالغ لهذا السّلاح من جهةٍ أخرى، فنذكر مواجهة النّبي ﷺ مع بني النّضير، ألقى الله الرّعب في قلوب اليهود حتى استوعبها كلّها، فتغيّرت المعادلة من الكبرياء والغرور إلى الهزيمة النّفسية.

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا

وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْهِمُ مَائِدَتَهُمْ خُصُوفَهُمْ مِنْ آلِهَةٍ فَأَنذَرْتَهُمْ اللَّهَ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُجْرِبُونَ بِيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يٰٓأُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ [الحشر: ٢].

وحينما يهيمن الرُّعب على القلوب، فإنه يفقد العدو القدرة على التخطيط السليم؛ لأن من أهم ما يحتاجه الإنسان لكي يكون تفكيره منطقياً معقولاً هو الاستقرار والاطمئنان الداخلي، فتشل قوى المقاتلين.

وقد فقد اليهود معنوياتهم، فخرجوا من التعقل إلى الانفعال، فصاروا يخططون ويعملون ضد أنفسهم من حيث لا يشعرون؛ حيث راحوا يهدمون بيوتهم بأيديهم حتى لا ينتفع بها المؤمنون - بخيالهم -، أو حتى تصبح ركاماً فتمنع الخرائب تقدم المسلمين - بوجههم -، وتكون حائلاً دون سيطرة قوى الإيمان عليه، وغاب عنهم أنهم أظهروا بذلك التصرف هزيمتهم للمسلمين، وخوار عزائمهم مما قوى معنويات عدوهم، فصاروا متيقنين بالنصر بعد أن كانوا لا يظنون بأن اليهود يخرجون من ديارهم^(١).

وفي الختام لا بد من الإشارة إلى أهمية الدعاء وطلب النصر من السماء، والاستمداد من الغيب الذي هو المدد الحقيقي للمؤمنين، ونجد في دعاء الإمام زين العابدين (عليه السلام) لأهل الثغور صوراً رائعة للوثوق بالمدد الإلهي واستمداده من ساحة الربوبية:

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَحَصِّنْ ثُغُورَ الْمُسْلِمِينَ بِعِزَّتِكَ، وَأَيِّدْ مُجَاهِدَهَا بِقُوَّتِكَ، وَأَسْبِغْ عَطَايَاهُمْ مِنْ جَدَّتِكَ. اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَكَثِّرْ عِدَّتَهُمْ، وَاشْحَذْ أَسْلِحَتَهُمْ، وَاحْرُسْ حُوزَتَهُمْ، وَامْنَعْ حَوْصَتَهُمْ، وَأَلْفْ جَمْعَهُمْ، وَدَبِّرْ أَمْرَهُمْ، وَوَاتِرْ بَيْنَ مِيرِهِمْ، وَتَوَحَّدْ بِكِفَايَةِ مُؤْنِهِمْ، وَاعْصُدْهُمْ بِالنَّصْرِ، وَأَعِزَّهُمْ بِالصَّبْرِ، وَالْطُّفْ لَهُمْ فِي الْمَكْرِ»^(٢).

وَأَخِرُ دَعْوَتِهِمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ...

الهوامش:

(١) فليراجع في هذا المجال الكتب التفسيرية التي تعرضت لتفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرِجُوا وَظَنُوا أَنَّهم مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَنَّهُمْ اللَّهُ مِنْ حَبْثٍ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَكُونُوا لَأَنْبَصِرَ﴾ [الحشر: ٢].

(٢) الإمام السَّجَّاد، علي بن الحسين عليه السلام، الصَّحِيفَةُ السَّجَّادِيَّةُ الكاملة: ١٢٦، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ، نشر: دفتر نشر الهادي، قم.

قراءة في دلالات

تحرير الأسرى والمعتقلين

□ الشيخ نعيم قاسم (*)

نبدأ بالتعريف عن الهوية لجهتين متقابلتين لا يجمعهما شيء، ويفترقان من أجل كل شيء:

الأولى: الأسرى والمعتقلون، ذنبهم دفاعهم عن الأرض والاستقلال والمستقبل، قاوموا الاحتلال لطرده فاعتقلوا في أرض المعركة، أو خُطفوا من بيوتهم متلبسين بالإيمان بالله وبقضيّتهم، هم الثلة الخيرة التي يذكرنا كل شيء فيها بفلسطين والمقدّسات، هم الصفوة الطاهرة التي جسّدت معنى الإنسانية والأصالة، هم البقية المنيرة التي بددت ظلمة الاستسلام والخديعة والانزлам.

الثانية: المعتدي، اسمه: الكيان الإسرائيلي، هو غني عن التعريف، فبصماته منتشرة في كل بيتٍ وحَيٍّ وشارعٍ ودسكرة، ممهورة بالأحمر لتغيّر الألوان، ملأ الدنيا أزمات ومازق، روع السلم العالمي بأطماعه وعدوانه، أسس للجريمة الدائمة في كل يومٍ وساعةٍ ولحظةٍ، يقتل الطفل والشيخ والمرأة، ويهلك الحرث والنسل والجماد، لا عهود له ولا موثيق، يأخذ أرض الغير ويسلب راحة

(*) نائب الأمين العام لحزب الله في لبنان.

البشرية بإرهابه...

ما الذي حصل؟ صفقة تبادل بين مقاومين ومحتّلين، أسرى ومعتدين!!... ليست عملاً عادياً يجري في كلّ يوم، إنّهُ حدثٌ استثنائيٌّ يؤرّخ لمحطّة تاريخيّة هامّة في حياة الأُمّة وعزّتها. ليست تبادلاً بين متّفقيّن، إنّهُ انتزاعٌ للحرّيّة من غاصبيها. ليست خطوةً ناجحةً بالظّروف الملائمة، إنّها مدماكٌ يُزرع في الأرض مثنياً للمنهج المقاوم...

وما هي الدّلالات؟!

- اعترفت إسرائيل ومَن وراءها بعدم الاستهانة بمن يقابلها، وأدّعت للثّمن المرتفع، وهي تعلم ما ستكسبه المقاومة الإسلاميّة من رصيدٍ ودورٍ وتأثيرٍ ورمزيّة، لكنّها تخشى من المستقبل، فلعلّ هذا الثمن يدفع الأعظم، ولعلّه يغطّي بعض مشاكل الدّاخل.

إنّ التبادل خطوةً من خطواتٍ رأسها تحرير الجنوب والبقاع الغربي - باستثناء مزارع شبعا - في أيار ٢٠٠٠، وقد أكّدت أنّ المقاومة فعلٌ ناجح، فهي قادرةٌ على فرض وجودها رغم الضّغوطات، وهي مؤهّلةٌ لكسب معركة المستقبل رغم التّضحيات، فلا داعي لتتعب أنفسنا بالبحث عن شرعيّة المقاومة في أروقة الأمم المتّحدة أو الدّول الكبرى، فهؤلاء لن يعترفوا بها؛ لأنّها تُعارض مصالحهم، وتعيق استغلالهم للشعوب والخيرات، وسينعتونها بالإرهاب؛ لتسهيل عزلها، فاضربها، فإنّها!!

إذاً ماذا نفعل؟ لقد تعلّمنا من المقاومة والإنفاضة الفلسطينيّة الشّريفة والتّحرير والتّبادل أنّ تعريف المقاومة بـ «العمل»، وتعريف الإرهاب بـ «السلوك»، فلا نفع لإطالة الأمد بانتظار التّعريف الدّولي، فهذا هو العالم اليوم يقف إجلالاً لحرّيّة نتجت عن المقاومة التي أحبّها النّاس، ووجدوها معبرةً عن إنسانيّتهم وكرامتهم.

- قبل أسر الجنود الثلاثة ورابعهم عقيدهم، لم يستمع إلينا أحد!!
ولم يسمع أحد صراخ الأسرى وأهاليهم!!
لكن بعد ذلك: تحرك العالم، تعرّفنا على ديبلوماسيين كثر، لم نكن نعرفهم،
عرضوا علينا وساطتهم من أجل الأربعة، وصدرت تصريحات مكثفة لدواع
إنسانية بضرورة عودتهم إلى أهاليهم!!
فكنّا نذكرهم بالدّواعي الإنسانية لمعتقليننا في سجون الاحتلال الإسرائيلي،
وهم مضطرون للاستماع...
كانت المفاوضات شاقّة وصعبةً لثلاث سنوات، بالتّهويل والضّغط
واستحضار الصّور الخطيرة، لكنّنا أصحاب حقّ، فالآلاف من الأسرى
والمعتقلين لا يجدون لهم نصيراً في العالم المتحضّر، ولا تتكرّر المطالبة بهم، ولا
تُفرض عقوباتٌ سياسية واقتصادية على إسرائيل من أجلهم، ولا تكلف
دبلوماسيّة الكبار نفسها لمجرد المطالبة بهم. أدركنا أنّ الحلّ بأيدينا، ولا تنقصنا
الحنكة والدّراية والقوّة السّياسية والعلاقات ومستلزمات المواجهة، خاصّة
عندما يرافقها إيمانٌ قويٌّ بنصر الله ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الرّوم: ٤٧]، ما
يشحذ الهمم ويقوّي العزيمة للصّمود والصّبر، فلنستخدم ما عندنا وبأيدينا في
الطّريق الصّحيح؛ لنصل إلى مبتغانا.
- الصّفقة رابحةٌ بكُلّ المعايير، فالمحرّرون منتشرون على امتداد البلاد العربية
من نقطة القلب الفلسطيني كتأكيد على الهمّ المشترك والقضية الواحدة المترابطة،
فجميعهم أخذوا بسببها من عدوّ واحد، وأُفرج عنهم بالضّغط على هذا العدو،
والأعداد كبيرة، فمن الأحياء (٤٣٥) يمتدون إلى عائلاتهم وأبنائهم وأرحامهم
وجيرانهم وأهل بلداتهم، ومن الشهداء (٥٩) من أطيايف المقاومة بقواها
وأحزابها اللّبنانية والفلسطينية؛ للتّأكيد بأنّ ما جمعتة الشّهادة لا يفرّقه أحدٌ، وهو
رابطٌ قويٌّ متين، ومن الذين كُشف مصيرهم (٢٤) لتبديد بعض القلق

والخيرة، فمن مات منهم فإلى جنان الخلد، ومن بقي التحق بالركب مجدداً،
وخرائط الألغام تبدد دعر الأهالي وتعطل سلاح المكر؛ ليرتاح الجميع من عبءٍ
مستور.

أراني أجد كلَّ عربيٍّ ومسلمٍ وشريفٍ في العالم يفرح لما جرى، إنه انتصارٌ ثانٍ
كبيرٌ للنَّاس، للشرفاء، للمحبين، لحقوق الإنسان، للمقاومة والانتفاضة،
للبنان، لفلسطين وقدسها...

فالجميع شركاء، وقد آن لنا أن نتعلم، أنَّ اختلافنا على القشور ضيَّع
الأصول، ومنازعاتنا على المكاسب الضيقة ضيَّعت الأوطان، وأعمالنا لإلغاء
الآخرين لم تُبقِ لأحدنا مكانة فضلاً عن الآخرين..

لا حلَّ إلاَّ بسيادة الأولوية للتحرير على ما عداها، فلا استقرار مع
الاحتلال، ولا حدٌّ للتنازلات التي يطلبها العدو، ولن يتمكَّن فريقٌ أن يَنوب
عن الآخرين ليتكلم نيابة عنهم، أو يواجه نيابة عنهم، كلُّ الأيدي مطلوبة،
وكل الطاقات مناسبة، حتَّى ولو اختلفت في بعض رؤاها، فلننظِّم الاختلاف في
خدمة الهدف الأكبر بدل أن نضعه عائقاً يضيِّع الهدف. وإذا غضضنا النظر عن
هفوات بعضنا لمصلحة قوتنا المشتركة فسنصبح أقوى في مواجهة الاستحقاقات
مهما كبرت.

فلسطين فلسطينية وعربية وإسلامية وعالمية، فلتفكِّر كلُّ جهةٍ بما تعطيه،
فتكبرُ فلسطين وتكبر هذه الجهة، لا أن تكون فلسطين معبراً للأطماع
والصفقات والمساومات، فهي لا تتحمل أن نأخذ منها وإلاَّ خسرت ما أخذناه
وخسرتاه لفلسطين...

وكذلك الانتفاضة والمقاومة هي وطنية وعربية وإسلامية ولجميع الأحرار،
تحمل الجميع وتريدهم ليساهموا في التحرير، لكنَّها لا تتحمَّل أن تُحتزل بأحد،
فمن اختزلها اختزل نفسه وأعاق تألقها، ومن أعطاها صابراً محتسباً ربح وربح

الجميع من فيضها لا على حسابها، لتبقى عنواناً للمرحلة، فلا وجود لعنوان آخر يملك فعاليتها.

- لسنا عاجزين، بإمكاننا أن نحقق الكثير، شرط أن نعرف ما نريد، وأن نكون مستعدين لثمن التضحيات من أجل التحرير. لقد سادت ثقافة الإحباط والهزيمة، بإظهار قوة العدو والاعتذار بضعفنا، وسارع البعض من «أصحاب النصيحة»! واعظين بأن قبولنا بإسرائيل ومطالبها يحل المشكلة، وإذا احتلت من دون مقاومة، فالأمل كبير بالأوسع احتلالها، وأن تتخلى عن بعض فتاته «لنحيا»!!!

علّمنا التجارب، بأننا إذا لم نمتلك أوراق القوة بأيدينا فلن يحترمنا أحد، ولن يعيد لنا حقنا أحد، وأننا إذا لم نقاوم بما استطعنا من قوة فلن تعود لنا أرض أو مقدّسات، وأننا إذا لم نسمع العدو والعالم أصواتنا بكل معانيها فلن نتمكن حتى من التعبير. لن نقول: بأن التكلفة بسيطة، فالتضحية كبيرة جداً، إلا أن بإمكاننا الآن المقارنة بين مسارين:

أحدهما: روج طوال الفترة الماضية للدبلوماسية والقبول بالتنازلات واستباق الآخرين بتخفيض أسقف المطالب لاسترضاء إسرائيل ومن وراءها، وهي لا ترعوي.

وثانيهما: قاوم وقدم الشهداء والتضحيات، فحقّق نصراً باندحارٍ إسرائيليٍّ من لبنان، وتحريرٍ للأسرى، وانتفاضةٍ منعت انتهاء قضية فلسطين بعهوات الشعب الفلسطيني المجاهد.

وبالمقارنة بينهما فنحن بحاجةٍ إلى استمرار المقاومة والانتفاضة مع الاستفادة من كلّ أشكال العمل السياسي الهادف والحنكة والدراية وبناء كلّ العلاقات الملائمة مع دول العالم وفي المحافل الدولية، لا على قاعدة السقف المتنازل عن الأرض، بل على قاعدة التمسك بكلّ حبة تراب، بالاستفادة من الظروف

الدولية، والصّبر عند هبوب رياح الضّغط الأميركيّة، وعدم صرف المعركة عن مسارها خارج أولوية التّحرير، وعدم استعجال النّتائج، فلكلّ شيءٍ أوانه. إنّ من الذين رموا أوراقهم خوفاً ممّا هو أعظم، أُنّاهم ما هو أعظم ممّا لو بقيت أوراقهم بأيديهم.

إنّ تجربة «حزب الله» في المقاومة والعمل السياسي والاجتماعي ملكٌ للأُمّة وليست له وحده، ليقبل النّاس منها ما شاءوا ويرفضوا ما شاءوا، كتجربة لها مقدّماتها وأساليبها ونتائجها، كجزء من رصيد كلّ الأُمّة، هكذا نريدها، وهي كذلك في عملية التّبادل الكبيرة، بدلالاتها وأبعادها التي يُستقى منها الكثير للاستفادة والتّصويب باتجاه تعزيز الأمل بقدرتنا على الفعل الناجح.

* * *

لكي لا ننسى أسرارنا!!..

(دراسة إحصائية لتاريخ عمليات تبادل الأسرى)

□ إعداد: قسم الأرشفة

مقدمة

صدر عن موقع: فلسطين خلف القضبان (Palstinebehindbars.org) دراسة شاملة لتاريخ عمليات العرب والفلسطينيين مع الكيان الصهيوني الغاصب، تبدأ من العام ١٩٤٩م، وتنتهي بالعام ٢٠٠٨م، وقد أحصى معد هذه الدراسة الباحث الفلسطيني (عبد الناصر عوني فروانة) ستاً وثلاثين عملية تبادل، بدأتها مصر، وختمها حزب الله، علماً أنّ التبادل الأخير في شهر تموز من العام الحالي، والذي تمّ الإفراج فيه عن عميد الأسرى العرب: المناضل سمير القنطار لم تشمله هذه الدراسة؛ لتقدّمها على عملية التبادل الأخيرة.

وقد ارتأت لجنة الأرشفة في مجلّة (رسالة الثقلين) نشر أكثر ما ورد في هذه الدراسة، مع إجراء بعض التعديل عليها، اختصاراً تارةً وإضافة أخرى؛ لكي تبقى الأمة الإسلامية تعيش مع معاناة أسراها في سجون العدو الإسرائيلي من جهة، وترصد تلك المفاخر التي قام بها مجاهدو الأمة من أجل رفاق لهم يقبعون في سجون الاحتلال وهم يعانون الأمرين، مع الامتنان للمعدّ الأصلي لهذه

الدّراسة:

وهو بسبقٍ حائزٌ تفضيلاً مستوجبٌ ثنائي الجميلا
شهد الصراع العربي - الإسرائيلي منذ العام ١٩٤٨ إلى العام ٢٠٠٨ العديد
من الحروب العربية - الإسرائيلية الكلاسيكية تارةً وحروب الاستنزاف أُخرى،
بالإضافة لظاهرتي المقاومة الوطنية الفلسطينية واللبنانية التي ترأسها حزب الله،
وهذا الصّراع أسفر عن اعتقال قوّات الاحتلال الإسرائيلي لقراية (٨٠٠ ألف)
مواطن من أبناء شعبنا الفلسطيني، والآلاف من الجنود والمواطنين العرب
والعشرات من جنسيّات أُخرى مختلفة .

فيما اعتقلت القوّات العربيّة أكثر من ألف أسير إسرائيلي، كما واحتجزت
فصائل المقاومة الفلسطينية واللبنانية العشرات من الجنود الإسرائيليين وبعض
الجثامين والأشلاء لجنود إسرائيليين أيضاً.

وارتفاع عدد الأسرى الفلسطينيين له أسبابه: أوّلها الوجود المباشر لقوّات
الاحتلال الإسرائيلي المدجّجة بالسّلاح في كلّ شارعٍ ومخيمٍ، مع إمكانيّة
وصولهم لكلّ بيتٍ واعتقال أفرادهِ العزّل بسهولة.

ونسبة المعتقلين الفلسطينيين تعتبر أكبر نسبة في العالم إذا ما قيست بعدد
السكّان في الأراضي الفلسطينية المحتلة، كما ولم يقتصر الأمر على هذا الرّقم
الصّخيم، بل إنّ أضعاف أضعاف هذا الرّقم عانوا - أيضاً - من الاعتقال وآثاره،
حيث إنّ مرارة الاعتقال وآثاره تمتدّ لتطول الأهل والأبناء والأقارب، وحتىّ
الأصدقاء والجيران، كما إنّهم ليسوا أرقام وأعداد مجرّدة، إنّهم تاريخٌ وقصصٌ،
آلامٌ ومعاناتٌ، ولكلّ أسير حكاية وقصّة، بل حكايات وقصص.

وهذا يعني - أيضاً - بأنّ سياسة الاعتقال شكّلت - ولا زالت - ظاهرةً طالت
كلّ مخيمٍ ومدينة، كلّ بيتٍ وأسرّة، ويمكن فقط أن نستثني القلائل من الشعب
الفلسطيني الذين لم يتأثروا من الاعتقال وتبعاته، كما لم تبقَ هناك بقعةٌ في

فلسطين، إلّا وأقيم عليها سجنٌ أو معتقلٌ أو مركز توقيف من الشمال وحتى صحراء النّقب في الجنوب.

كما أنّ الاعتقال أصبح مفردةً ثابتةً في القاموس الفلسطيني، ومن أبجديات الحياة الفلسطينية، فالطفل الفلسطيني وقبل أن يولد يكون قد تعلّم أبجديات الفقر والدمار وأحياناً الموت، وإنّ كتبت له الحياة يكون قد تهجّى مفردات الاحتلال والسّجن والتّعذيب والقتل، وقد يولد على المعابر والحواجر العسكريّة أو في غرف السّجون، ويكبر فيها ويتغذّى على مشاهد السّجن والسّجان، ويتعلّم على شبابيك الزّيارة.

ويبقى من حقّ المعتقل الفلسطيني والعربي أن يحلم بالحرية وأن يتسلّح بأمل التحرّر إمّا بانتهاء فترة محكوميّته، أو من خلال المفاوضات السياسيّة، أو ضمن عملية تبادل أسرى، والأخيرة كانت أكثر السُّبل نجاحاً.

ومن الأهمية بمكان هنا التأكيد على أنّه واجب الأُمّتين العربيّة والإسلاميّة وكافة الشُّعوب وقيادتها وقواها المقاومة والمناضلة السّعي المتواصل من أجل تحرير هؤلاء الأسرى الذين ناضلوا وضحوّوا بزهرات شبابهم من أجل قضاياهم العادلة، والمستقبل الفلسطيني بشكلٍ خاصّ سيبقى مشوّهاً ما لم ينل كافّة الأسرى حريتهم.

ومنذ قيام كيان الاحتلال الإسرائيلي في العام ١٩٤٨ على أنقاض القرى والبيوت الفلسطينيّة المهذّمة، وعلى أشلاء جثث آلاف الشّهداء ودماء عشرات الآلاف من الجرحى وآلام مئات الآلاف من المعتقلين، جرت عشرات عمليّات تبادل للأسرى ما بين حكومة الاحتلال الإسرائيلي ودول مصر والأردن وسوريا ولبنان، على مستوى الدُّول تارةً وعلى مستوى الفصائل المقاومة أُخرى، تمّ بموجبها إطلاق سراح آلاف المعتقلين الفلسطينيين والعرب من السّجون الإسرائيليّة، واستعادة المئات من رفات الشّهداء المحتجزة لدى

سلطات الاحتلال في ما تعرف بمقابر الأرقام.

كما حدث أكثر من مرّة أن رفضت (إسرائيل) مبدأ التبادل، أو التفاوض من أجل التّبادل كما جرى في عتّيبى ومعالوت وغيرها من عمليّات الخطف واحتجاز الرهائن، كقضية اختطاف الباص الإسرائيلي (رقم ٣٠٠) المليء بالركّاب؛ حيث اختطفته مجموعة من المقاتلين الفلسطينيين من عسقلان باتجاه الأراضي المصرية في ١٢ نيسان ١٩٨١، وتمّت مهاجمة الباص من قبل القوّات الإسرائيلية قبالة دير البلح بقطاع غزّة ممّا أدّى لمقتل وإصابة العديد من الركّاب الإسرائيليين واستشهاد اثنين من المقاتلين الفلسطينيين وقتل اثنين آخرين بعد أسرهما، وقضية الجندي الإسرائيلي (نحشون فاكسمان) الذي خطفه نشطاء من حركة حماس عام ١٩٩٤، وتمّ مهاجمة المكان المحتجز فيه ممّا أدّى لمقتله واستشهاد محتجزيه، كما كان هناك العديد من المحاولات لفصائل المقاومة الفلسطينية، منها: خطف طائرات من قبل الجبهة الشّعبية لتحرير فلسطين في أعوام ٦٨، ٦٩، ١٩٧٠، واحتجاز الركّاب كرهائن لتحرير الأسرى والأسيرات.

وهناك محاولات عدّة لخطف جنود ومستوطنين في فلسطين المحتلة من قبل العديد من فصائل المقاومة الفلسطينية، وكانت أولى تلك العمليّات هي أسر الضّابط الإسرائيلي (دافيد بن شموئيل شامير) عام ١٩٧٩ واحتجازه لبضعة شهور في رفح، وتلاها عمليّات كثيرة وعلى سبيل المثال لا الحصر، كان عملية خطف الجندي الإسرائيلي (موشيه تمام) التي نفّذتها مجموعة من الجبهة الشّعبية لتحرير فلسطين في منتصف الثمانينات في فلسطين، واحتجزت الجندي لعدّة أيام، وعندما استحال نقله إلى خارج فلسطين قتلوه، وكذلك خطف الجنديين الإسرائيليين (إيلي سعدون وآفي سبارتوس) من قبل مجموعة من حركة المقاومة الإسلامية - حماس بتاريخ ٣/٥/١٩٨٩، وتمّ قتلها ودفن جثّتيها، واكتُشفت

جثة الأول بعد شهرٍ تقريباً، وجثة الثاني بعد بضع سنوات، وكان الهدف مبادلتها بأسرى. وفي العام ١٩٩٢ تمكّنت مجموعة من مقاتلي حركة حماس من أسر الجندي الإسرائيلي (نسيم توليدانو)، وتمّ قتله حين هاجمته القوات الإسرائيلية.

ولكنّ جميع تلك المحاولات باءت بالفشل ولم تنجح في تحرير أيّ من الأسرى، وتبقى عملية أسر الجندي الإسرائيلي (جلعاد شاليط) بتاريخ ٢٥ حزيران ٢٠٠٦ هي الأبرز، ونأمل أن تنجح في إطلاق سراح العديد من الأسرى لا سيما القدامى منهم.

أمّا عن أسباب فشل تلك المحاولات فلسطينياً وعدم نجاح إتمام عمليات تبادل جديدة، والتي كان آخرها في مايو عام ١٩٨٥، فيمكن تلخيصها على أنّها ذاتية وموضوعية.

ذاتية مرتبطة بأجندة الفصائل وعدم إصرارها على ذلك أحياناً، و بخبرة منفذي العمليّات ومحتجزي الجنود أحياناً أخرى.

وموضوعية تتعلّق بالوضع الجغرافي والوجود العسكري المباشر لقوّات الاحتلال في كلّ مدن ومخيمات وشوارع فلسطين ممّا صعب من مهمّة نجاحها، ومن ناحية أخرى طبيعة حكومات الاحتلال المتعاقبة التي ترفض مبدأ التّبادل، أو التّفاوض من أجل التّبادل، والرّهان على القدرات الأمنية والعسكرية، وانتهاج القوّة في تحرير المحتجزين لدى المقاومة كما تطرّقنا إليه آنفاً.

فلسطينياً - وللأمانة المهنيّة - يمكن القول بأن حركة (حماس) تميّزت عن غيرها من الفصائل الفلسطينية خلال الانتفاضة الأولى، وكانت الأكثر محاولةً وتنفيذاً لعمليّات أسر جنود ومستوطنين إسرائيليين، فيما تراجعت غالبية الفصائل عن هذا النهج. أمّا حركة فتح والسلطة الوطنية فركّزت اهتمامها ومنذ إعلان المبادئ في أوسلو بتاريخ ١٣ سبتمبر ١٩٩٣، على تحرير الأسرى من

خلال العملية السلمية والمفاوضات المباشرة، وبالرغم مما سجّلناه من تحفظات وانتقادات شديدة لما تخلل أوصلو والاتفاقيات اللاحقة وما واكب العملية التفاوضية من أخطاء كبيرة ذات علاقة بقضية الأسرى، إلّا أنّها نجحت جزئياً في تحرير جزءٍ معتدّ به من الأسرى.

غاية الأمر، نلاحظ أنّ عملية تحرير الأسرى الناشئة من المفاوضات والاتفاقيات السلمية وما يُسمّى بحسن النوايا لم يكن لها هذا الزخم المعنوي على الأمة، كالزخم الذي تعطيه عملية التحرير الناشئة من التبادل، كما يلمسه المشاهد لما حصل في لبنان عام ٢٠٠٤م، وعام ٢٠٠٨.

أما عربياً فتميّز (حزب الله) اللبناني وآخر محاولاته الناجحة كانت (عملية الوعد الصادق) بتاريخ ١٢ تموز ٢٠٠٦م، وتمّ خلالها مهاجمة دورية عسكرية إسرائيلية وقتل وجرح العديد من الجنود الإسرائيليين، وأسر خلالها جنديان إسرائيليان، وهما: (إيهود غولدفايسر، إلداد ريجيف)؛ بهدف مبادلتها بأسرى محتجزين لدى حكومة الاحتلال الإسرائيلي. وقد أدّت هذه العملية ثمارها في ١٧ تموز ٢٠٠٨، فتمّ الإفراج عن جميع الأسرى اللبنانيين المعترف فيهم لدى الكيان الغاصب، مع أشلاء نحو (٢٠٠) شهيد لبناني وفلسطيني وعربي، على رأسهم شهداء حرب تموز التي حصلت قبل سنتين، والشهيدة دلال المغربي ومجموعتها.

أبرز عمليات تبادل الأسرى

ولعلّ أبرز ما تمّ رسمياً وفعلياً من عمليات تبادل الأسرى كانت بدايتها عام ١٩٤٩م، وفقاً لما توصّل إليه الباحث المختص بقضايا الأسرى عبد الناصر فروانة إليه من معلومات وبيانات بعد البحث والتدقيق، وقد لا تكون شاملة، لكنّها قد تكون الأدقّ والأكثر شمولية، وفي الوقت ذاته قابلة لإبداء الملاحظات

والآراء لعلنا نصل مع كُـلِّ المعنيين لدراسة كاملة ودقيقة.

وعربياً بدأتها جمهورية مصر العربية في فبراير عام ١٩٤٩ م ، ومنظمة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بدأتها فلسطينياً في يوليو عام ١٩٦٨ م، وهي إحدى فصائل منظمة التحرير الفلسطينية، وتلتها حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) عدّة مرّات، والجبهة الشعبية - القيادة العامة، فيما وصل مجموع تلك العمليات عربياً وفلسطينياً إلى ستة وثلاثين عملية، وإذا ما تمّت عملية التّبادل المرتقبة بين حماس والكيان الغاصب على الجندي (جلعاد شاليط) فستكون العملية رقم (٣٧)، والإحصائية كالتالي:

١. بعد حرب عام ١٩٤٨ م أجرت (إسرائيل) عمليات تبادل مع مصر والأردن وسوريا ولبنان، حيث كان في أيدي المصريين (١٥٦) جندياً إسرائيلياً، وفي أيدي الأردنيين (٦٧٣) جندياً، ومع السّوريين (٤٨) جندياً، ومع لبنان (٨) جنود، أمّا (إسرائيل) فكانت تحتجز (١٠٩٨) مصرياً، (٢٨) سعودياً، (٢٥) سودانياً، (٢٤) يمنياً، (١٧) أردنياً، (٣٦) لبنانياً، (٥٧) سورياً، و (٥٠٢١) فلسطينياً. وقد نفّذت حكومة الاحتلال عمليات التّبادل مع كُـلِّ دولة تحتجز إسرائيليين على انفراد، فعقدت صفقة الفالوجة مع مصر بتاريخ ١٩٤٩/٢/٢٧، ومع لبنان في الفترة ما بين الثالث من مارس والرّابع من إبريل عام ١٩٤٩، وكانت الصفقة الأخيرة مع سوريا بتاريخ ١٩٤٩/٧/٢١.

٢. بتاريخ ١٩٥٤/٩/٣٠ أسرت القوّات المصرية عشرة ملاحين إسرائيليين على متن السفينة (بت جاليم) في قناة السويس، وبعد تدخل مجلس الأمن أطلق سراح العشرة في ١-١٠-١٩٥٥.

٣. في شهر ديسمبر من عام ١٩٥٤ أسر السّوريون خمسة جنود إسرائيليين توجّهوا إلى مرتفعات الجولان في مهمّة خاصّة، وقد انتحر أحدهم في

سجنه بسوريا، ويدعى (أورى إيلان)، وفي ١٤/١/١٩٥٥ أُرجعت جثته لإسرائيل، والأربعة الآخرون هم: (مائر موزس، يعقوب ليند، جاد كستلنس، ومائر يعقوبى) وقد أُرجعوا لإسرائيل في ٣٠/٣/١٩٥٦ بعد أسير دام (١٥) شهراً، وأُفرجت إسرائيل في المقابل عن (٤١) أسيراً سورياً.

٤. في ٢١/١/١٩٥٧ بدأت الصفقة الرابعة وانتهت بتاريخ ٥/٢/١٩٥٧، وأُطلق بموجبها سراح (٥٥٠٠) مصري كانت قد أسرتهم (إسرائيل) في حرب عام ١٩٥٦، وقد إرجعوا إلى مصر مع جنود مصريين آخرين مقابل إفراج مصر عن أربعة جنود إسرائيليين كانت قد أسرتهم في نفس الحرب.

٥. في ١٧/٣/١٩٦١م، سيطر جنود من لواء جولاني على مواقع سورية شمال كيبوتس (عين جيف)، وقد أسر السوريون جنديين إسرائيليين خلال الهجوم وأرجعوا لاحقاً.

٦. في ٢١/١٢/١٩٦٣ جرت عملية تبادل بين إسرائيل وسوريا، وتم بموجبها إطلاق سراح (١١) جندياً ومدنياً إسرائيلياً مقابل (١٥) أسير سوري.

٧. في حرب حزيران (يونيو) عام ١٩٦٧، سقط بأيدي القوّات العربية (١٥) جندياً إسرائيلياً، منهم (١١) بأيدي المصريين بينهم ستة من أعضاء كوماندوس بحري أسروا خلال هجومهم على ميناء الإسكندرية، وهناك طياران والبقية أعضاء في شبكة تجسس، وواحد بأيدي السوريين، واثنان بأيدي العراقيين، وواحد في أيدي اللبنانيين، بينما سقط في يد (إسرائيل) ٤٣٣٨ جندياً مصرياً بالإضافة إلى ٨٩٩ مدنياً و٥٣٣ جندياً أردنياً و٣٦٦ مدنياً، و٣٦٧ جندياً سورياً و٢٠٥

مدنيين سوريين. وقد بدأت عملية التبادل في: ١٥/٦/١٩٦٧، وانتهت بتاريخ ٢٣/١/٦٨، كما أُفرج خلال عملية التبادل عن طيارين إسرائيليين في العراق، وهما: (يتسحاق جولان، وجدعون درور)، اللذين وقعا في الأسر بعد أن قصفا مطار (H3) العسكري غرب العراق، وأفرجت إسرائيل مقابل ذلك عن ٤٢٨ أردنياً. ومع السوريين أفرجت (حكومة إسرائيل) عن ٥٧٢ سورياً مقابل طيار وجثث ثلاثة جنود إسرائيليين آخرين. ومن الجدير ذكره أن دمشق رفضت - ولحتى الآن - تسليم جثة الجاسوس الإسرائيلي الشهير (إيلي كوهين)، الذي أُعدم شنقاً في دمشق عام ١٩٦٨.

٨. في ٢/٤/١٩٦٨ جرت عملية تبادل مع الأردن، حيث أفرجت إسرائيل عن (١٢) أسيراً، بينما سلّمت الأردن لإسرائيل جثة جندي كان قد قتل في معركة الكرامة، بينما لا زال جنديان آخران مفقودين حتى الآن، وتابوتين يحتويان على تراب.

٩. في تاريخ ٢٣/٧/١٩٦٨ جرت أول عملية تبادل بين منظمة التحرير الفلسطينية وحكومة الاحتلال، وذلك بعد نجاح مقاتلين فلسطينيين من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين إحدى فصائل منظمة التحرير بقيادة الرفيق المناضل يوسف الرّضيع والرفيقة ليلى خالد باختطاف طائرة إسرائيلية تابعة لشركة العال، والتي كانت متجهة من روما إلى تل أبيب، وأجبرت على التوجه إلى الجزائر وبداخلها أكثر من مائة راكب، وكانت أول طائرة اسرائيلية تختطف، محدثة بذلك نقلة نوعية جديدة في أساليب النضال الفلسطيني، وتم إبرام الصفقة مع دولة الاحتلال من خلال الصليب الأحمر الدولي، وأفرج عن الركاب مقابل (٣٧) أسيراً فلسطينياً من ذوي الأحكام العالية من ضمنهم أسرى فلسطينيين كانوا

قد أُسروا قبل العام ١٩٦٧م، ومنهم الأسير (سكرار سكران) الذي كان معتقلاً منذ العام ١٩٦٤م .

١٠. في نهاية ١٩٦٩ خطفت مجموعة من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بقيادة ليلي خالد طائرة العال الإسرائيلية، وكان مطالب الخاطفين الإفراج عن الأسرى في سجون الاحتلال الإسرائيلي، وحطّت الطائرة في بريطانيا، واستشهد الرفيق (باتريك أورغويللو) بينما تمّ اعتقال ليلي خالد، وبعدها تمّ اختطاف طائرة بريطانية من قبل مجموعة تتبع لنفس التنظيم، وأجريت عملية تبادل أطلق بموجبها سراح المناضلة ليلي خالد.

١١. في بداية عام ١٩٧٠ وقع بأيدي المصريين (١٢) جندياً إسرائيلياً، ووقع ثلاثة آخرون بأيدي السوريين، وفي ١٦/٨/١٩٧٠ أرجعت مصر لإسرائيل طياراً مصاباً، وفي ٢٩/٣/١٩٧١ أفرجت مصر عن جندي آخر مقابل الإفراج عن عددٍ محدودٍ جداً من الجنود والمدنيين المصريين.

١٢. بتاريخ ٢٨ يناير ١٩٧١ جرت عملية تبادل أسيرٍ مقابل أسيرٍ ما بين حكومة الاحتلال الإسرائيلي وحركة فتح إحدى فصائل منظمة التحرير الفلسطينية، وأطلق بموجبها سراح الأسير محمود بكر حجازي مقابل إطلاق سراح الجندي الإسرائيلي شموئيل فايز والذي اختطفته حركة فتح في أواخر العام ١٩٦٩م. ومن الجدير ذكره أنّ حجازي يعتبر أول أسير فلسطيني في الثورة الفلسطينية المعاصرة التي انطلقت في الأول من يناير عام ١٩٦٥م، وقد اعتقل بتاريخ ١٨/١/١٩٦٥، وكان أول من وُجّه إليه تهمة الانتماء لحركة فتح، كما وحكم عليه آنذاك بالإعدام، ولكنّ الحكم لم ينفذ، وأجريت عملية التبادل في رأس الناقورة برعاية الصليب الأحمر، وتوجّه بعدها حجازي

إلى لبنان وعاد إلى غزة مع القوات الفلسطينية بعد اتفاق أوسلو عام ١٩٩٤.

١٣. وفي أوائل آذار عام ١٩٧٣م جرت عملية تبادل مع سوريا، حيث أفرجت (إسرائيل) عن خمسة ضباط سوريين كانت قد اختطفتهم من جنوب لبنان خلال مهمة استطلاع عسكرية، إضافة إلى المناضل المرحوم عضو مجلس الشعب السوري سابقاً، السيد كمال كنج أبو صالح، مقابل إطلاق سراح أربعة طيارين إسرائيليين كانوا بحوزة السوريين.

١٤. في ٣/٦/١٩٧٣ أفرجت سوريا عن ثلاثة طيارين إسرائيليين، وهم: (جدعون ماجين، بنحاس نحمان، وبوعاز إيتان) بعد أن احتجزوا لمدة ثلاث سنوات في الأسر، وأفرجت (إسرائيل) مقابلهم عن (٤٦) أسيراً سورياً.

١٥. وفي حرب عام ١٩٧٣م، وقع بأيدي المصريين (٢٤٢) جندياً إسرائيلياً، ومع سوريا (٦٨) جندياً، من بينهم ثلاثة أُسروا خلال فترة وقف إطلاق النار، ومع لبنان ٤ جنود، بينما وقع في أيدي إسرائيل (٨٣٧٢) جندياً ومواطناً مصرياً منهم (٩٩) خلال وقف إطلاق النار، بل أغلبهم السّاحق هم مواطنون مصريون أسرهم إسرائيل عندما دخلت لشرقيّ القناة؛ حيث احتلت بعض القرى وحملت رجالها وشبابها أسرى من بيوتهم. و (٣٩٢) سورياً، و(٦) من المغرب، و (١٣) عراقياً، وقد تمت الصفقة مع مصر بين ١٥/١١/١٩٧٣ و ٢٢/١١ من نفس العام؛ حيث أطلقت مصر سراح (٢٤٢) جندياً وضابطاً إسرائيلياً، مقابل أن أطلقت إسرائيل سراح ما تحتجز لديها من جنود وضباط مصريين.

١٦. ومع سوريا تمت صفقة التبادل من ١٩٧٤/٦/١ وحتى ١٩٧٤/٦/٦، وفي هذه الصفقة أفرجت إسرائيل عن (٣٩٢) سورياً وستة مغاربة وعشرة عراقيين مقابل إطلاق سراح سوريا لـ (٥٨) أسيراً إسرائيلياً.

١٧. وفي آذار ١٩٧٤ أفرجت إسرائيل عن (٦٥) أسيراً مصرياً وفلسطينياً مقابل إطلاق سراح جاسوسين إسرائيليين في مصر.

١٨. وفي ١٩٧٥/٤/٤ أرجعت مصر لإسرائيل جثث ورفات (٣٩) جندياً، وأفرجت (إسرائيل) بالمقابل عن (٩٢) أسيراً من سجونها.

١٩. بتاريخ: ١٩٧٩/٣/١٤ جرت عملية تبادل اللّيطاني، أو كما سُمّيت (عملية النّورس) بين (إسرائيل) ومنظمة التحرير الفلسطينية، حيث أطلقت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين - القيادة العامة وهي إحدى فصائل منظمة التحرير الفلسطينية سراح جنديّ إسرائيليّ كانت قد أسرته في عملية اللّيطاني بتاريخ: ١٩٧٨/٤/٥ حينما تمّ مهاجمة شاحنة إسرائيلية في كمين قرب صور، وهو ليس بعيداً عن مخيم الرشيدية، فقتل آنذاك أربعة جنود إسرائيليين وأسر واحد من قوّات الاحتياط هو (أبراهام عمّام)، وأفرجت إسرائيل بالمقابل عن (٧٦) معتقلاً من كافّة فصائل الثورة الفلسطينية، وكانوا في سجونها، من ضمنهم (١٢) فتاة فلسطينية، منهنّ كانت المناضلة الشهيرة (عفيفة حنا بنورة) من بيت ساحور التي توفيت قبل سنوات.

٢٠. في ١٣ فبراير ١٩٨٠ أطلقت حكومة الاحتلال الإسرائيلي سراح المعتقل مهدي بسيسو (أبو علي) ووليام نصّار، مقابل إطلاق سراح المواطنة الأردنية (أمينة داوود المفتي) التي عملت جاسوسة لصالح الموساد الإسرائيلي، وكانت محتجزة لدى حركة التحرير الوطني

الفلسطيني - فتح، وتمت عملية التبادل في قبرص وبإشراف اللجنة الدولية للصليب الأحمر، وهي بالمناسبة من مواليد ١٩٣٩م وتنتمي لأسرة شركسية مسلمة؛ لكنها تهودت وتزوجت طياراً يهودياً في النمسا ورحلت معه إلى إسرائيل، وتعتبر أشهر جاسوسة عربية عملت لصالح الموساد.

٢١. في ٢٣ نوفمبر ١٩٨٣م وقعت عملية تبادل جديدة ما بين حكومة الاحتلال الإسرائيلي وحركة التحرير الوطني الفلسطيني - فتح إحدى فصائل منظمة التحرير الفلسطينية؛ حيث أطلقت إسرائيل سراح جميع معتقلي معتقل أنصار في الجنوب اللبناني، وعددهم: (٤٧٠٠) معتقل فلسطيني ولبناني، و (٦٥) أسيراً من السجون الإسرائيلية مقابل إطلاق سراح ستة جنود إسرائيليين من قوات (النّاحال) الخاصة أسروا في منطقة بحدود في لبنان من قبل منظمة التحرير الفلسطينية (حركة فتح) بتاريخ: ٤/٩/١٩٨٢، وهم: (إلياهو أفوتفول، داني جلبوع، رافي حزان، روبين كوهين، أبراهام مونتبليسيكي، وآفي كورنفلد)، فيما أسرت الجبهة الشعبية القيادة العامة جنديين آخرين.

٢٢. وفي ٢٦/٦/١٩٨٤م أعادت (إسرائيل) ثلاثة جنود من جنودها، هم: (جيل فوجيل، أرئيل ليبرمان، ويوناثان شلوم) وخمس جثث لجنود آخرين كانوا قد أسروا من قبل سوريا، مقابل الإفراج عن (٢٩١) جندياً سورياً، و (٨٥) معتقلاً لبنانياً من المقاومة الوطنية اللبنانية، و (١٣) معتقلاً عربياً سورياً من الجولان السوري المحتل كانوا معتقلين منذ العام ١٩٧٣ (بشرط بقائهم في الجولان المحتل)، ورفات (٧٤) جندياً آخر.

٢٣. في ٢٠/٥/١٩٨٥م أجرت (إسرائيل) عملية تبادل مع الجبهة الشعبية

لتحرير فلسطين - القيادة العامة، وهي إحدى فصائل منظّمة التحرير الفلسطينية، والتي سُمّيت بعملية الجليل، وأطلقت إسرائيل بموجبها سراح (١١٥٥) أسيراً كانوا محتجزين في سجونها المختلفة، منهم (٨٨٣) أسيراً كانوا محتجزين في السجون المقامة على الأراضي الفلسطينية المحتلة، و (١١٨) أسيراً كانوا قد خُطفوا من معتقل أنصار في الجنوب اللبناني أثناء تبادل العام ١٩٨٣ مع حركة فتح، و (١٥٤) معتقلاً كانوا قد نُقلوا من معتقل أنصار إلى معتقل عتليت أثناء الانسحاب الإسرائيلي من جنوب لبنان مقابل ثلاثة جنود كانوا بقبضة الجبهة الشعبية، وهم: الرّقيب أوّل (حازي يشاي)، وهو يهوديّ من أصلٍ عراقيّ وقد أسر خلال معركة السلطان يعقوب في ١١/٦/١٩٨٢ حينما كان يقود إحدى الدّبابات ضمن رتل من الدّبابات الإسرائيلية، فضلّت دبّابته طريقها، فأطلقت عليها مجموعة من الجبهة الشعبية - القيادة العامة قذائف (آر بي جي) ممّا أدّى لإصابتها، وبعدها شاهدوا جندياً يفرّ من داخلها فتمكّنوا من أسره ونقله لمكان آخر، والجنديان الآخران هما: (يوسف عزون ونسيم شاليم)، أحدهما من أصل هنغاري، والآخر يهوديّ من أصل مصري، وقد أُسرا في بحدون بلبنان بتاريخ: ١٩٨٢/٩/٤، مع ستّة جنود آخرين كانوا بحوزة حركة فتح وأطلق سراحهم ضمن عملية تبادل للأسرى عام ١٩٨٣، حيث إنّ مجموعةً مشتركةً من حركة فتح ومن الجبهة الشعبية تمكّنت من أسر ثمانية جنود إسرائيليين. وتعتبر عملية التّبادل هذه أعظم عملية تبادل شهدتها الصّراع العربي الإسرائيلي وأكثرها زخماً منذ بداية التّبادل إلى حينها، حيث تمتّ وفقاً للشروط الفلسطينية.

٢٤. بتاريخ: ١١/٩/١٩٨٥م أفرجت (إسرائيل) عن (١١٩) لبنانياً معتقلين في سجن عتليت، ليرتفع بذلك عدد المعتقلين اللُّبنانيين المفرج عنهم منذ: ٤/٦/١٩٨٥م إلى (١١٣٢)، وذلك مقابل إطلاق سراح (٣٩) رهينة أمريكية كانوا محتجزين على متن طائرة بوينغ أمريكية تابعة لشركة (تى دبليو إي) في يونيو من العام ذاته، احتجزتهم منظمة أُطلقت على نفسها الجهاد الإسلامي، كما أفرجت ميليشيا جيش لبنان الجنوبي (المتعاملة مع إسرائيل) عن (٥١) معتقلاً لبنانياً من سجن الخيام، وقامت (إسرائيل) أيضاً بتسليم رفات تسعة مقاتلين من حزب الله.
٢٥. كان العام ١٩٩١ قد شهد عمليتي تبادل بين حزب الله وإسرائيل، الأولى تمّت في ٢١ يناير ١٩٩١، وأفرجت إسرائيل بموجبها عن (٢٥) معتقلاً من معتقل الخيام بينهم امرأتان، والثانية بتاريخ ٢١ سبتمبر ١٩٩١، وأفرجت إسرائيل عن (٥١) معتقلاً من معتقل الخيام مقابل استعادتها لجثة جنديّ إسرائيليّ كانت محتجزة لدى حزب الله.
٢٦. وبتاريخ: ١٣/٩/١٩٩١ استلمت إسرائيل جثة الجندي الدّرزي سمير أسعد من بيت جنّ، والذي كانت تحتجزها الجبهة الديمقراطيّة لتحرير فلسطين إحدى فصائل منظمة التحرير الفلسطينية منذ العام ١٩٨٣، في مقابل سماح إسرائيل على عودة أحد مبعدي الجبهة، وهو النّقابي علي عبد الله أبو هلال من أبوديس، والذي أبعدته إسرائيل في العام ١٩٨٦.
٢٧. وفي تاريخ: ٢١/١٠/١٩٩١م أفرجت حركة الجهاد الإسلامي عن أستاذ الرياضيات في الجامعة الأمريكية في بيروت (جيسى تيرتر)، في مقابل إطلاق إسرائيل سراح (١٥) معتقلاً لبنانياً بينهم (١٤) من سجن الخيام.

٢٨. وفي ٢١/٧/١٩٩٦ م ، أُرِجِعَت لإسرائيل رفات الجنديين: (يوسف بينيك، ورحاميم الشيخ)، وأُفِرِجَت إسرائيل في المقابل عن رفات (١٣٢) لبنانياً استشهدوا في اشتباكات مع القوّات الإسرائيلية إلى السّلاطات اللبنانية، كما أطلق حزب الله سراح (١٧) جندياً من جيش لبنان الجنوبي، وأطلق الأخير سراح ٤٥ معتقلاً من مجاهدي حزب الله من معتقل الخيام، وقد تمّت العملية بوساطة ألمانية.
٢٩. في العام ١٩٩٧ جرت اتّفاقية تبادل ما بين حكومة الاحتلال الإسرائيلي وما بين الحكومة الأردنية، وأُطلقت بموجبها الحكومة الأردنية سراح عملاء الموساد الإسرائيلي الذين اعتقلتهم قوّات الأمن الأردنية بعد محاولتهم الفاشلة في اغتيال خالد مشعل رئيس المكتب السّياسي لحركة حماس، فيما أُطلقت حكومة الاحتلال سراح الشيخ أحمد ياسين مؤسّس حركة حماس، والذي كان معتقلاً في سجونها منذ العام ١٩٨٩، وكان يقضي حكماً بالسجن مدى الحياة.
٣٠. في ٢٦/٦/١٩٩٨ م قامت السّلاطات الإسرائيلية بإعادة (٤٠) جثّة لشهداء لبنانيين، وإطلاق سراح (٦٠) معتقلاً لبنانياً، منهم عشرة معتقلين كانوا محتجزين في السّجون الإسرائيلية في فلسطين المحتلة، و(٥٠) آخرين من سجن الخيام، وقد تمّ إخراج جثث (٣٨) شهيداً من المقابر، وجثتين من مشرحة أبو كبير، إحداهما جثّة الشّهيد هادي نصر الله نجل الأمين العام لحزب الله سماحة السيّد حسن نصر الله، وبالمقابل سلّم حزب الله رفات الرقيب (إيتامار إيليا) من وحدة الكوماندوز في سلاح البحرية في القسم العسكري في مطار اللد، والذي قتل معه (١١) ضابطاً وجندياً إسرائيلياً آخرين من الكوماندوز البحري خلال مهمّة خاصّة في لبنان، كان حزب الله قد اكتشفها قبل قيامها بمهمّتها.

٣١. في العام ٢٠٠٣ أفرجت (إسرائيل) عن رفات عنصرين من حزب الله هما: (عمار حسين حمود، وغسان زعتر)، مقابل السماح للوسيط الألماني بزيارة (العقيد الحنان تانينباوم) المحتجز لدى حزب الله اللبناني.

٣٢. في ٢٩ يناير ٢٠٠٤ صفقة تبادل جديدة ما بين حزب الله وحكومة الاحتلال الإسرائيلي عبر الوسيط الألماني، أفرجت (إسرائيل) بموجبها عن (٤٦٢)، من بينهم (٢٤) أسيراً لبنانياً، كان أشهرهم القيادي في (حزب الله) الشيخ عبد الكريم عبيد الذي اختطفه الإسرائيليون من لبنان في العام ١٩٨٩، ومصطفى الديراني الذي اختطفه الإسرائيليون في العام ١٩٩٤، و(٦) أسرى عرب، ولم يكن من ضمنهم أيّ أسير مصريّ أو أردنيّ أو من الجولان السورية المحتلة، كما أفرج خلالها عن المواطن الألماني (ستيفان مارك)، الذي اتهمته إسرائيل بالانتماء لحزب الله، وأنه كان ينوي القيام بعملية ضدّ إسرائيل، كما أعادت جثث تسعة وخمسين شهيداً لبنانياً، والكشف عن مصير أربعة وعشرين مفقوداً لبنانياً وتسليم خرائط الألغام في جنوب لبنان وغرب البقاع. كما أفرج بموجبها عن (٤٣١) فلسطينياً من الضّفة الغربية وقطاع غزّة، لم تتضمّن أيّ من أسرى المناطق التي أحتلت عام ١٩٤٨، أو من أسرى القدس، وجميع من أفرج عنهم (باستثناء عشرين منهم) كانوا قد اعتقلوا خلال انتفاضة الأقصى، كما أن القائمة تتضمّن (٦٠) معتقلاً إدارياً والباقيون شارفت محكومياتهم على الإنهاء. وبالمقابل أفرج حزب الله عن قائد في الجيش الإسرائيلي، هو: (إحسان تانينباوم) ورفات ثلاثة جنود إسرائيليين، هم: (آدي أفيتام، وبيني أفراهام، والدرزي عمر سويد) كانوا قد قتلوا في أكتوبر/ تشرين أول عام ٢٠٠٠م. ومن الجدير ذكره أنّ (إسرائيل) رفضت أن تتضمّن هذه الصفقة إطلاق

سراح الأسير اللبناني سمير القنطار المعتقل منذ ٢٢ إبريل / نيسان عام ١٩٧٩م، وربطت ذلك بمعرفة مصير الطيار الإسرائيلي رون آراد الذي أسقطت طائرته عام ١٩٨٦م. وعموماً قد اعتبرت هذه العملية نصراً ثانياً لحزب الله ولبنان على العدو الإسرائيلي بعد انتصار عام ٢٠٠٠ الذي اندحرت فيه قوَّات الاحتلال الإسرائيلي عن جنوب لبنان، وانهمت شرَّ انهمام.

٣٣. بتاريخ: ٢٠٠٤/١٢/٥م أفرجت الحكومة المصرية عن الجاسوس الإسرائيلي (عزام عزام)، وبالمقابل أفرجت الحكومة الإسرائيلية عن (٦) طلاب مصريين كانوا معتقلين لديها، ووفقاً لهذه التفاهات أيضاً أطلقت إسرائيل بتاريخ: ٢٠٠٤/١٢/٢٨ سراح (١٦٥) معتقلاً فلسطينياً كانوا قد اعتقلوا خلال انتفاضة الأقصى (باستثناء معتقل واحد كان قد اعتقل في العام ١٩٩٩)، منهم: (٥٢) معتقلاً كانوا معتقلين بسبب دخولهم إسرائيل بدون تصريح عمل، والباقيون من ذوي الأحكام الخفيفة، ومُنَّ شارف محكومياتهم على الانتهاء.

٣٤. بتاريخ: ٢٠٠٧/١٠/١٥م عملية تبادل محدودة جرت ما بين حزب الله، وحكومة الاحتلال الإسرائيلي؛ حيث استعادت بموجبها (إسرائيل) جثة أحد مواطنيها، وتقول إنه مدنيٌّ من اليهود الفلاشا وصياد جرفته مياه البحر إلى الشواطئ اللبنانية ووصل لأيدي حزب الله، فيما استعاد حزب الله جثتي مجاهدين من حزب الله هما: محمد يوسف عسيلي (ذو الفقار) ومحمد دمشقية، اللذان استشهدا خلال حرب تموز من العام الماضي، وأفرجت سطات الاحتلال الإسرائيلي عن المواطن حسن عقيل الذي اعتقلته القوَّات الاسرائيلية خلال حرب تموز.

٣٥. في الثامن من يونيو ٢٠٠٨ (إسرائيل) تطلق سراح الأسير نسيم نسر، وتعيده إلى لبنان بعد أن أمضى في السّجن ستّ سنوات، اتّهم فيها بالتّجسس لصالح حزب الله، وبالمقابل (حزب الله اللّبناني) أعاد لإسرائيل أشلاء لجثثٍ تعود لأربعة جنود إسرائيليين قتلوا خلال حرب تموز عام ٢٠٠٦م، وكانت تلك أشلاء داخل أكياس صغيرة وُضعت في النعش الذي نقل إلى إسرائيل. وقدر آنذاك بأنّ هذه العملية هي مقدّمة تمهيدية لصفقة تبادل كبرى بين حزب الله وإسرائيل، يتمّ بموجبها إعادة الجنديين الإسرائيليين الأسيرين لدى حزب الله، والإفراج عن الأسير سمير قنطار وأسرى لبنانيين آخرين.

٣٦. في السابع عشر من شهر تموز من العام الجاري توجت عمليات التّبادل بأكبر عمليّة عرفها تاريخ التّبادل بين قوّات الاحتلال والفصائل المقاومة، لا من ناحية عدد الأسرى المفرج عنهم، وإنّما من ناحية ما حقّقه هذه العمليّة من انتصار كبير لحزب الله؛ حيث جاءت نتيجةً لعدوان تموز ٢٠٠٦، التي هُزمت فيه إسرائيل هزيمة لم يشهد لها التاريخ مثيلاً، يُضاف إلى ذلك ما حقّقه حزب الله من البعد المعنوي الّذي تغلغل في قلوب اللّبنانيين والشّعوب العربيّة والإسلاميّة، في وقت كانت تشهد فيه السّاحة اللّبنانية نزاعاً حاداً بين نهج المقاومة ونهج (الديمقراطيّة الأمريكيّة). وفي هذه العمليّة النّوعيّة أفرج حزب الله عن جثّتي الجنديين الإسرائيليين اللّذين تمّ أسرهما في عمليّة الوعد الصّادق عام ٢٠٠٦، والتي أدّت إلى حربٍ ضروسٍ بين الكيان الغاصب وحزب الله اللّبناني، مع إعطاء تقريرٍ حول مصير الطّيار الإسرائيلي (جون أَراد)، وفي المقابل أفرجت إسرائيل عن خمسة مجاهدين لبنانيين، أربعة منهم أُسروا في حرب تموز، والخامس هو عميد الأسرى العرب:

سمير القنطار، مع أشلاء (١٩٨) شهيداً من جنسيّات عربيّة مختلفة، على رأسهم شهداء حرب تموز اللّبنانيين، ومجموعة الشهيدة دلال المغربي. وبهذه الصّفقة يكون لبنان أوّل دولة عربيّة قد طوى ملفّ أسراه مع إسرائيل. وممّا تضمّنته هذه الصّفقة تقريراً حول الألغام والقنابل العنقودية المزروعة في لبنان، كما تمّ الاتفاق على أن يفرج الكيان الغاصب عن عدد من المعتقلين الفلسطينيين في الأسابيع القادمة، لم يعلن عن أعدادهم وأسمائهم. وممّا يدلّ على حسن التدبير في قيادة حزب الله أنّه أطلق على هذه العمليّة اسم «عمليّة الرّضوان»؛ في إشارة إلى أنّ قائد الانتصارين الشّهيد الكبير الحاج عماد مغنّيّة (الحاج رضوان) هو - أيضاً - له سهمٌ في إنجاز هذا الانتصار الثّالث، والذي لا يقلّ في أبعاده ومضامينه واستراتيجيته المستقبلية عن الانتصارين السّابقين.

عمليات تبادل محتملة

فيما تحتجز الفصائل الفلسطينية بقطاع غزّة (حركة حماس وألوية النّاصر صلاح الدين وجيش الإسلام) الجندي الإسرائيلي (جلعاد شاليط) منذ ٢٥ يونيو/ حزيران ٢٠٠٦، وآسري الجندي أكّدوا مراراً أنّهم لن يطلقوا سراحه إلّا بتبادل الأسرى.

ونأمل أن يؤدّي ذلك إلى وضع حدٍّ لمعاناة قرابة عشرة آلاف معتقل فلسطيني وعربي، لا سيما القدامى منهم.

* * *

صفحة تبادل الأسرى مع حزب الله

معانٍ ودلالات

□ الأستاذ: عبد الناصر فروانة (*)

تاريخ الصراع العربي - الإسرائيلي حافل بالعديد من عمليات تبادل الأسرى، ما بين عدّة حكوماتٍ عربيّة، وحزب الله، وفصائل منظّمة التحرير الفلسطينية من جهة، وحكومة الاحتلال من جهةٍ أخرى، حيث بدأتها عربياً دولة مصر الشّقيقة في فبراير عام ١٩٤٩م، وفلسطيناً بدأتها منظّمة الجبهة الشّعبية لتحرير فلسطين في يوليو ١٩٦٨م، وتلتها حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) عدّة مرات، والجبهة الشّعبية القيادة العامة. فيما وصل مجموع تلك العمليات عربياً وفلسطينياً إلى خمسة وثلاثين عملية تبادل وفقاً لما تمكّنا من توثيقه في دراسةٍ سابقة، وتمّ بموجبها إطلاق سراح آلاف المعتقلين الفلسطينيين والعرب من السّجون الإسرائيلية، واستعادة المئات من رفات الشّهداء المحتجزة لدى سلطات الاحتلال، فيما تعرف بمقابر الأرقام.

(*) أسير سابق، وباحث مختصّ بقضايا الأسرى، ومدير دائرة الإحصاء بوزارة الأسرى والمحررين/ فلسطين.

وفي الآونة الأخيرة كثر الحديث عن عملية تبادل ما بين حزب الله وحكومة الاحتلال الإسرائيلي من خلال الوسيط الألماني، ومن الممكن أن تنفذ منتصف الشهر الجاري، وطالعتنا وسائل الإعلام المختلفة على تفاصيل تلك الصفقة، وحسب معلوماتنا فإنَّ أبرز ما تضمَّنته: إطلاق سراح عميد الأسرى العرب عموماً الأسير اللُّبْناني سمير القنطار المعتقل منذ قرابة ثلاثين عاماً، وأربعة أسرى لبنانيين آخرين كانوا قد اعتقلوا في حرب تموز ٢٠٠٦م، وإعادة العشرات من رفات الشهداء، وفي مرحلة لاحقة إطلاق سراح العشرات أو ربما المئات من المعتقلين الفلسطينيين، وبالمقابل تستعيد (إسرائيل) الجنديين الإسرائيليين: (إيهود غولدفايسر، وإلداد ريجيف) ، أحياءً كانا أم أمواتاً، المأسورين لدى منظّمة حزب الله منذ الثاني عشر من تموز عام ٢٠٠٦م، مع أملنا بأن تحمل الأيام القادمة أخباراً أكثر سروراً من تلك التي تناقلتها وسائل الإعلام.

ووفقاً لمجريات الأحداث منذ عملية (الوعد الصادق)، وأسر الجنديين الإسرائيليين وما تبعها من تصريحات من كلا الطّرفين المتصارعين، وما تلاها من حرب تموز الإسرائيلية على لبنان، وإلى يومنا هذا والاتفاق على إتمام صفقة التبادل، يمكن لنا أن نستخلص ونستنتج بعض المعاني والدلالات أهمها:

أولاً: إنّ حكومة الاحتلال الإسرائيلي وبعد عامين من عملية (الوعد الصادق)، تقرُّ هزيمتها وهزيمة قادتها رسمياً، بمن فيهم رئيس وزرائها (إيهود أولمرت) ووزير الحرب (إيهود براك)، وهزيمة مؤسستها الأمنية، تقرر بفشلها الذريع في استعادة جندييها تحت الضُّغط والضُّربات العسكرية، وبمصادقتها على صفقة التّبادل مع حزب الله، فإنّها بذلك تصادق رسمياً على انتصارٍ جديدٍ لمنظّمة حزب الله، وللمقاومة الباسلة يضاف إلى انتصارها في تموز، مصادقة تأخرت عامين بالتّمام والكمال.

ثانياً: عملية التبادل هذه، هي ترجمة حقيقية للوعد الصادق الذي أطلقه سماحة السيّد حسن نصر الله بتحرير أسراه، وأنّ قادة (إسرائيل) وقوّاتهم العسكرية لم تُخف السيّد حسن نصر الله ولم تردعه من ترجمة وعده، كما وأنها تعكس - أيضاً - مصداقيته التي لا شك فيها لبرهه، حينما شدّد بعد أسر الجنديين الإسرائيليين قائلاً: «الأسيران لن يعودوا إلا بالتفاوض غير المباشر وتبادل الأسرى».

ثالثاً: إطلاق سراح الأسير اللبناني (سمير القنطار) ضمن صفقة التبادل، والذي رفضت سلطات الاحتلال مراراً إدراج اسمه في صفقات تبادل سابقة، يعني انتصاراً للقنطار وإرادته الفولاذية وصموده الأسطوري وثباته على أهدافه ومبادئه رغم سني الأسر الطويلة وقسوة السجن والسّجان..

يعني انتصاراً لأسرته الرائعة ووالدته المثالية..

فسمير مفخرة فلسطينية ونموذج يحتذى به، القنطار مفخرة للحركة الوطنية الأسيرة، نزداد به شموخاً واعتزازاً، وننتظر على أحرّ من الجمر عودته إلى بيته في قرية عبية بالجنوب اللبناني، وستدرف العيون الفلسطينية جمعاء دموع الفرح والسعادة والانتصار وهم يشاهدون عبر شاشات التلفاز مشاهد عناقه لوالدته ولأفراد أسرته وأصدقائه وأحبّته بعد قرابة ثلاثين عاماً من الأسر حُرّم خلالها من رؤيتهم وحرّموا هم من زيارته.

رابعاً: شمول الصفقة على إخلاء (مقابر الأرقام) أو جزء منها أو إعادة عشرات من رفات الشّهداء العرب والفلسطينيين، إنّما يعكس إصراراً كبيراً من قبل منظّمة حزب الله على الاستمرار في السير على نهج سابق يتمثّل بضرورة استعادة جثامين الشّهداء وإكرامهم، من خلال إعادة دفنهم وفقاً للشريعة الدّينية والإسلامية، في أماكن مؤهّلة لذلك، وأعدّت خصيصاً لهذا الغرض وفقاً لمعايير انسانية ودينية، وبهذا الصّدّد يمكن لنا التأكيد على أنّ (حزب الله)

سبق وأن استعاد مئات الجثامين ضمن صفقات تبادل سابقة، ولكن يبقى حلمنا قائماً باستعادة كافة رفات الشهداء وإخلاء وتدمير كافة مقابر الأرقام، حيث لا تزال (إسرائيل) تحتجز المئات من جثامين الشهداء في أربعة مقابر للأرقام كُشف عنها في السنوات الأخيرة، وفي هذا الصدد نعلن تقديرنا العالي لحزب الله لشمول الصفقة على رفات الشَّهيدة دلال المغربي ورفاقها الأربعة.

خامساً: إصرار (حزب الله) على إدراج أسرى فلسطينيين ضمن صفقة التبادل له معانٍ كثيرة بالنسبة لنا كفلسطينيين نقدِّرها، ونتمنَّاها، ونفخر بها، ورغم أنَّنا كُنَّا نأمل أن لا تحمل هذه القضية عنوان (بادرة حسن نية) وأن لا تترك قائمة الأسرى الفلسطينيين المنوي الإفراج عنهم بغضَّ النظر عن عددهم، رهينة بأيدي الجانب الإسرائيلي، وأن تحدّد أسماؤهم وفقاً لشروطه ومعاييرهِ وتصنيفاته المجحفة الظالمة المرفوضة فلسطينياً.

وكُنَّا نأمل ونتطلَّع ونتمنَّى بأن يكون بجانب القنطار أسماء بعينها من الأسرى القدامى يَمَن أمضوا أكثر من عشرين عاماً، أو يَمَن أمضوا أكثر من ربع قرن..

كُنَّا نأمل أن نجد بجانب اسم القنطار اسم سعيد العتبة من نابلس عميد الأسرى عموماً والمعتقل منذ قرابة واحد وثلاثين عاماً، والأسير المقدسي فؤاد الرازم عميد الأسرى المقدسين، والأسير سليم الكيال عميد أسرى قطاع غزة، وسامي يونس عميد أسرى (٤٨) وأكبر الأسرى سنّاً، فمنهم من دخل قسراً موسوعة (غيتيس) للأرقام القياسية. ويبقى ذلك أمنية لا اعتراضاً...

سادساً: كما أقرَّت حكومة الاحتلال بأن لا عودة للجنديين المأسورين لدى حزب الله إلا بالتبادل، فإنَّها ستضطرَّ عاجلاً أم آجلاً للإقرار بهزيمتها في غزّة وبأن لا عودة لجنديها (شاليط) المأسور لدى المقاومة الفلسطينية في قطاع غزة،

إلّا بالتّبادل أيضاً، لا سيما بعد فشلها الذريع في معرفة مكان احتجازه طوال
العامين المنصرمين وفشلها في استعادته بالقوّة، بما يمنحنا تفاؤلاً كبيراً بإنجاز
صفقة التبادل ما بين الفصائل الفلسطينية وحكومة الاحتلال في وقت قريب.
الأمر الذي يقودني ويدفعني لمناشدة أسريه بضرورة التمسك بالإفراج عن
قدامى الأسرى كشرطٍ أساسيٍّ لنجاح صفقة تبادل الأسرى.
في الختام لا يسعني إلّا أن أبرق أصدق تهاني الفخر والاعتزاز إلى (منظمة
حزب الله) وأمينها العام سماحة السيّد حسن نصر الله على هذا الانتصار
الرائع...

وأتمنى أن تنفذ صفقة التبادل اليوم قبل غدٍ..
فهنيئاً لنا ولكم وللمقاومة اللّبنانية وللحركة الأسيرة خاصّة، وللأُمّتين
العربية والإسلامية عامّة، هذا الانتصار الذي يُضاف إلى سلسلة انتصاراتنا
وانتصاراتكم السّابقة...

* * *

مقومات النظام الحقوقي

في الإسلام

□ الشيخ معين دقيق العاملي

مقدمة

الحمد لله الذي شرع دينه لما فيه خير عباده، وفرض أحكامه وأقام حقوقه لما فيه مصلحة بريته.

اشتملت الشريعة الإسلامية على فرائض وحقوق، قامت كُلُّ واحدةٍ منها على أسس ومرتكزاتٍ معيّنة، بتنقيحها واستيعابها يتمّ التعرف على ما يُصطلح عليه بالنظام الحقوقي في الإسلام.

والتعرُّض لمثل هذه الأبحاث متعدّد الفوائد؛ إذ من جهةٍ يوضح الحقوق الإسلامية للغير ومرتكزاتها التي تتقوم بها، بحيث يتعرّف الناس من خلال ذلك على اهتمام الشريعة الإسلامية بالحقوق قبل أن يسمع الناس بما يُسمّى بمنظّمات حقوق الإنسان بقرونٍ متتالية.

ومن جهةٍ أخرى فإنّه بعد تسليط الضوء على أهمّ مقومات النظام الحقوقي في الإسلام يُعرف الحال في الكثير من الشبهات التي أُثيرت من قبل الأعداء

حول جملة من الحقوق في الشريعة الإسلامية.

هذا، ومن خلال هذه الورقة المختصرة سوف أُشير إلى أهم المرتكزات الكُليّة التي يبتني عليها النظام الحقوقي في الإسلام، من دون أن يكون القصد إلى التفصيل والاستيعاب، بقدر ما تكون الورقة للإشارة والإثارة.

جولة لغوية واصطلاحية

قبل الكلام عن هذه المقومات والأسس والمرتكزات، لا بأس بالإشارة السريعة إلى المعنى اللغوي والاصطلاحي لكلمة «الحق».

فعن ابن فارس: «أنَّ الحاء والقاف أصل واحد، وهو يدلُّ على إحكام الشيء وصحته. فالحقُّ نقيض الباطل، ... ويُقال: حقَّ الشيء، وجب...»^(١).

ومن هذا الباب إطلاقه على واجب الوجود، وعلى الدين النازل من عند الله، وقد اجتمعا في قوله تعالى: ﴿يَوْمَذِيقُفِهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور ٢٥].

وأما اصطلاحاً، فقد ألّفت رسائل ومقالات في تعريف الحق، وبيان اختلافه عن الحكم والملك، لا نرى مناسبة لتفصيل القول في ذلك، وإنّما نوجز تعريفاً له، ثمَّ نبين فرق الحق عن الحكم التكليفي من وجوب وحرمة ونحوهما.

فالحق في الاصطلاح القانوني الشرعي - على ما عن السيّد محمد بحر العلوم رحمته الله عبارة عن: «سلطنة مجعول زمامها بيد ذي الحق، فله القدرة على الإعمال والإسقاط»^(٢).

فالمشتري لعين تبين بعد البيع أنّها كانت معيبة تثبت له سلطنة على فسخ هذه المعاملة أو إمضاها.

والمرأة الثابت لها حق النفقة لها الخيار والسلطة على أخذ المال المدفوع لها بعنوان النفقة، وعلى الإسقاط والإبراء..

وأما الحكم التَّكْلِيفِي، فقد عُرِّفَ في لسان جماعةٍ بأنَّه: «المَجْعُولُ الشَّرْعِي الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِفِعْلِ الْعِبَادِ أَوَّلًا وَبِالذَّاتِ وَبِلا واسطة»^(٣). وهي تنحصر بالخمسة المعروفة، أربعةٌ منها تقتضي البعث والزَّجر، وهي: الوجوب والحرمة والاستحباب والكراهة، وواحدةٌ منها تقتضي التَّخْيِير، وهي: الإباحة. وعلى هذا الأساس صحَّ تعريفه أيضاً بأنَّه: «الاعتبار الصَّادر من المولى من حيث الاقتضاء والتَّخْيِير»^(٤).

ومن هذا الاستعراض السَّريع يمكن القول بأنَّ الحقَّ والحكم يشتركان في كونهما من المَجْعُولَاتِ الشَّرْعِيَّةِ، غاية الأمر لما كان الحقُّ من المَجْعُولَاتِ الشَّرْعِيَّةِ التي تكون لصالح شخصٍ ما أو جهةٍ ما على حساب آخر، كان للمَجْعُولِ لصالحه إسقاط هذا الحقِّ والتنازل عنه. أمَّا الحكم الشَّرْعِي، فإنَّه وإن كان في جعله مصلحة نوعيَّة تعود إلى المكلفين، إلَّا أنَّها ليس لها صفة الاستحقاق بينهم؛ لكي يتنازل عنها أحدهم لصالح الآخر. وعلى الرَّغم من ذلك فهناك تفاعلٌ وترابطٌ بين الحكم والحقِّ، فكثيراً ما يقع أحدهما موضوعاً للآخر ومورداً له.

فسلطنة الإنسان على فسخ معاملة من معاملاته - كالمعاملة الغبنية - حقٌّ من الحقوق، يترتب عليه وجوب إرجاع الثَّمن إليه عند إعماله لهذا الحقِّ، وهذا الوجوب المترتب حكمٌ تكليفيٌّ.

وسلطنة المرأة على حضانة أولادها بعد الطَّلَاق إلى سنٍّ معيَّنة حقٌّ من الحقوق، يترتب عليه حرمة منعها من ذلك، وهذه الحرمة المترتبة حكمٌ تكليفيٌّ^(٥).

مقومات النظام الحقوقي في الإسلام

يمكن البحث عن هذه المقومات تارةً من جهةٍ جاعل الحقِّ، وأخرى من

جهة الحق المجعول نفسه، وثالثة من جهة من جعل الحق لصالحه، ورابعة من جهة من جعل الحق عليه.

واستيعاب ذلك بالبحث والتحقيق بحاجة إلى كتابة مفصلة، ولكن طبقاً للقاعدة العقلية القائلة: (إنَّ ما لا يدرك كُله لا يترك كُله)، والتي أُشير إلى مضمونها في بعض الأخبار، لا يسعنا إلا الإشارة إلى هذه الجهات بشكل مختصر بحسب ما يسمح له المقام.

مقومات الحق بلحاظ جاعله:

مما تتميز به المجعولات الشرعية بشكل عام، والحقوق بشكل خاص في الشريعة الإسلامية، وتختلف في ذلك عن التشريعات والحقوق في القوانين الوضعية والأنظمة البشرية أموراً، أهمها:

صدورها من منبع العلم المطلق غير المحدود بحدٍّ، ومن مصدر الحكمة في التدبير، ومن الغنى الذي لا يشوبه فقر.

فالعلم يقتضي التشريع لما هو الأصلح، والحكمة تقتضي أن يكون التشريع في محله المناسب، قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَاطَبُواهُمْ فَأَخْوَنُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمْ عَنْ اللَّهِ غَيْرُهُ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠]. وهذا ما يُفسر اقتران الكثير من آيات الأحكام في القرآن الكريم بالتذييل بالعلم والحكمة.

والغنى يقتضي نفي الحاجة منه إلى تشريع حقٍّ أو حكم يكون لصالحه دون صالح عباده، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

وهذه المقومات الثلاثة تُعطي للعبد طمأنينة عالية تفتقر إليها القوانين الوضعية والأنظمة البشرية؛ فإنَّ العبد إذا أدرك أنَّ هذا التشريع - تكليفاً كان أم

حقاً - قد صدر من العالم الحكيم الغني، بكُلِّ ما لمفاهيم هذه الكلمات من السَّعة والكمال، فإنَّه حينئذٍ يقدم على الامتثال والإطاعة من دون تردُّدٍ يرجع إلى نقصٍ من ناحية التشريع؛ ولذا تكون مخالفة مثل هذا العبد ملازمة لحالة تأنيب الضمير والوجدان والتَّدم، بخلاف ما لو كان العبد لا يوجد لديه مثل هذه العقيدة في المقنن والمشرع.

وكُلِّما ترسَّخت هذه العقيدة في الإنسان تجاه جاعل الحقوق فإنَّه تزداد عنده حالة التسليم والتَّصديق، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

ولا نعني من التسليم هو التَّقليد المذموم، بل التسليم النَّاشئ عن قناعة عقيدية؛ ولذا ارتبط الإيذان به في الآية الآنفة، وقد ورد في الخبر عن الإمام الباقر عليه السلام أنَّه قال: «أَحَقُّ مَنْ خَلَقَ اللَّهُ بِالتَّسْلِيمِ لِمَا قَضَى اللَّهُ مِنْ عَرَفَ اللَّهَ»^(٦)، فانظر - أيَّدك الله - كيف جعل التسليم من مقتضيات المعرفة بالله، فلا يكون تقليداً ناشئاً عن الجهل!

وروي عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادَ اللَّهِ! أَنْتُمْ كَالْمَرْضَى، وَرَبُّ الْعَالَمِينَ كَالطَّبِّيبِ، فَصَلِّحِ الْمَرْضَى فِيمَا يَعْلَمُهُ الطَّبِّيبُ، وَتَدْبِرْهُ بِهِ، لَا فِيمَا يَشْتَهِيهِ الْمَرْضَى وَيَقْتَرِحُهُ، أَلَا فَسَلِّمُوا اللَّهَ أَمْرَهُ تَكُونُوا مِنَ الْفَائِزِينَ»^(٧).

مقومات الحقِّ بلحاظ ذاته:

ويبتني ذلك على ركائز ثلاث:

الأولى: التَّكريم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]. فالحقُّ بشكلٍ خاص، والقوانين الإلهية بشكلٍ عام، أُريد من جعلها أن يكون فيها نوعٌ من التَّكريم للإنسان؛ إذ لو لم تكن الحقوق وسائر القوانين الإلهية مكرَّمة للإنسان لما

صَحَّ أَنْ يُقَالَ بِشَكْلِ مُطْلَقٍ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾.

الثانية: أَنَّهَا تَنْطَلِقُ مِنْ حُرِّيَّةِ الْإِنْسَانِ بِالنِّسْبَةِ لِنَظَرَاتِهِ فِي الْخَلْقِ، مَعَ عِبُودِيَّتِهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: «أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ آدَمَ لَمْ يَلِدْ عَبْدًا وَلَا أُمَّةً، وَإِنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ أَحْرَارٌ... إِنِّي نَظَرْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَلَمْ أَجِدْ لَوْلَدِ إِسْمَاعِيلَ عَلَى وَلَدِ إِسْحَاقَ فَضْلًا»^(٨). وَمِنْ هَذَا الْمُنْطَلَقِ كَانَ الْحَقُّ فِي الْقَانُونِ الْإِلَهِيِّ تَنْتَهِي دَائِرَتُهُ عِنْدَمَا يَتَصَادَمُ مَعَ حُرِّيَّةِ الْآخَرِ، فَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ كَوْنِ النَّاسِ مُسَلِّطُونَ عَلَى أَمْوَالِهِمْ، إِلَّا أَنَّ هَذِهِ السُّلْطَنَةَ لَا تَقْتَضِي بَوَاجِهٍ مِنَ الْوُجُوهِ الْقِيَامَ بِأَيِّ عَمَلٍ فِي هَذَا الْمَالِ إِذَا كَانَ يَقْتَضِي الْإِعْتِدَاءَ عَلَى حَقِّ الْآخَرِ وَحُرِّيَّتِهِ. وَالْأَمْثَلُ فِي هَذَا الْمَجَالِ فَوْقَ حَدِّ الْإِحْصَاءِ..

الثالثة: أَنَّ الْحَقُوقَ فِي الشَّرِيعَةِ تَبْتَنِي عَلَى قَانُونِ الْعَدَالَةِ لَا الْمَسَاوَاةِ؛ لِأَنَّ تَحْوِيلَ الْحَقُوقِ عَلَى وَفْقِ قَانُونِ الْمَسَاوَاةِ كَثِيرًا مَا يَكُنْ وَاقِعًا فِي حَيْزِ الْإِجْحَافِ وَالظُّلْمِ.

فَمَثَلُ الْحَقُوقِ الْمُرْتَبِطَةِ بِالْإِرْثِ وَالذِّیَّةِ وَالْحِصَانَةِ وَالطَّلَاقِ وَنَحْوِهَا لَوْ ارْتَكَزَتْ عَلَى الْمَسَاوَاةِ بَيْنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ أَوْ بَيْنَ سَائِرِ طَبَقَاتِ الْأَرْحَامِ لَكَانَتْ مَجَانِبَةً لِلْعَدَالَةِ.

وَلَا بَأْسَ بِتَوْضِيحِ ذَلِكَ بِمَثَالٍ، فَنَقُولُ:

إِنَّ مِنَ الْأُمُورِ الثَّابِتَةِ فِي الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ هِيَ إِنَّ دِيَّةَ الْمَرْأَةِ نِصْفُ دِيَّةِ الرَّجُلِ، وَهَذَا مَعْنَاهُ أَنَّ الرَّجُلَ الْمُعْتَدِي عَلَيْهِ لَهُ حَقٌّ فِي تَمَامِ الدِّیَّةِ، بَيْنَمَا حَقُّ الْمَرْأَةِ الْمُعْتَدِي عَلَيْهَا فِي نِصْفِ الدِّیَّةِ، وَهَذَا التَّفَاوُتُ فِي الْحَقِّينِ نَشَأُ مِنْ ابْتِنَاءِ نِظَامِ الْحَقُوقِ فِي الْإِسْلَامِ عَلَى رَكِيزَةِ الْعَدَالَةِ، وَلَوْ ابْتِنَتْ عَلَى رَكِيزَةِ الْمَسَاوَاةِ لَتَعَيَّنَ تَسَاوِي الرَّجُلِ مَعَ الْمَرْأَةِ فِي الدِّیَّةِ.

وَبَعْدَ الْإِلْتِفَاتِ إِلَى نَقْطَتَيْنِ يَتَّضِحُ لَنَا أَنَّ التَّفَاوُتَ بَيْنَهُمَا فِي مَسْأَلَةِ الدِّیَّةِ هُوَ مُقْتَضِي الْعَدَالَةِ:

النقطة الأولى: أنَّ الإسلام لا ينظر إلى الدية على أساس أنَّها عقوبة للجناية؛ كما يشهد لذلك ثبوتها في القتل العمد برضا أولياء المقتول، ففي صحيح عبد الله ابن سنان، قال: «سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام يَقُولُ: مَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا قِيدَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ يَرْضَى أَوْلِيَاءُ الْمَقْتُولِ أَنْ يَقْبَلُوا الدِّيَّةَ، فَإِنْ رَضُوا بِالدِّيَّةِ وَأَحَبَّ ذَلِكَ الْقَاتِلُ فَالدِّيَّةُ...»^(٩). كما يشهد لذلك - أيضاً - ثبوتها في ظرف الخطأ المحض بنفس المقدار الذي تثبت في العمد والشبيه به؛ والجناية الخطأية لا تجعل لها العقوبة والإدانة.

نعم، قد تكون العقوبة في الزائد على ذلك، كما هو الحال فيمن قتل في الأشهر الحرم على ما ورد في الأخبار^(١٠).

كما يشهد لعدم كونها عقوبة أنَّ العقوبات إنَّما تُشَرَّع عادةً لأجل الحد من انتشار موجبها، كما يمكن الاستئناس لذلك بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وقول العرب: «القتل أنفى للقتل»؛ وإنَّما كان في شرع القصاص حياة؛ «لأنَّ الناس إذا علموا أنَّ من قتل يقتل كفَّ بعضهم عن بعض. فإذا همَّ أحدٌ بقتل أخيه أو جس خيفةً من القصاص، فكفَّ عن القتل، فكان في ذلك حياةً له وحياةً لمن أراد قتله وحياةً لغيرهما من الناس، فربما وقعت الفتنة في القتل»^(١١). ودفع الدية للمجني عليه لن يحميه من جناية الخطأ مهما تعاظمت الدية؛ إذ أنَّ الضَّمان بل والعقوبات لا تحول دون وقوع الأخطاء^(١٢).

وإنَّما الظَّاهر أنَّ الدية من باب التعويض والاستدراك لبعض ما فات بسبب الجناية.

النقطة الثانية: أنَّ الإسلام ينظر إلى الأموال على أنَّها وسيلة من وسائل تنظيم شؤون المعاش، وطريق لتوفر ما يحتاجه الإنسان من مؤن وسكن ولباس وعلاج وغير ذلك ممَّا تقتضيه شؤون المعاش، فليس للمال قيمة في ذاته لولا ما

يترتب عليه من آثار، كما أنه ليس لتملكه خصوصية لو كان الإنسان قادراً على رفع احتياجاته المعيشية من دون تملك. وهذا لا ينافي انحراف الإنسان عن هذه الرؤية الإلهية للمال، فأضحى المال أكبر غاياته، ويصرف كل عمره في تكديسه وجمعه^(١٣).

إذا اتضح لك هاتان النقطتان تعرف ما رُمنا إليه من خلاهما، وحاصله: إن الدية إذا لم تكن عقوبة فلا إشكال يأتي من ناحية أن الشريعة اهتمت بحفظ أمن الرجل أكثر من حفظ أمن المرأة، بل هي تعويض اقتصادي على ما فوّته.

ومن جهة أخرى، إن الباحث - بجولة سريعة على القوانين الاقتصادية في الإسلام - يجد أن الرجل قد تحمّل مسؤوليات اقتصادية أكثر مما تحمّلتها المرأة. وهذا يقتضي بطبيعة الحال أن تكون حاجة المرأة إلى المال أقل بكثير من حاجة الرجل، ويكفي تدليلاً على ذلك وجوب النفقة عليه دونها، بحيث يكون رزقها مضموناً ومكفولاً من قبل غيرها ولو من دون تملك.

ومن هنا يتضح أن الجاني على الرجل يكون قد فوّت على المرأة التي يعولها زوجة كانت هذه المرأة أم أمّاً أم أختاً أم بنتاً، بينما الجاني على المرأة لا يكون قد فوّت على جميع هؤلاء.

وعليه، فإن تنصيف دية المرأة يكون من مقتضيات العدالة وإن لم يكن من مقتضيات المساواة.

أما من ناحية العقوبة والطرّد عن الرحمة الإلهية، فإن القاتل للرجل والمرأة على حدّ سواء عند الباري عزّ وجلّ، كيف وقد قال: ﴿مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: ٣٢]؛ وليس ذلك إلا لأن

المدار في الغضب الإلهي والبعد عن رحمته إنما هو في مقدار جرأة العبد وتصديده للإعتداء على حريم المولى، وهذا لا يُفَرِّق فيه بين كون ما تجلّت فيه جرأة العبد قتل رجلٍ أم قتل امرأة.

مقومات الحق بلحاظ مَنْ جُعل له الحق وعليه:

مِمَّا يميّز الشريعة الإسلامية عن غيرها من النظم الوضعية، أَنَّ حَقِّيَّةَ الْحَقِّ فِي النُّظْمِ الْوَضْعِيَّةِ تَبْتَنِي عَلَى الْمَلَكِيَّةِ مِنْ جَانِبٍ مِنْ لَهُ الْحَقُّ، بَيْنَمَا نَلَاظُ أَنَّ الْكَثِيرَ مِنَ الْحَقُوقِ الثَّابِتَةِ فِي الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ لَا تَكُونُ فِي مَوْرَدِ الْمَلِكِ أَصْلًا، وَإِنَّمَا تَبْتَنِي بِالذَّاتِ عَلَى بَعْدِ أَخْلَاقِيٍّ إِنْسَانِيٍّ؛ حَيْثُ إِنَّ الْإِسْلَامَ يَنْظُرُ إِلَى الْعِلَاقَةِ الْقَائِمَةِ بَيْنَ أَفْرَادِ الْخَلْقِ عَلَى أَسَاسِ أَنَّهَا إِمَّا عِلَاقَةٌ تَكْوِينِيَّةٌ وَإِمَّا عِلَاقَةٌ دِينِيَّةٌ، وَفِي كِلَا هَاتَيْنِ الْحَالَتَيْنِ تَسْتَوْجِبُ هَذِهِ الْعِلَاقَةُ حَقُوقًا مُتَبَادِلَةً يَجِبُ مَرَاعَاتُهَا، فَعَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: «وَلَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبْعًا ضَارِيًا تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ: إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ، أَوْ نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ»^(١٤).

ولأجل ذلك كان حقوق الإنسان على أخيه الإنسان من الأمور الشديدة التي يحتاج أداؤها إلى مجاهدة وصبرٍ وهمّةٍ عالية، فقد ورد في الخبر: «عَنْ عَبْدِ الْأَعْلَى بْنِ أَعْيَنَ، قَالَ: كَتَبَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا يَسْأَلُونَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام عَنْ أَشْيَاءَ وَأَمْرُونِي أَنْ أَسْأَلَهُ عَنْ حَقِّ الْمُسْلِمِ عَلَى أَخِيهِ، فَسَأَلْتُهُ، فَلَمْ يُجِبْنِي، فَلَمَّا جِئْتُ لِأَوْدَعَهُ، فَقُلْتُ: سَأَلْتُكَ فَلَمْ تُجِبْنِي! فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ أَنْ تَكْفُرُوا! إِنَّ مِنْ أَشَدِّ مَا افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَى خَلْقِهِ ثَلَاثًا: إِنْصَافَ الْمُرءِ مِنْ نَفْسِهِ حَتَّى لَا يَرْضَى لِأَخِيهِ مِنْ نَفْسِهِ إِلَّا بِمَا يَرْضَى لِنَفْسِهِ مِنْهُ، وَمُوَاسَاةَ الْأَخِ فِي الْمَالِ، وَذِكْرَ اللَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، لَيْسَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَكِنْ عِنْدَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَيَدْعُهُ»^(١٥).

وإن شئتَ زيادةً تصديقَ بذلك، فانظر إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩]، حيث إنَّ السَّائِلَ والمحروم لم تنشأ حَقِّيَّتُهُ مِنْ

كونه مالكا لأمر من الأمور المادية في عهدة من عليه الحق، بل حقيقته نشأت من بعد إنساني أخوي، وقد أشرت في إحدى مقالاتي^(١٦) إلى أن هذه الخصلة الإنسانية العاطفية قد جعلها الله معرّفاً للولي الذي نصّبه بعد رسوله ﷺ، كما يدلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنهَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥].

نعم، الملكية والقدرة يجب أن يتوفرا في مَنْ عليه الحق؛ إذ مضافاً إلى وضوح ذلك عقلاً وعقلاء، قد دلّت عليه الآية المتقدمة، أعني: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾؛ إذ أن إضافة المال إلى ضمير الغائب الذي هو مَنْ عليه الحق في الآية يشعر بذلك، كما لا يخفى.

هذا، والحمد لله أولاً وآخراً...

* * *

الهوامش:

- (١) ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة ٢: ١٥، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، نشر: مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٠٤، قم.
- (٢) بحر العلوم، السيّد محمد، بلغة الفقيه ١: ٣٥، شرح وتعليق: السيّد محمد تقي آل بحر العلوم، الطبعة الرابعة ١٩٨٤، نشر: مكتبة الصادق، طهران.
- (٣) الكاظمي الخراساني، محمد علي، فوائد الأصول (تقرير بحث الميرزا النائيني) ٤: ٣٨٤، تحقيق: الشّيخ رحمة الله رحمتي الأراكي، الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ، نشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم.
- (٤) الواعظ الحسيني البهسودي، السيّد محمد سرور، مصباح الأصول (تقرير بحث السيّد الخوئي) ٣: ٧٨، الطبعة الخامسة ١٤١٧ هـ، نشر: مكتبة الدّاوري، قم.
- (٥) ينبغي الالتفات إلى أن التفريق بين الحكم والحق بحاجة إلى بحثٍ أعمق، محلّه الكتب الفقهية الاستدلالية، والتّعرّض له هنا يخرجنا عن الهدف الأصلي من المقالة، ويجعلها تخصّصية محضة، مع أن مخاطبنا هو عموم المثقّفين.

- (٦) الإسكافي، مُحَمَّد بن همام، كتاب التَّمحيص: ٦٢، تحقيق ونشر: مدرسة الإمام المهدي عليه السلام، قم المقدّسة.
- (٧) الشَّيخ الطَّبْرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج ١: ٤٥، تعليق: السَّيِّد مُحَمَّد باقر الخراسان، نشر: دار النِّعمان ١٣٨٦ هـ، النِّجف الأشرف.
- (٨) الكَلِيني، مُحَمَّد بن يعقوب، الكافي ٨: ٦٩، الحديث: (٢٦)، تصحيح وتعليق على أكبر غفاري، الطَّبعة الثالثة ١٣٦٧ ش، دار الكتب الإسلامية، طهران.
- (٩) شيخ الطَّائفة الطُّوسي، مُحَمَّد بن الحسن، تهذيب الأحكام ١٠: ١٥٩، باب: القضايا في الديات والقصاص، الحديث: (١٧)، الطَّبعة الرَّابعة ١٤٠٧، نشر: دار الكتب الإسلامية، طهران.
- (١٠) انظر: وسائل الشَّيعة ٢٩: ٢٠٣، باب: أنَّ من قتل في الأشهر الحرم فعليه دية وثلاث...، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت عليه السلام، الطَّبعة الأولى ١٤١٢، قم.
- (١١) سايس مُحَمَّد علي، تفسير آيات الأحكام: ٦٣، (خال من المواصفات).
- (١٢) راجع: الصَّنقور، مُحَمَّد، مقالات حول حقوق المرأة: ١٤١، نشر: دار المحجَّة البيضاء.
- (١٣) راجع: المصدر نفسه: ٤٩ - ٥٠.
- (١٤) نهج البلاغة، الكتاب: (٥٣)، ص: ١٣٧، نسخة المعجم المفهرس، الطَّبعة الرَّابعة ١٤١٥، نشر: مؤسسة النُّشر التابعة لجماعة المدرسين، قم.
- (١٥) الكافي ٢: ١٧٠، الحديث: ٣، مرجع سابق.
- (١٦) راجع: رسالة الثَّقَلين، العدد ٥٧، ص: ٧، مقالة «الإسلام دين الإنسانية لا دين الإرهاب» لرئيس التَّحرير.

العلوم الواجهة في الإسلام

مجالاتها، وآثارها الاجتماعية

□ الأستاذ: محمد قدير دانesh (*)

مقدمة

احتل العلم في عصرنا الحاضر المكانة العظيمة، وبات المحور الأهم الذي يشد إليه أنظار العالم كله، ويجذب إليه كل اهتمام، حتى غدا الحجر الأساس الذي يعتمد عليه بُنيان التطور الحضاري العالمي، والعين التي تراقب وتسدد كل خطوة تُبذل في سبيل التقدم والنهوض.

وقد كان من الطبيعي لذلك، أن يكون العلم هو المشروع الدائم والأكثر أهمية الذي تُنفق في سبيل تحصيله وتطويره وتوسعته الأموال الطائلة، عاماً بعد عام، وأن تُبذل له الجهود والمسااعي الحثيثة، بلا تعب ولا كلل، وأن تُخصّص له الكفاءات والخبرات والمؤسسات والإدارات والمراكز المتعددة، بل وحتى الوزارات المختصة؛ لتُعنى بازدهاره ولتتولّى شؤونه وتتابع تحركاته وليكون العلم شغلها الشاغل وهمها الأوحد. وهو ما يُظهر أهميته وبيّن منزلته في حسابات العقل العالمي المعاصر.

(*) باحث إسلامي / أفغانستان. mq-danesh@yahoo.com

وبدوره، فقد أولى الإسلام - وهو الذي يدين به ما يفوق المليار من سكّان هذا العالم - أهميّة قُصوى للعلم، ودعا إليه بأبلغ بيانٍ وأكد خطاب، جاعلاً تعلّمه أمراً مفروضاً وعملاً واجباً، وقد تضافرت النصوص الإسلامية، من الآيات والروايات، لتُثبت لطلبته وحامله فضلاً عظيماً وثواباً جزيلاً. وهنا لا بدّ لنا أن نسأل:

ما هو العلم الذي له من الفضل ما يرتقي به، من وجهة النظر الإسلامية، إلى مصافّ الواجبات والفرائض؟ وهل العلم الذي أكّد الإسلام عليه والعلم الذي وقع محلاً للاهتمام العالميّ واحدٌ أم لا؟ وبالجُملة: فما هي تلك العلوم التي يجب على المسلمين تعلّمها ودراستها؟

إنّ ما نهدف إليه في مستهلّ هذه المقالة هو أن نتناول الآيات والروايات التي تحدّثت عن العلم؛ لنستشفّ منها حقيقة العلم الذي وقع ممدوحاً فيها، وصولاً إلى التعرّف على مراتب العلوم المختلفة والموقعيّة التي يحتلّها كلّ منها في سُلّم الثقافة الإسلاميّة.

ولهذا البحث علاقةٌ وطيدةٌ بعلم الاجتماع، بل هو أحد مسائله وفروعه، نظراً إلى أنّ المبحوث عنه يرجع في حقيقته إلى مسألة: العلم، والعلاقات التي تربطه بمختلف الأفكار والرّؤى الفلسفيّة والايديولوجيّة، إلى غير ذلك من العوامل التي تؤثر في العلم ويتأثر بها، شخصيّة كانت أم نوعيّة. ولا بدّ لنا، في مرحلةٍ لاحقةٍ من هذا البحث، من التعرّض باختصارٍ لهذه الفريضة الدّينيّة (العلم)، وكيف يُمكن النظر إليها من وجهة نظر علم الاجتماع.

ومن هنا، فإنّ بحثنا يتوزّع على مرحلتين:

نتحدّث في أوّلاهما: عن العلوم التي يهتمّ بها الإسلام، ويراهما واجبةً، وعن مجالاتها؛ وبعد وضوح ذلك ننتقل في الثانية: للحديث عن آثاره الاجتماعيّة وعلاقتها بالتقدّم الذي نشهده في الآونة الأخيرة.

مقدمة ضرورية:

لم يُخالف أحدٌ من علماء الإسلام في أنّ الآيات والروايات الكثيرة الواردة في شأن العلم ظاهرة في وجوب طلبه وتعلّمه، إلّا أنّ تركيزهم على حيثيّة كونه فريضة كسائر الفرائض الإلهيّة - بما يترتب على صدق عنوان الفريضة من لوازم وأبعاد - لم يكن بالمستوى الكافي والمطلوب، هذا من جهة. ومن جهة أخرى، فقد اشتهر بينهم القول بأنّ العلم الذي تتحدّث عنه هذه النصوص مقصورٌ على العلوم الدنيويّة، لا يتجاوزها إلى غيرها.

وقد تعرّض لجوانب هذا البحث ومختلف أبعاده جمعٌ من العلماء، منهم: أبو حامد الغزاليّ (ت ٥٠٥ هـ)، في كتابه الشّهير: (إحياء علوم الدّين)، الذي قام الملامحسن الفيض الكاشانيّ بشرح نظريّاته وتهذيبها في كتابه (المحجّة البيضاء). ومنهم أيضاً: الشّهيد الثاني (ت ٩٦٦ هـ)، في كتابه: (منية المريد). وجاء بعده محيي الدّين النّووي (ت ٧٧٦ هـ) في كتاب (المجموع)، وتلاه الملامالكاتب الجليبي (ت ١٠٦٧ هـ)، في (كشف الظّنون).

ومن أبرز المفكرين والباحثين المعاصرين الذين أدلّوا بدلوهم أيضاً في هذه المسألة: الشّهيد مرتضى المطهريّ، الذي تناولها بالتفصيل في أكثر من مناسبة، وفي غير مقام، حتّى أنّه في إحدى محاضراته التي اعتاد على إلقيائها، ركّز واقتصر عليها، وبالتحديد: ما يرتبط بنظرة الإسلام إلى العلم^(١). ونذكر من المعاصرين أيضاً: مهدي گلشني في الفصلين الأوّل والثاني، من كتابه: (قرآن وعلوم طبيعت)، أي: القرآن والعلوم الطّبيعيّة.

إنّ هذه الجهود والمساعي الحثيثة وإن كانت مشكورة ومفيدة، إلّا أنّها لا تمنعنا من إعادة النّظر في هذه المسألة، مع إحاطة أكبر بالآيات والروايات المرتبطة بها، آخذين بعين الاعتبار احتياجات المجتمع الإسلاميّ والثّغرات التي يتوقّف ملؤها على تحصيل شتّى العلوم وفي كافّة الميادين، والأهداف والمصالح

الكُبرى التي لا سبيل لهذا المُجتمع إلى بلوغها وإنجازها وتحقيقها إلاّ بسلوك طريق العلم ومتابعته.

أ) العلوم الواجبة:

يُعتَبَر الحديث المشهور المروي عن رسول الله ﷺ من طرق السُّنة والشَّيعة - وهو قوله: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»، وفي رواية: «وُسلمة»^(٢)، وجاء في رواية أُخرى بعد قوله: (مُسلم): «فاطلبوا العلم من مظانّه واطلبوه من أهله»^(٣) - عُمدة الأدلّة في هذه المسألة والمدرك الأساس لها، وهو كما نرى صريح في الوجوب على المسلمين كافّة، رجالاً ونساءً، حتّى لو لم نأخذ بالرواية التي اشتملت على عطف لفظ (مُسلمة) على (مُسلم)؛ لأنّ الظاهر أنّ (المُسلم) في مثل هذه الموارد وإن كان بلفظ المذكّر، إلّا أنّ الفهم العُرْفِي يُلغي فيه خصوصيّة التذكير، ليكون الخطاب موجّهاً إلى أفراد المُسلمين كافّة، وبلا استثناء، نظير ما رُوِيَ من قوله أيضاً: «المُسلم من سلّم المُسلمون من لسانه ويده»^(٤).

وفي حديث آخر عنه ﷺ: «ما من مؤمن ولا مؤمنة ولا حرّ ولا مملوك إلّا والله عليه حقّ واجب: أن يتعلّم من العلم ويتفقّه فيه»^(٥).

وبالجُملة: فلم يُنازع أحدٌ من علماء الإسلام في وجوب طلب العلم والسَّعي لتحصيله، ولكنّ ما هي على وجه التحديد العلوم الواجبة؟ ثمّ هذا الوجوب المتعلّق بها وبطلبها، على أيّ نحو هو؟ أهو واجبٌ عينيٌّ أم كفائيٌّ؟

العلوم الواجبة وجوباً عينيّاً:

تنقسم الواجبات إلى قسمين: عينيّة وكفائيّة. فالواجب العينيّ هو الواجب الذي يكون امتثاله واجباً على كلّ فردٍ فردٍ من المُسلمين، ولا يسقط بمجرد إتيان البعض به عن عُهدة الآخرين، كالصلّوات الخمس والصّيام، ونحو ذلك. وأمّا

الواجب الكفائيّ، فهو الواجب الذي يكون إتيان بعض الأفراد به مُسقطاً له عن عُهدة الآخرين، بالرّغم من أنّه يكون، في بداية أمره، متوجّهاً إلى الجميع، وعلى حدّ سواء. ويعود السّبب في ذلك إلى أنّ الأهمّ في الواجبات الكفائيّة إنّما هو الإتيان بالفعل وتحقيق الأهداف المرسومة له والمصالح المرجوة منه. وليس الأساس هو صدور الفعل عن كلّ واحدٍ من الأفراد.

وأمثلة الواجب الكفائيّ كثيرة في الشريعة، نذكر منها: الصّلاة على موتى المسلمين، ودفنهم، وإنقاذ الغريق، وتطهير المسجد وإزالة النّجاسة أو إخراجها منه، ومنها: الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، ومنها أيضاً: الحرف والمهن والصناعات التي بها نظام معاش الناس^(٦).

إنّ أقلّ ما يُمكن أن يُقال في شأن العلم، بعد ملاحظة الروايات والأحاديث المتقدّمة، أنّ طلبه وتحصيله فرضٌ على جميع من كان بالغاً من المسلمين، ذكراً أو أنثى، حرّاً أو مملوكاً، من دون اختصاصٍ بشريحةٍ دون أُخرى، أو بلدٍ دون آخر، أو بفتةٍ عمريّةٍ دون أُخرى. كما أنّ هذه الروايات المتقدّمة دلّت بظهورها على أنّ وجوب طلب العلم عينيٌّ وليس كفائيّاً، وذلك نظير الوجوب المتعلّق بالصّلاة والصّوم ونحو ذلك^(٧).

ولكنّ هذا الكلام لا يُمكن الأخذ به على إطلاقه، وبالنسبة إلى كلّ علمٍ من العلوم؛ إذ من الواضح: أنّ نشر العلوم لا يتوقّف على أن يكون كلّ منها فرضاً على سبيل الوجوب العينيّ. ومن هنا، تبرز الحاجة إلى طرح السّؤال التالي، وهو: أيّ علمٍ هو ذاك الذي يُوجبه الإسلام ويعتبره فرضاً لازماً؟ وأيّ علمٍ هو الذي يرى فيه الإسلام أهليّةً ولياقةً لأن يكون تحصيله فريضةً على كلّ فردٍ فردٍ من المسلمين؟!

وفي هذا الإطار، يقول صاحب تفسير كشف الأسرار وعدّة الأبرار - [ما ترجمته] -: «اختلف العلماء فيما بينهم في أنّ أيّ علمٍ هو العلم المقصود في هذه

الروايات، فقال المتكلمون: هو علم الكلام؛ إذ به يُدرك التوحيد ويُعلم ذات الله سبحانه وصفاته. وقال الفقهاء: هو علم الفقه؛ إذ به تُعرف العبادات والحلال والحرام وما يحرم من المعاملات وما يحل. وقال المفسرون والمحدثون: هو علم الكتاب والسنة؛ إذ بهما يُتوصل إلى العلوم كلها. وقالت المتصوفة: المراد به هذا العلم، أي: علمنا، وهو علم أحوال القلب؛ إذ هو السبيل إلى العبودية، وبه تُضمن السعادة للعبد. واختار المحققون: أن هذا الخبر لا اختصاص له بنوع من العلوم دون آخر، بل إن هذه العلوم المذكورة لا يُثبت لها الوجوب على الدوام، وإنما يُثبت الوجوب لخصوص ما كان العبد يحتاج إليه منها، ويزول هذا الوجوب عنها بانقضاء زمن الحاجة إليها، وعلى هذا، فمعنى الخبر: أن كل علم كانت للعبد إليه حاجة في مقام العمل، فإن طلبه يكون واجباً عليه، وأول ما يجب عليه أن يعلمه: ما يتعلق بمعرفة الله، وعقائد أهل السنة، ثم العلم بالصلاة والطهارة، إن كان واجباً وفريضةً، وأما إن كان سنةً ومندوباً فإن تعلمه يكون سنةً أيضاً... فقد عُلِمَ: أنه لا يستغني عن العلم مُسلمٌ أبداً، كما أن الوجوب لا يثبت لكل علم من العلوم، بل إنما يلحقه الوجوب تبعاً لتبدل الأحوال والأوقات»^(٨).

وعلى هذا الأساس، يُمكن الجزم بأن بعض العلوم الدينية يندرج في زمرة العلوم الواجبة.

وقد روى الفريقان: أن رسول الله ﷺ دخل المسجد يوماً، فإذا جماعة قد طافوا برجلٍ، فقال ﷺ: ما هذا؟ ف قيل: علامة. فقال ﷺ: وما العلامة؟ فقالوا: أعلم الناس بأنساب العرب ووقائعها وأيام الجاهلية والأشعار العربية، فقال النبي ﷺ: ذاك علم لا يضر من جهله، ولا ينفع من علمه، ثم قال النبي ﷺ: «إنما العلم ثلاثة: آية مُحْكَمَةٌ، أو فريضة عادلة، أو سنة قائمة، وما خلاهن فهو فضل»^(٩).

قال الفيض الكاشاني في شرحه:

«يَن لِّهم العِلْمُ النَّافعُ المَحْثُوثُ عليه في الشَّرْعِ، وَحَصَرَهُ في ثَلَاثَةِ. وَكَأَنَّ الْآيَةَ الْمُحْكَمَةَ إِشَارَةً إِلَى أَصُولِ الْعُقَائِدِ، فَإِنَّ بَرَاهِينَهَا الْآيَاتِ الْمُحْكَمَاتِ مِنَ الْعَالَمِ أَوْ مِنَ الْقُرْآنِ.... وَالفَرِيضَةُ الْعَادِلَةُ إِشَارَةٌ إِلَى عِلْمِ الْأَخْلَاقِ الَّتِي مُحَاسِنُهَا مِنْ جُنُودِ الْعَقْلِ وَمَسَاوِيهَا مِنْ جُنُودِ الْجَهْلِ، فَإِنَّ التَّحْلِيَّ بِالْأَوَّلِ وَالتَّخْلِيَّ عَنِ الثَّانِي فَرِيضَةٌ، وَعَدَالَتُهَا كُنَايَةٌ عَنْ تَوَسُّطِهَا بَيْنَ طَرَفِي الْإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ. وَالسَّنَةُ الْقَائِمَةُ إِشَارَةٌ إِلَى شَرَائِعِ الْأَحْكَامِ وَمَسَائِلِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ»^(١٠).

وَبِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ هَذَا الْخَبَرَ قَدْ فُسِّرَ بِتَفَاسِيرٍ عَدَّةٍ، مُتَفَاوِتَةٍ فِيهَا بَيْنُهَا فِي بَعْضِ الْجُزْئِيَّاتِ وَالتَّفَاصِيلِ، إِلَّا أَنَّ الصُّورَةَ الْجَلِيَّةَ وَالْوَاضِحَةَ الَّتِي يُمَكِّنُ الْخُرُوجَ بِهَا مِنْهُ، مَعَ قَطْعِ النَّظَرِ عَنْ هَذِهِ الْاِخْتِلَافَاتِ الْجُزْئِيَّةِ، هِيَ: أَنَّ الْعِلْمَ الَّتِي يُوجِبُهَا الْإِسْلَامُ وَيَنْظُرُ إِلَيْهَا وَيَهْتَمُّ لِأَمْرِهَا هِيَ الْعِلْمُ الدِّينِيَّةُ خَاصَّةً، وَأَنَّ هَذِهِ الْعِلْمُ مُنْهَصَرَّةٌ فِي الثَّلَاثَةِ الْمَذْكُورَةِ.

وَبِنَفْسِ الْمَعْنَى مَا جَاءَ فِي رَوَايَةٍ أُخْرَى عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَنَّهُ كَتَبَ إِلَى رِفَاعَةَ كِتَابًا فِيهِ: «الْعِلْمُ ثَلَاثَةٌ: آيَةٌ مُحْكَمَةٌ، وَسُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ، وَفَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ، وَمَلَكَهِنَّ أَمْرُنَا»^(١١). وَلَعَلَّ هَذِهِ الرِّوَايَةَ هِيَ الَّتِي اسْتَدَّ إِلَيْهَا الشَّهِيدُ الثَّانِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِنْدَمَا جَعَلَ الْعِلْمَ الْوَاجِبَ عَلَى سَبِيلِ فَرْضِ الْعَيْنِ ثَلَاثَةً، هِيَ: الْاِعْتِقَادُ، وَالْفِعْلُ، وَالتَّرْكُ. قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَا لَفْظُهُ:

«فَالْأَوَّلُ: اِعْتِقَادُ كَلِمَتِي الشَّهَادَتَيْنِ، وَمَا يَجِبُ لِلَّهِ وَيُمْتَنَعُ عَلَيْهِ، وَالْإِذْعَانُ بِالْإِمَامَةِ لِلْإِمَامِ، وَالتَّصْدِيقُ بِمَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ أَحْوَالِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِمَّا ثَبَتَ عَنْهُ تَوَاتُرًا. كُلُّ ذَلِكَ بِدَلِيلٍ تَسْكُنُ النَّفْسُ إِلَيْهِ، وَيَحْصُلُ بِهِ الْجُزْمُ. وَمَا زَادَ عَلَى ذَلِكَ مِنْ أَدَلَّةِ الْمُتَكَلِّمِينَ وَالْخَوْضِ فِي دَقَائِقِ الْكَلَامِ، فَهُوَ فَرْضُ كِفَايَةِ، لَصِيَانَةِ الدِّينِ وَدَفْعِ شُبُهَةِ الْمُبْطِلِينَ.

وَأَمَّا الْفِعْلُ: فَتَعَلُّمُ وَاجِبِ الصَّلَاةِ عِنْدَ التَّكْلِيفِ بِهَا وَدُخُولِ وَقْتِهَا، أَوْ قَبْلَهُ

بحيث يتوقّف التعلّم عليه، ومثلها الزّكاة والصّوم والحجّ والجهاد والأمر بالمعروف. وأمّا باقي أبواب الفقه من العقود والإيقاعات، فيجب تعلّم أحكامها حيث يجب على المكلف، بأحد الأسباب المذكورة في كتب الفقه، وإلاّ، فهي واجبة كفايةً. ومنه: تعلّم ما يحلّ ويحرم من المأكول والمشروب والملبوس، ونحوها ممّا لا غنى عنه، وكذلك أحكام عشرة النّساء لمن له زوجة، وحقوق المالك لمن له شيء منها.

وأما الترك: فيدخل في بعض ما ذكر، ليُجنّب. وممّا يلحق به - بل هو أهمّه، كما أسلفناه في صدر الكتاب - تعلّم ما يحصل به تطهير القلب من الصّفات المهلكة، كالرياء والحسد والعجب والكبر، ونحوها، ممّا تحقّق في علم مُفرد، وهو من أجلّ العلوم قدرًا، إلّا أنّه قد اندرس بحيث لا يكاد ترى له أثرًا^(١٢).

وكذلك رأى العلامة أبو حامد الغزالي أنّ هذه الأصناف الثلاثة من العلم يجب تعلّمها وتحصيلها بمقدار، وفي تحديد هذا المقدار الواجب منها، يقول:

«وأما الاعتقادات وأعمال القلوب، فيجب علّمها بحسب الخواطر، فإنّ خطر له شكٌّ في المعاني التي تدلّ عليها كلمتا الشّهادة، فيجب عليه تعلّم ما يتوصّل به إلى إزالة الشكّ، فإنّ لم يخطر له ذلك، ومات قبل أن يعتقد تفاصيل الصّفات الثبوتية والسلبية، فقد مات على الإسلام إجماعاً. ولكنّ هذه الخواطر الموجبة للاعتقادات، بعضها يخطر بالطّبع، وبعضها بالسّماع من أهل البلد، فإنّ كان في بلدٍ شاع فيه الكلام وتناطق الناس بالبدع، فينبغي أن يُصان في أوّل بلوغه عنها، بتلقين الحقّ، خشية سبق الباطل قلبه، فإنّه لو ألقي عليه الباطل لوجب إزالته من قلبه، وربّما عسر ذلك، كما أنّه لو كان هذا المسلم تاجراً وقد شاع في البلد الذي هو فيه معاملة الرّبا، وجب عليه تعلّم الحذر من الرّبا. فهذا هو العلم الذي هو فرض عين، ومعناه: العلم بكيفية العمل الواجب، فمن علّم علم العمل الواجب ووقت وجوبه، فقد علّم الذي هو فرض عين»^(١٣).

ومن جهته أيضاً، قال الفيض الكاشاني في معرض تعيينه للعلم الذي يجب بالوجوب العيني، ما نصّه:

«العلم الذي طَلَبَهُ فريضةٌ على كلّ مسلم هو العلم الذي يَسْتَكْمِلُ به الإنسان بحسب نشأته الأُخْروية، ويَحْتَاجُ إليه في معرفة نفسه، ومعرفة ربّه، ومعرفة أنبيائه ورسله وحُججه وآياته واليوم الآخر، ومعرفة العمل بما يُسْعِدُهُ ويقرّبه إلى الله تعالى، وبما يُشْقِيهِ ويُبْعِدُهُ عنه جَلَّ وعزَّ.

ويختلف مراتب هذا العلم: حسب اختلاف استعدادات أفراد النَّاسِ، واختلاف حالات شَخْصٍ واحدٍ بحسب استكمالته، يوماً فيوماً، فكلّما حَصَلَ الإنسان مرتبةً من العلم، وَجَبَ عليه تحصيل مرتبةٍ أُخْرى فَوْقَها، إلى ما لا نهاية له، بحسب طاقته وحوصلته»^(١٤).

أهميّة العلوم الدّينية:

تكتسب العلوم الدّينية أهمّيّتها ووجوبها من جهة الدّور الذي تلعبه هذه العلوم في تحقيق السّعادة الحقيقيّة للإنسان، هذه السّعادة التي لا يُمكن أن تتيسّر له إلّا بعد أن يتعرّف على الخطّ الذي يحقّق له الكمال ويكفل له نيل السّعادة، بل وبعد السّير في هذا الخطّ ومتابعته عملياً. ومن زاوية الدّين، فلا سعادة حقيقةً إلّا في القُرب من الله تعالى، بما يستتبعه هذا القُرب من النّجاة من جهنّم ونيرانها، ودخول الجنّة والتلذذ بنعيمها. وأمّا عالم الدّنيا، فليس فيه سوى اللذّة المادّيّة، وهي زائفةٌ وموهومة، كيف لا؟ والدّنيا زائلةٌ فانية، وليست الهدف من خلقه الإنسان، وإنّما الهدف تلك الحياة الأُخْرى. كما قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصيّة له لولده الحسن عليه السلام: «واعلم أنّك إنّما خُلِقْتَ لِلآخرة لا للدّنيا، وللْفناء لا للبقاء»^(١٥).

وبهذا، تتّضح لنا الضّابطة التي تمكّننا من تقييم أيّ علمٍ تقييماً صحيحاً،

ومعرفة العلم الذي تكون له الأفضلية والأرجحية على ما عداه؛ وذلك بأن يُقال: إنّ أهمّ العلوم وأكثرها قيمةً ونفعاً إنّما هو العلم الذي يكون أكثر هدايةً للإنسان وإرشاداً له باتجاه الكمال الحقيقي والسعادة الأبدية. ونحن، في مقام التطبيق لهذه الضابطة، لن نجد لها مصداقاً أبرز وأوضح من علوم الأنبياء ﷺ، والتي جاؤوا بها للبشر منحةً وهبةً من عند الله تبارك وتعالى^(١٦). وهذا هو السرّ في أنّ تعلم الدين وفهمه جعل في المروي عن الإمام الباقر ﷺ أحد الأركان الثلاثة التي يحتاج إليها طالب الكمال الحقيقي في أعلى مراتبه، فعنه ﷺ: «الكمال كلّ الكمال: التفقه في الدين، والصبر على النّائبة، وتقدير المعيشة»^(١٧).

وعن أبي عبد الله الصادق ﷺ: «عليكم بالتفقه في دين الله ولا تكونوا أعراباً، فإنّه من لم يتفقه في دين الله لم ينظر الله إليه يوم القيامة ولم يُزكَّ له عملاً»^(١٨).

وعنه أيضاً ﷺ: «ليت السّياط على رؤوس أصحابي حتّى يتفقّوها في الحلال والحرام»^(١٩).

العلوم الواجبة كفايةً:

عرفنا أنّ بعض العلوم لا يثبت لها من الوجوب إلّا الكفائي، بحيث يكون الأمر بها موجّهاً - بادئ ذي بدء - إلى جميع الأفراد، ولكنّه، وبفعل أنّ البعض قد أخذ على عاتقه فعلاً مسؤوليّة امتثاله والإتيان بالمأمور به، وأنّ هذا بمجردّه كان كافياً في تحقّق الهدف المرسوم له، سقط عن ذمّة الآخرين، وخرج عن عهدتهم. ولا تنحصر هذه الطائفة من العلوم في العلوم الشرعيّة والأخرويّة، بل يندرج فيها أيضاً بعض العلوم الدنيويّة أو الماديّة.

ومن القسم الأوّل: دراسة واكتساب العلوم الإسلاميّة دراسةً تخصّصيّةً

معمّقة، فإنّها واجبة كفاية؛ إذ بها يُحفظ لهذا الدّين كيانه، وبها تُنشر تعاليم الله سُبحانه. وتُدّرس هذه العلوم عادةً في الحوزات العلميّة. وهي على ضربين: لأنّها إمّا أن يكون لها ارتباطٌ مباشرٌ بالدّين، وإمّا أن لا تكون كذلك، بأن تكون نسبتها من مسائل الشريعة نسبة الآلات والأدوات والمقدّمات اللاّزمة التي يُتوصّل بها لفهمها وإدراكها، كعلوم اللّغة والنّحو والرّجال والأصول ..

وأما القسم الثاني، وهو: العلوم التي ترتبط بها مصالح الدّنيا، فما هو فرض كفاية منها فكثيرٌ أيضاً، وذلك - بنظر الغزاليّ - كلّ علمٍ دنيويٍّ لا يُستغنى عنه في قوام أمور الدّنيا، كالطبّ الذي هو ضروريٌّ في حاجة بقاء الأبدان على الصّحة، والصّناعة والزّراعة. وأمّا ما عدا ذلك من العلوم الدّنيويّة والمادّيّة التي تعود بالنّفع على المجتمع، فهي عند الغزاليّ علومٌ يُحمّد الاشتغال بها ويحسن، ولكنها لا تعدو أن تكون فضيلة^(٢٠).

وقال الشهيد الثاني رحمته الله: «وأما فرض الكفاية، فما لا بدّ للنّاس منه في إقامة دينهم من العلوم الشرعيّة، كحفظ القرآن والأحاديث وعلومهما والفقه والأصول والعربيّة ومعرفة رواة الحديث وأحوالهم والإجماع، وما يُحتاج إليه في قوام أمر المعاش، كالطبّ والحساب، وتعلّم الصّنائع الصّوريّة، كالخياطة والفلاحة، حتّى الحجامّة ونحوها»^(٢١).

وقال النّوويّ: «فرض الكفاية، وهو تحصيل ما لا بدّ للنّاس منه في إقامة دينهم من العلوم الشرعيّة، كحفظ القرآن والأحاديث وعلومهما والأصول والفقه والنّحو واللّغة والتّصريف، ومعرفة رواة الحديث والإجماع والخلاف. وأمّا ما ليس علماً شرعيّاً ويُحتاج إليه في قوام أمر الدّنيا، كالطبّ والحساب، ففرض كفاية أيضاً، نصّ عليه الغزاليّ. واختلفوا في تعلّم الصّنائع التي هي سبب قيام مصالح الدّنيا، كالخياطة والفلاحة ونحوهما، واختلفوا أيضاً في أصل فعلها..»^(٢٢).

وفي قبال ذلك، هناك نظرةٌ أُخرى تحدّث عنها الشهيد المطهريّ، الذي رأى فيها: أنّ مجال العلوم الواجبة والمفروضة أوسع ممّا ذُكر، وأنّ كلّ علمٍ يكون المجتمع الإسلاميّ في حاجةٍ ما إليه، ممّا يكون لعزة المجتمع واستقلاله ارتباطٌ وعلاقةٌ به، فهو واجبٌ على سبيل الكفاية.

وفي الواقع، فإنّه وبالرغم ممّا شهدناه في العصور القديمة والحديثة، من تصريح عددٍ من العلماء، كالغزاليّ، بكون هذا الصّنف من العلوم واجباً وجوباً كفائياً، إلّا أنّه ومع ذلك، فإنّ هذه العلوم لم تُوفَّ - أبداً - حقّها من البحث؛ إذ لم يتناولها أحدٌ من علماء الدّين في بحثه بوصفها إحدى العناصر التي تنتمي إلى دائرة العلوم الإسلاميّة الواجبة، ولم يعكفوا على دراستها، ولا برز توجّههم إليها واهتمامهم بها كما برز جليّاً في غيرها من العلوم الإسلاميّة. بل، وحتىّ في العصر الذي كانت تتألّأ فيه إشراقات الصّحوة الإسلاميّة، حتّى في ذلك العصر الذي شهد إقبالاً كثيفاً على مختلف العلوم والمجالات، حتّى آنذاك، فإنّ اهتمام العلماء المُسلمين بهذا الصّنف من العلوم لم يكن يهدف إلى الاهتمام بتفعيل هذه العلوم على الصّعيد العمليّ لرفع احتياجات المُجتمع الإسلاميّ، بل إنّ الدّافع الأساسيّ لذلك، والذي لعب الدّور الأكبر في هذا الاهتمام والإقبال، إنّما هي المباحث التي أثارها القرآن الكريم في مجال الطّبيعة وعلومها، ممّا يُجعل انفتاحهم على مسائل العلوم الطّبيعيّة جزءاً لا يتجزّأ من المساعي والجهود التي ألزموا أنفسهم بها تجاه علوم العقيدة ومعرفة الله تعالى^(٢٣).

وهنا لا بدّ أن نطرح السّؤال التالي وهو أنّه لو فرضنا تعلّق الوجوب الكفائيّ بجُملة من العلوم المادّيّة والطّبيعيّة، فهل يكون هذا كافياً لإدراج هذه العلوم في دائرة العلوم الدّينيّة، بحيث يصدق عليها العلم الذي وقع الحثّ والتأكيد عليه في الآيات والروايات، وبحيث يكون الوجوب المتعلّق بها مُستفاداً من هذه النّصوص، أم لا؟!

وبعبارة أُخرى: فهل تتسع دائرة العلوم الدّينيّة لتشمل أيّ علمٍ يصدّق عليه أنّه ممّا يُحتاج إليه في المُجتمع الإسلاميّ، كما يعتقده جماعةٌ، منهم: الشّهِيد المطهريّ ومهدي گلشنی وآخرون؟! أم أنّ هذه الدّائرة لا تشمل ما كان من قبيل العلوم الطّبيعيّة والمادّيّة^(٢٤)، بل هذه لا يصدّق عليها عنوان العلم الممدوح في الكتاب والسّنّة؛ لكيلا تكون النّصوص الشرعيّة الواردة في فضيلة العلم صالحةً للدّلالة على فرض هذه العلوم وإيجابها؟! ثمّ على هذا الاحتمال الثاني: فهل يبقى دليلٌ آخر ينهض لإثبات الوجوب لهذه الطّائفة من العلوم أم لا؟!

العلوم الطّبيعيّة من علوم الدّين:

يصرّ عددٌ من معاصري المفكرين المُسلمين على توسعة مفهوم العلوم الدّينيّة ليكون متناولاً كلّ علمٍ يكون محطّاً للحاجة في المجتمع الإسلاميّ، وممّا ينجم عن هذه التوسعة: أنّ يكون كلّ علمٍ من هذا القبيل مشمولاً لـ: «طلب العلم فريضةً على كلّ مُسلم». يقول الشّهِيد المطهري - وهو الأصل في التنظير لهذه التوسعة -:

«إذا نظرنا إلى عصر صدر الإسلام، أمكننا القول: بأنّ علوم الشّرع منحصرةٌ في المتون الدّينيّة الأوّليّة وهي: القرآن الكريم، وسنّة النّبيّ الأكرم ﷺ وأوصيائه من بعده. فإنّ النّاس آنذاك، كانوا يجهلون الإسلام نفسه ولا يعرفون عنه شيئاً، في وقتٍ لم يكن أيّ علمٍ من العلوم، من الكلام والفقه وغيرهما، قد وُجد بعد، فلذلك مسّت الحاجة، وقبل كلّ شيء، إلى إرجاع النّاس إلى هذه المتون الأوّليّة ليتعلّموها، فيتعرّفوا من خلالها على الإسلام ومحتوياته، ومن هنا، جاء قول النّبيّ ﷺ: (إنّما العلم ثلاثة: آيةٌ مُحْكَمَةٌ وفريضةٌ عادلةٌ وسُنّةٌ قائمةٌ)؛ ليكون ناظراً إلى التكاليف الملائمة للوضع الذي كان المُسلمون عليه آنذاك.

إلا أنّ هذا الوضع شهد تغييراً ملحوظاً في العصور اللاحقة؛ لأنّ المُسلمين

فيما بعد، كانوا قد تعرّفوا على هذه المتون الأوليّة، التي هي بمثابة قانون الإسلام ودستوره الأساسي، ومن جُملة تعاليم الكتاب والسنة التي اطلعوا عليها: كَوْن العلم فريضةً وواجباً، ولَمَّا كان ذلك قد ترافق مع ظهور العلوم والتدوين التدريجي لها، فلا بدّ أن يطرأ تحوّل على حُكم تلك الحقبة السابقة، ليكون كلّ علم يُفيدهم في شؤونهم وأغراضهم، أو يحلّ شيئاً من العقَد والمشاكل التي تواجههم، علماً دينياً، وفريضةً واجبةً، بحيث لو توفّرت فيه شروط العبادة، كالإخلاص في النية مثلاً، لكانت النصوص التي رتبت الثواب على طلب العلم وتحصيله عامّةً وشاملةً له قطعاً^(٢٥).

وقد ذكر ﷺ للعلوم الإسلامية أربعة معانٍ:

أ. العلوم التي يُعتَبَر موضوعها ومسائلها من أصول الإسلام أو من فروعها، أو أنها على الأقلّ ممّا يُمكن الاستناد إليها في إثبات الأصول أو الفروع، وذلك هو: القرآن والسنة. وأمثلة هذه العلوم كثيرةٌ، منها: علم التفسير، وعلم الحديث، والكلام، والفقه، و..

ب. العلوم المذكورة أعلاه، يُضاف إليها، العلوم التي هي مقدّماتُ لها، كعلوم اللغة، وأصول الفقه، والرّجال، و..

ج. العلوم التي تُصَبِّح، بنحوٍ من الأنحاء، جزءاً من واجبات الإسلام، فيكون تحصيلها واجباً، ولو على سبيل الفرض الكفائيّ. وذلك كلّ علمٍ تكون تلبية احتياجات المجتمع منوطةً به، ويكون هو دخيلاً في توفير المتطلّبات اللاّزمة لهذا المجتمع.

د. العلوم التي كُتِب لها أن تنمو وتترعرع، بل وأن تبلغ رُشدّها وكَمالها، في أحضان الإسلام والثقافة الإسلامية، سواء كان الإسلام يعتبر هذه العلوم - في حدّ نفسها - واجبةً، أم لم يكن^(٢٦).

ومن بين هذه المعاني المذكورة الأربعة، اختار الشهيد المطهريّ المعنى الثالث

ليكون هو التفسير الذي يرتضيه لمفهوم العلوم الدينية. وعلى هذا، فيكون لعلوم الدين - عند المحقق المذكور - هامشٌ فسيحٌ؛ لأنه يتسع ليتناول كل علمٍ تعلّق به وجوبٌ ما، سواء كان الوجوب المتعلّق به وجوباً عينياً أم كفائياً.

وفي موضعٍ آخر من كلامه، صرح رحمته الله بأن هذا التقسيم للعلوم إلى طائفتين: تضم الأولى العلوم الدينية، وتحتوي الثانية على ما يُسمّى بالعلوم غير الدينية، - أن هذا التقسيم - تقسيمٌ باطلٌ من أساسه، وأنه هو السبب الرئيسي الذي دفع بالبعض إلى أن يعتقدوا، خطأً وتوهماً، أنه لا علاقة تجمع الإسلام بالعلوم التي تنتمي إلى الطائفة الثانية، بل هو غريبٌ وأجنبيٌّ عنها بالكلية، وهو ما يتنافى وجامعية الإسلام وخاتمته، فإن اتّصاف الإسلام بهاتين الصفتين يُحتّم عليه أن يعتني بكل علمٍ يكون نافعاً ومفيداً للمجتمع الإسلامي، وأن يعتبره ملحقاً وضرورياً فيشدّد في الدعوة إليه والترغيب به ^(٢٧). إذ كيف لدينٍ يدّعي أنه يؤمّن للبشر سعادتهم الكاملة، وأنه - بنفسه - كافٍ لتحقيق ذلك وحلّ مشاكلهم، كيف لدينٍ كهذا أن يُغفل الأمور التي تلعب دوراً حيوياً وبارزاً في تأمين الرفاهية والاستقلال للمجتمع الإسلامي، كيف له أن يُهمّلها ويتعامى عنها، أو أن يتعامل معها بلا مسؤوليّة ولا مبالاة ^(٢٨)؟!

فعند الشهيد المطهري: أن المعيار في انتساب العلم إلى الدين وصحة وصفه بأنه من العلوم الدينية، إنما هو مقدار مطلوبة هذا العلم بالنسبة إلى المجتمع الإسلامي وشدة حاجة المجتمع إليه. كما يرى رحمته الله أيضاً، أن أصل اتّصاف العلم بصفة الوجوب، وأصل تعلّق هذا الحكم به، أمرٌ ثابتٌ راسخٌ لا يقبل التبدّل ولا الزوال، وإنما يُمكن التغيّر والتبدّل في تعيين أن أيّاً من العلوم، على وجه التحديد، هو الذي يكون بعينه واجباً ومفروضاً في هذا العصر أو ذاك، فإنّ هذا التعيين خاضعٌ، لا محالة، لتبدّل الظروف والأحوال، وتابعٌ للأزمنة والعصور. فوجوب دراسة قانون أبي عليّ سينا - مثلاً - في عصرٍ من العصور، لا

يعني أنه هو بعينه ما يجب علينا دراسته في عصرنا الحالي، بل جاز أن يتعلّق الوجوب، بالنسبة إلينا، بأشياء أخرى.

وبعد أن قام بتقسيم الحاجات البشرية إلى حاجات ثابتة وأخرى متغيرة، ذكر المطهري أنّ النظام المعتمد في التشريع الإسلامي نظامٌ يحرص على أن تكون القوانين متناسبة مع الحاجات التي وُضعت وأُقرت وشُرعَت لأجلها، فما يقرّ لمعالجة الحاجات الثابتة، لا بدّ أن يكون قانوناً ثابتاً، وما يُقرّ لمعالجة الحاجات المتغيرة، فلا بدّ أن يكون متغيراً مثلها. إلّا أن تغيّر القانون - بنظره - ينبغي أن يُحافظ على نحوٍ من الثبات والديمومة؛ وذلك بأن يُصار إلى ربط كلّ قانونٍ متغيّرٍ بواحدٍ من القوانين الثابتة، بحيث يكون هذا القانون الثابت بمنزلة روح القانون المتغيّر، وبحيث يكون هذا الثابت هو الذي يجعل المتغيّر يتغيّر ويتبدّل، لا نحن، إلّا أن يتمّ نسخه.

وكمثالٍ لذلك، فإنّ أصل وجوب علم الطّب ثابتٌ ولا يتغيّر، وكذا الحال في أصل الوجوب المتعلّق بعنوان: «كلّ ما يحتاج إليه هذا العلم»، وإنّما الذي يتغيّر ويتبدّل باختلاف الأزمنة هو مصاديق هذا العنوان والأفراد التي تحقّقه. ومثال آخر: الآية الواردة في مسألة الجهاد الدّفاعي، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فإنّ الدّفاع حُكْمٌ إسلاميٌّ ثابتٌ، إلّا أنّ الطّريقة المتّبعة فيه تختلف باختلاف الأزمنة، ففي السّابق، ربّما كان بمقدور أربعة من الحدّادين أن يوفّروا كافّة ما يحتاج إليه المُجتمع الإسلاميّ من وسائل دفاعيّة، وأمّا في العصور اللاحقة، فإنّ المشكلة لا تقتصر على عدم كفاية هذا العدد فحسب، بل مضافاً إلى بروز الحاجة إلى عددٍ أكبر، فقد برزت الحاجة الأكيدة إلى المزيد من الخبرة والتخصّص والتقنيّة أيضاً، وبما أنّ وجوب الدّفاع أمرٌ قطعيٌّ ومُسلّم، فكذا يكون حال وحُكم الإعداد له والسّعي في تهيئته وتوفير مقدّماته^(٢٩).

وَمَنْ أَيْدِ هَذِهِ النَّظَرِيَّةِ وَقَالَ بِهَا أَيْضاً: آيَةُ اللَّهِ الشَّيْخِ نَاصِرِ مَكَارِمِ الشَّيرَازِيِّ،
وَالدَّكْتُورِ مَهْدِيِّ كَلَشْنِيِّ، وَاللَّذَانِ حَاوِلَا أَنْ يُثَبِّتَا أَنَّ الْعُلُومَ الطَّبِيعِيَّةَ تَدْخُلُ فِي
قِسْمِ الْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ الْوَاجِبَةِ، مُسْتَنْدِينَ فِي ذَلِكَ إِلَى التَّمَسُّكِ بِسُلْسِلَةٍ مِنَ الْآيَاتِ
وَالرَّوَايَاتِ.

الأدلة على أن علوم الطبيعة علوم دينية:

تَمَسَّكَ الْقَائِلُونَ بِصَدَقِ عَنَوَانِ (الْعِلْمِ الدِّينِيِّ) عَلَى الْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ - كَمَا
سَبَقَتْ الْإِشَارَةُ - بَعْدَ مِنَ الْأَدْلَةِ، نَلَخْصُهَا وَنَذَكُرْ أَهْمَهَا فِيمَا يَلِي:

١. إِبْطَاقُ الْعِلْمِ فِي الْعَدِيدِ مِنَ الْآيَاتِ وَالرَّوَايَاتِ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ وَعَدَمُ
كَوْنِهِ مَقْيَداً بِأَيِّ قَيْدٍ. نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾
[الزمر: ٩].

٢. تَصْرِيحُ جُمْلَةٍ مِنَ الْآيَاتِ وَالرَّوَايَاتِ بِعَدَمِ كَوْنِ الْمَقْصُودِ مِنَ الْعِلْمِ فِيهَا
خُصُوصَ عِلْمِي: أَصُولُ الْعَقَائِدِ، وَالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ. فَمِنْ الْآيَاتِ قَوْلُهُ تَعَالَى:
﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُؤْسٍ لَكُمْ لِنُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠]. وَمِنْ الْأَخْبَارِ:
النَّبَوِيُّ الْمَشْهُورُ: «اطْلُبُوا الْعِلْمَ وَلَوْ بِالصَّيْنِ»^(٣٠)، فَإِنَّ لَهُ دَلَالََةً عَلَى ذَلِكَ أَيْضاً.
وَمِنْهَا: الْمَرْوِيُّ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: «الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ فَاطْلُبُوهَا وَلَوْ عِنْدَ
الْمَشْرِكِ تَكُونُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلُهَا»^(٣١). إِذْ مِنَ الْوَاضِحِ: أَنَّ الصَّيْنَ فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ لَمْ
تَكُنْ مَرْكَزاً لِلْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ، وَإِنَّمَا اسْتَمَدَّتْ شُهْرَتَهَا آنَذَاكَ مِنْ كَوْنِهَا بِلَدٍّ صَنَاعِيًّا،
كَأَنَّهَا مِنَ الْوَاضِحِ: أَنَّهُ لَا يَصَحُّ، بَلْ لَا يَتَأْتِي، طَلَبُ مَعْرِفَةِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ
وَالْأَصُولِ الْإِعْتِقَادِيَّةِ وَأَخْذُهَا مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمَشْرِكِينَ، فَلَا بَدَّ لِذَلِكَ، مِنْ حَمْلِ
الْعِلْمِ فِي نِظَائِرِ الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ، وَالْحِكْمَةِ فِي نِظَائِرِ الثَّانِي، عَلَى غَيْرِ الْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ
بِمَعْنَاهَا الْخَاصِّ وَإِطَارِهَا الضَّيِّقِ.

٣. وَمِنْ جُمْلَةِ الْأَدْلَةِ الَّتِي تُثَبِّتُ أَنَّ الْعِلْمَ الْمَنْظُورَ إِلَيْهِ وَالْمَدْمُوحَ إِسْلَامِيًّا لَا

ينحصر في علم الشريعة وأحكام الحلال والحرام: ذلك الميراث الهائل والتمين الذي خلفه علماء المسلمين نتيجة جهودهم التي بذلوها طيلة القرون السابقة، وأنهم كانوا، ولقرون عدّة، رافعي راية العلوم البشريّة على الإطلاق.

٤. وتعدّ تقسيمات العلم التي ذكّرت له في بعض الروايات دليلاً آخر على سعة مفهوم العلم المدعوّ إليه في المتون والنصوص الدينيّة، نظير ما روي من قوله ﷺ: «العلم علّمان: علم الأديان وعلم الأبدان»^(٣٢). أو كهذه الرواية الواردة عن عليّ عليه السلام: «العلوم أربعة: الفقه للأديان، والطبّ للأبدان، والنحو للسان، والتجّوم لمعرفة الأزمان»^(٣٣).

٥. لو كان العلم مفيداً في حفظ كيان المجتمع الإسلاميّ، ونافعاً لرفع احتياجاته، فإنّ تحصيل هذا العلم سيكون، لا محالة، واجباً على كلّ الأُمّة الإسلاميّة، وجوباً كفائياً. تماماً، كما أنّ تعلّم المعارف الدينيّة الخاصّة لغرض نشرها وتبليغها يتعلّق به الوجوب الكفائيّ، على ما دلّت عليه آية التّفرّ، وهي الآية: ١٢٢، من سورة التوبة.

٦. عدم جواز تسلّط الكفّار على المسلمين، بدليل الآية ١٤١ من سورة النساء، وهي قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾^(٣٤).

دينيّة العلوم الطّبيعيّة تحت مجهر النّقد:

١. إنّ من غير الجائز أبداً التمسك بإطلاق لفظ «العلم» الوارد في الآيات والروايات لإثبات أنّ كلّ علم يكون مؤرداً لحاجة المجتمع، فهو يدخل في أفراد ومصاديق العلم الذي جعلته هذه النصوص فريضةً وواجباً؛ وذلك لأننا لو تتبعنا أغلب هذه الموارد التي ادّعي فيها الإطلاق، لوجدنا أنّ لفظ «العلم» بخصوصه لا وجود له ولم يرد أصلاً في تلك النصوص، وإنّما الوارد فيها: مُشتقّات هذا اللفظ وتصاريفه المختلفة، كـ «يعلمون» و«علّمنا» ونحو ذلك.

ولكنّ المراد من هذه المشتقات والتصارييف، بحسب ما يظهر من مواضع استعمالها، مغايرٌ تماماً لما هو المطلوب من لفظ «العلم»، فإنّ ما يَنفَع المتمسك بالإطلاق، هو أن يُثَبَّت أن المراد هنا هو المعنى الاصطلاحيّ للعلم؛ إذ هو الذي يُمكن أن يُراد به كافّة أنواع العلوم والفنون والصناعات، وهذا ما لا سبيل إليه بوجه، بل الظاهر أن هذه المشتقات مُستعملةٌ في نفس معانيها اللغويّة والعرفيّة، أي: في أصلّ التعلّم والتعليم، مع قطع النظر عن ماهيّة المعلومات وأصناف العلوم والمعارف. وهو ما يُلغِي كلّ إمكانيّة للتمسك بالإطلاق؛ إذ سواء كان المفهوم الدينيّ للعلم الفريضة وسيعاً وعمماً أم كان خاصّاً مقصوراً على بعض الأصناف دون بعض، فإنّه ليس بإمكان المشرّع، وهو في مقام التعبير عن أصلّ التعليم والتعلّم والحثّ عليهما، إلّا أن يَستَخدم نفس هذه الألفاظ والتصارييف، وبنفس الطريفة المتبعة له فعلاً. فعلى سبيل المثال: لو أراد الشارع أن يَنْهَى عن تعلّم السّحر وتعليمه، لما كانت صورة النّهي التي سيأتي بها لتخرج كثيراً عن مثل قولنا: لا تُعلّموا السّحر ولا تتعلّموه.

وأما الاستدلال بإطلاق لفظ العلم في الحديث المشهور: «طلب العلم فريضة على كلّ مُسلم»، فهو أيضاً: استدلالٌ عقيم؛ ذلك أن لهذا الحديث دلالةٌ وظهوراً في كون العلم فرضاً على كلّ واحدٍ من المُسلمين على سبيل العين، مع وضوح أنّه لا مجال للقبول بفكرة أن الوجوب المتعلّق بالعلوم الطّبيعيّة هو من قبيل الوجوب العينيّ الذي لا بدّ لكلّ فردٍ من أفراد المُسلمين أن يَمْتثلَه، ولا يَسْقُط عنه إلّا بذلك، وإنّ أتى به جميع من عداه.

بل حتّى لو تنزّلنا وقبلنا بأنّ نوع الوجوب الذي تدلّ عليه هذه الرواية مشكوكٌ فيه، وبأنّه لا يُوجد فيها ما يدلّ على نوعٍ معيّنٍ منه - حتّى لو سلّمنا بذلك جدلاً - إلّا أنّه مع ذلك، لا مجال للتمسك بالإطلاق لإثبات هذه السّعة في مفهوم العلم، وذلك تطبيقاً للقاعدة الأصوليّة التي تقول: إنّ امتثال الأمر

يبقى واجباً ولازماً بحكم العقل، ما لم يُقَمَّ دليلٌ على سقوطه بفعل الغير، فإذا لم ينصب المولى قرينةً على إرادته، يُعَلَمَ حينئذٍ أنَّ مراده الوجوب العيني^(٣٥).

ويمكن القول هنا: بأنَّ لفظة «العلم» في أدبيات النصوص الدينية معنيٌّ خاصاً ومحدوداً يجعل من شمولها لبعض العلوم والفنون - كالطبِّ والنجوم - أمراً في غاية البُعد والصَّعوبة، كما يُرشد إلى ذلك أنَّه لم يُستَخدم أبداً لفظ «العلم» المطلق في التعبير عن مثل هذه الفنون، بل كلِّما أُريدَ ذلك، جيء بالأسماء الخاصة لها، كأنَّ يُقال - مثلاً - : علم الطبِّ، وعلم النجوم، وهكذا... ٢. حتَّى لو قبلنا بأنَّ لفظ «العلم» في الآيات والروايات ذا معنىٍ مُطلقٍ يتَّسع ليشمل العلوم الطبيعيَّة، أو بآئِه - على الأقلِّ - يشملها صراحةً في بعض الموارد، إلَّا أنَّنا مع ذلك، لا نرى بدءاً - في الروايات التي تُثبت وجوب العلم وفضيلته - من الالتزام بتخصيصه بالعلوم الدينيَّة دون ما سواها. وذلك لوجود رواياتٍ أُخرى تبيِّن المقصود من العلم في منظور الدِّين ومفاهيمه، ومن بين هذه الروايات: الروايتان المتقدمتان عن رسول الله ﷺ والإمام عليٍّ عليه السلام، واللَّتَانِ دلَّتَا على أنَّ العلوم المنظور إليها مقصورة على أمورٍ دينيَّةٍ ثلاثة: «إنَّما العلوم آية محكمة...».

وأما ما أفاده الشَّهيد المطهريُّ في بيان عدم انحصار العلوم الواجبة في العلوم الدينيَّة، فهو - بحسب ما يبدو - غير تامٍّ؛ لأنَّ وجوب التعرّف على أصول الدِّين وتعلُّم المسائل الشرعيَّة التي يكثر ابتلاؤه بها، لا اختصاص له بفردٍ دون آخر، بل كلٌّ من يصل إلى سنِّ البلوغ فهو مخاطَبٌ بهذا الوجوب ومعنيٌّ بامتثاله. وعلى كلِّ مُسلم - والتعبير للشَّهيد نفسه - أن يطلِّع على القوانين الأساسيَّة للإسلام، شرعيَّةً ومدنيَّةً، ليتِمَّكن - بوصفه فرداً مُسْلِماً - من تطبيقها ومن الاسترشاد بها والعمل على أساسها. ومن الواضح، أنَّ قصور معرفة المسلمين في العصور السَّابقة عن إدراك هذه الأمور، والتوسُّع الهائل الذي شهدته العلوم

في عصرنا الحالي، لا يُمكن أن ينتج عنهما أن المسلمين في العصور اللاحقة مُلزمون بامتلاك هذه المعرفة للمسائل الدينيّة، وبنفس الدرجة والمستوى.

أضف إلى ذلك، أن كون العلوم الدينيّة واجبةً بالوجوب العيني، وكونها محصورةً في الأمور الثلاثة المذكورة، لا ينفي عن غيرها صفة الوجوب، كما لا يعني عدم إمكانية قيام أدلّة أخرى تُثبت الوجوب لما عداها، بل غاية ما يقتضيه هذا الانحصار: أن غير هذه الأمور الثلاثة لا يكون مشمولاً لروايات وجوب العلم وفضيلته، وأنها - بالتالي - لا تكون فريضةً عينيّة.

٣. إن الصّين وإن كانت شهرتها آنذاك مكتسبةً من كونها مركزاً صناعياً، إلّا أنّه لا دليل على أن هذه الحيثيّة كانت هي الملحوظة في قول النّبّي ﷺ: «اطلبوا العلم ولو بالصّين»، بل يُحتمل أن يكون الأمر بطلب العلم بها ناتجاً عن لحاظ حيثيّة بُعدها عن بلاد المسلمين آنذاك. ومما يعزّز ذلك، أنّنا لو أكملنا الرواية المذكورة، لوجدناه ﷺ يقول: «طلب العلم فريضةٌ على كلّ مُسلم». ومن البعيد جداً أن يكون المقصود: أن العلم الذي مركزه الصّين يجب على كلّ واحدٍ من أفراد المسلمين تعلّمه.

٤. وأمّا الروايات التي تقسّم العلم إلى أقسامٍ مختلفة، نحو: «العلم علّمان: علم الأديان وعلم الأبدان»، فلا بدّ فيها من الالتفات إلى الأمور التالية:

- أ. بعد التتبّع، فإن أكثر هذه الروايات لا سند له. كما أنّها لم ترد في الكتب الروائيّة المشهورة، كالكتب الأربعة. بل نقل العلامة المجلسي عن الصّغاني - من علماء أهل السنّة - أنّه عدّ رواية: «العلم علّمان..»، من الأحاديث الموضوعة^(٣٦).
- ب. لو أغمضنا النّظر عن صحّة هذه الروايات سنداً، إلّا أنّ للنّقاش في جهة دلالتها ومضمونها مجالاً واسعاً؛ إذ لا دلالة لها على أن هذه العلوم جزءٌ من العلوم الدينيّة، ولا على أنّها تندرج في مصاديق العلم المجعول فريضةً، كيف لا؟! ونحن نقطع بأنّ علم الأديان وعلم النّحو وعلم النّجوم مثلاً، ليست

واجبةً في حقّ الجميع وعلى عهدتهم. مع أنّ الروايات التي تتحدّث عن كون العلم فريضة ظاهرة - كما سبقت الإشارة - في أنّ تعلّم العلم واجبٌ عينيٌّ مُحاطَبٌ به الجميع.

٥. لو قُمنا بتتبّع الآيات والروايات التي تشير إلى العلوم الطّبيعيّة والبشريّة، فلن نستطيع العثور فيها على ما يدلّ على فرض هذه العلوم وإيجابها، بل إنّ هذه النّصوص طرحتها بعنوان أنّها امتيازٌ وفضلٌ، كما أنّ هذه النّصوص عندما حثّت على تعلّمها، فإنّما دعت إليها ورغبت بها من جهة ما لها من دورٍ في معرفة الله تبارك وتعالى. وهو ما كان واضحاً لدى علماء المسلمين، الذين انطلقوا في بحثهم عنها من خلال هذه الرّؤية وهذه الدّوافع والأغراض، كما يقول مهدي گلشنی نفسه:

«مارس القرآن دوراً كبيراً وفعّالاً كان له أكبر الأثر في تحريك العلماء المسلمين وإقبالهم نحو العلوم التجريبيّة، من جهة ما لهذه العلوم من مدخليّة في معرفة الله. وفي واقع الأمر، فإنّ هذا الوازع الدّينيّ والقرآنيّ كان هو العامل الأصليّ الذي أدّى إلى سطوع نجم الحضارة الإسلاميّة وعلوّ رايّتها. وقد التفت إلى هذه النّكته أيضاً ونصّ عليها جمعٌ من الباحثين من غير المسلمين»^(٣٧).

٦. لا نشكّ ولا نرتاب أصلاً في صحّة وفي تماميّة الدّليل القائل: بأنّ كلّ علمٍ يكون لازماً وذا نفعٍ في مجال حفظ كيان المجتمع الإسلاميّ ورفع احتياجاته، فإنّ تحصيله بالنّسبة إلى أفراد الأُمّة الإسلاميّة يكون واجباً كفائياً. إلّا أنّ هذا شيءٌ، وكون هذا العلم اللاّزم والنّافع مصداقاً للعلم بالمفهوم الذي يشدّد ويؤكد عليه الإسلام، شيءٌ آخر. وإنّ تماميّة الدّليل المذكور لا تحتم علينا أن نقوم بتوسعة مفهوم (العلم الدّينيّ) الذي تحثّ عليه النّصوص الدّينيّة بهذه الدّرجة العالية، لكي يصير متناولاً لكلّ علمٍ نافعٍ ومفيد.

بل ما نراه هنا: أنّه قد حصل خلطٌ بين مقامين: بين كون العلم واجباً كفائياً،

وبين كونه علماً دينياً، بزعم: أننا لو لم نجعل العلم واحداً من أفراد العلوم الدينية لما كان بمقدورنا أن نُثبت تعلّق الوجوب الكفائيّ به. ولكنّ هذا ليس من الدقّة والصّوابيّة في شيء، ذلك أنّ الوجوب الذي ينصبّ على كلّ العلوم المحتّاج إليها من قبل المجتمع الإسلاميّ وجوبٌ مقدّمِيّ، بمعنى: أنّ هذه العلوم إنّما وجبت لكونها تشكّل مقدّمةً للواجب، والذي هو حفظ كيان المجتمع الإسلاميّ وتلبية حاجاته. وبديهيّ أنّ الوجوب المقدّمِيّ للشيء لا يكفي لصيرورته علماً أو أمراً دينياً.

وفيما يلي نتعرّض بالتفصيل لإثبات الوجوب للعلوم الطّبيعيّة مورد الحاجة، مع ذكر أدلّة هذا الوجوب:

وجوب العلوم الطّبيعيّة المحتّاج إليها:

عرفنا إذن، أنّ إخراج علوم الطّبيعة عن دائرة العلوم الدّينيّة واستبعاد أنّ تكون مصداقاً لقول النّبيّ ﷺ: «طلب العلم فريضة على كلّ مُسلم» لا يَسْتَلْزَم التّقليل من أهمّيّتها، فضلاً عن سلب الوجوب عنها، لوجود أدلّة أخرى تدلّ بوضوح على لزومها وثبوت الوجوب لها، وإنّ كان هذا الوجوب وجوباً غيريّاً ومقدّمياً. وكما يقول الشّهيد المطهريّ: فإنّ العلم يدور أمره بين أن يكون هدفاً بنفسه ومقصوداً لذاته، وبين أن يكون مقدّمةً للوصول إلى هدفٍ آخر. فإنّ كان مقصوداً لذاته، كان واجباً قطعاً، على حدّ وجوب أصول العقائد. وأمّا إن لم يكن كذلك، ولكنّ كان شيء من أهداف الإسلام منوطاً به، فإنّ الوجوب يثبت له أيضاً، تطبيقاً للقاعدة القائلة بأنّ مقدّمة الواجب واجبة ولو بمعنى اللابديّة العقلية. وعليه: يكون للعلم الواجب نوعان:

١. العلوم التي تُعالج المسائل الدّينيّة، ويكون تعلّمها تعلّماً للدّين نفسه.

٢. العلوم التي تجب لأنّ أداء الوظائف الشرعيّة والدّينيّة متوقّفٌ عليها،

وإن لم يكن لها وجودٌ في صميم الدين وداخله، وعلى سبيل المثال: لما كانت سلامة الأفراد جسدياً إحدى الضروريات الملحة في المجتمع الإسلامي، كأبي مجتبع آخر، فإن تعلم وتحصيل هذا العلم يتحول إلى واجب كفائي يُخاطب به - بدواً - أفراد هذا المجتمع قاطبةً. وكذلك، فإن التجارة والزراعة ومسائل الأمن والدفاع لما صار لها في عصرنا الحاضر متطلباتٌ ومُستلزمات، ليس أقلها الخبرة الكافية والتخصص العلمي والتقني، فإن الحصول على هذه المتطلبات والوصول إلى المستوى المطلوب من التخصص يُصبح أمراً واجباً يتعين على كافة المسلمين استيفاؤه بنحو فرض الكفاية^(٣٨).

إن الأدلة التي سبقت لإثبات أن علوم الطبيعة هي علومٌ واجبةٌ أيضاً تعتمد - بشكلٍ رئيسي - على عُصرين اثنين: أولهما: حاجة المسلمين الملحة إلى بعض هذه العلوم في وجودهم وبقائهم، والآخر: ارتباط عزة المجتمع الإسلامي وقدرته واستقلاله واكتفاؤه الذاتي بهذه العلوم من جهة آثارها العملائية المهمة التي تترتب عليها.

أما الأول، وهو: قوام حياة المجتمع بجملة من هذه العلوم: فالأصل في هذا الاستدلال، الذي أشرنا إليه مراراً، هو العلامة الغزالي، ولا بأس هنا بنقل نص كلامه، قال:

«العلوم التي ليست شرعيةً تنقسم إلى ما هو محمود وإلى ما هو مذموم وإلى ما هو مباح. فالمحمود ما يرتبط به مصالح الدنيا، كالطب والحساب، وذلك ينقسم إلى ما هو فرض كفاية وإلى ما هو فضيلة وليس بفريضة. وأما فرض الكفاية، فهو كل علم لا يُستغنى عنه في قوام أمور الدنيا، كالطب؛ إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان على الصحة، والحساب، فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والموارث وغيرها. وهذه هي العلوم التي لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج أهل البلد، وإذا قام بها واحدٌ كفى، وسقط الفرض عن الآخرين. ولا

يتعجب من قولنا: إنَّ الطَّبَّ والحساب من فروض الكفايات، فإنَّ أصول الصِّناعات أيضاً من فروض الكفايات، كالفلاحة والحياكة والسياسة، بل الحجامه، فإنَّه لو خلا البلد عن الحجام لتسارع الهلاك إليهم وخرجوا بتعريضهم أنفسهم للهلاك، فإنَّ الذي أنزل الداء أنزل الدواء، وأرشد إلى استعماله، وأعدَّ الأسباب لتعاطيه، فلا يجوز التعرُّض للهلاك بإهماله. وأمَّا ما يُعدَّ فضيلةً: فكالتمعُّق في دقائق الحساب وحقائق الطَّبِّ، وغير ذلك ممَّا يُستغنى عنه، ولكنه يُفيد زيادة قوَّة في القدر المحتاج إليه ...» (٣٩).

وهذا الدليل، وإنَّ كان يُثبت الوجوب لبعض العلوم غير الشرعيَّة أيضاً، إلَّا أنَّه - ومن جانبٍ آخر - أخصَّ من المدعى؛ لأنَّه إنَّما يُثبت الوجوب لخصوص العلم الذي يصدق عليه أنَّه ضروريٌّ لتلبية حاجات المجتمع، وأنَّه لا يُستغنى عنه في قوام أمور الدُّنيا، وهو ما لا يتوفَّر في كلِّ العلوم الشرعيَّة، كما لا يخفى. وأمَّا الدليل الثاني - الآتي ذكره عمَّا قليل - فدائرة العلوم الواجبة التي تُثبت به أكثر سعةً وشموليَّةً.

وأما الدليل الثاني، وهو: ارتباط قوَّة المجتمع واستقلاله بهذه العلوم، فقد تمسَّك الشَّهيد المطهريّ - في مقام إثبات وجوب العلوم الطَّبيعيَّة المحتاج إليها وبيان أهميَّتها - بأصلين اثنين:

(أ) ضرورة أنَّ يكون المجتمع عزيزاً مُقتدراً ومُستقلاً؛ فإنَّ المجتمع الذي يدعو إليه الإسلام ويريده ويرغب المُسلمين به إنَّما هو المجتمع العزيز، المُستقلُّ، الذي يكتفي بذاته، وينهض بكرامته. وأمَّا المجتمع الذي يكون خاضعاً لسلطة وهيمنة الكفَّار ومُحتاجاً إليهم، فهو مجتمعٌ مذمومٌ منهى عنه في آياتٍ عدَّة، منها: قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]. وبموجب هذه الآية وأمثالها، قال فقهاء الإسلام: إنَّ كلَّ عملٍ يؤدِّي إلى تفوُّق الكفَّار وغلبتهم على المُسلمين فهو عملٌ محرَّم، وإنَّ كلَّ عملٍ يكون لازماً لقوام المجتمع

الإسلامي فهو عملٌ واجبٌ، ولو بنحو فرض الكفاية. كما أننا نقطع بأن الله تعالى لا يرضى للمسلمين بأن يُعاني أحدهم آلام المرض وتباريحه، لا شيء، إلا لأن المسلمين ليس فيهم طبيبٌ كفوء، أو لأنهم لا يمتلكون الوسائل والأدوات الكافية لعلاجهم، مما يضطره: إما إلى البقاء في حالة المشقة والحرَج، وإما إلى طلب العلاج في غير أمة الإسلام والمسلمين. والله لا يرضى للمسلمين أن يعيشوا حالة الاستجداء بغيرهم من الشعوب التي لا تدين ولا تؤمن بالإسلام، ولا بأن يكون هؤلاء هم الذين يتولّون مهمّة رعاية فقراء المسلمين ومدّهم وتزويد مساكينهم بالمتطلبات الأوليّة في حياتهم ومعاشهم، أو بأن يُشرفوا هم على عمليّة تعليم أولادهم، أو بأن يقوموا هم بحمايتهم وحراسة أمنهم، كما نرى ذلك حاصلًا فعلاً في كثيرٍ من الدّول الإسلاميّة، بشكلٍ أو بآخر^(٤٠).

ب) العلم هو الرّكن والأساس والعُمدة لنيل العزّة والاستقلال؛ فإنّ التحوّلات المتسارعة التي شهدتها السّاحة العالميّة جعلت العلم المحور الأهمّ، أو الوحيد، الذي تدور حوله وتتوقّف عليه كافّة أفعال البشر وأعمالهم ومختلف شؤونهم وأحوالهم، بحيث لم يعد من الممكن أن يُنفذ ويُنجز عملٌ من الأعمال إلاّ بطريق باب العلم والاستناد إليه والولوج إلى كافّة المسائل من خلال بابه هو، وبالاعتماد على الرّؤية والمشروع الذي يوفره العلم ويطرّحه على بساط البحث. لقد كان المجال الأمنيّ والدّفاعيّ والعسكريّ والمخابراتيّ وما يتعلّق بتشكيل الجيش وتجهيزه هو العنصر الأهمّ الذي كانت حياة الدّول وبقاؤها وصمودها في وجه التحديات والأطماع الدّوليّة والعالميّة تتوقّف عليه فيما سبق، إلاّ أنّ ما حدث في عصورنا الحاليّة أنّ هذه الدرجة العالية من الأهميّة والضرورة الحياتيّتين انتقلت إلى العلم لكي يُصبح هو - دون غيره - العنصر الأهمّ الذي لا يُستغنى عنه في حياة أيّة دولةٍ من دول العالم، وفي ضمان البقاء والاستمراريّة، ولكي يتحوّل هو ليكون المظلة الوحيدة التي تجمع تحت ظلّها قيادتها وقوانينها

وإرشاداتها كافة العلوم والمجالات والميادين والمستويات. واليوم، يمثل العلم والتكنولوجيا العامل الحقيقي والسبب الأهم الذي يقف وراء تقدم الشعوب والدول وازدهارها ونهوضها وتطورها، أو وراء تراجعها وضعفها وتخلفها، وإن التأخر عن ركب العلم والتكنولوجيا سينعكس، لا محالة، تأخراً في كل شيء، وتخلفاً على كل مستوى وصعيد^(٤١).

وإذا قمنا بجمع هذين الأضلين المذكورين، وضممنا أحدهما إلى الآخر، كنّا - يقيناً - أمام النتيجة التالية، وهي: أنه لكي نتخلص من وطأة الوضع الراهن والتعقيدات الحالية التي نواجهها في دولنا وفي مجتمعاتنا، ولكي نتمكن من تحقيق العزة والمنعة والقوة والاستقلال لمجتمعنا الإسلامي، فليس أمامنا إلا خياراً واحداً، وحلّ واحد، وهو أن نسعى جاهدين لامتلاك حقنا الطبيعي في الاعتماد على أنفسنا والاستقلال عن الآخرين والاكتفاء الذاتي على كافة الصعد الثقافية والسياسية والاقتصادية. وهو ما يستدعي - بدوره - لزوم العمل على إعداد المتخصصين وأهل الكفاءة والمتميزين في كافة الاختصاصات، وتوفير الإمكانيات العلمية والفنية اللازمة والمحتاج إليها في المجتمعات الإسلامية. أي: أنه يجب على المسلمين أن يبادروا إلى تعلّم وتحصيل العلوم والفنون التي تكون بمثابة وسيلة نافعة في تأمين الاستقلال ورفع الاحتياجات، وبهذا الطريق وحده يتسنى لهم الحصول على حقوقهم ومكتسباتهم من العزة والاستقلال والقدرة.

وبعبارة أخرى: فإذا كانت بلاد المسلمين مهددة بالمؤامرات والهجمات التي تشنها وتحيكها قوى الكفر والشيطنة، فلا سبيل أمامهم، للحفاظ على استقلال بلادهم وحفظ كياناتهم، إلا أن يتصدوا لهذه الهجمات والمخاطر، ولكي يتمكنوا من الصمود في هذا التصدي والمواجهة، فعليهم أن يعدّوا العدة وأن يجهّزوا أنفسهم بالوسائل العلمية والفنية والأساليب المتطورة والتقنية والتي تتلاءم مع

العصر ومقتضيات الحداثة.

وبهذا يتّضح: أنّ المطلب الأساس الذي يعتمد عليه هذا الاستدلال، هو أنّ المجتمع الإسلاميّ في حاجةٍ ماسّةٍ إلى هذه العلوم، غاية الأمر: أنّ الحاجة فيه فُسّرت بتفسيرٍ أوسع وأعمّ، بحيث صار لمفهومها القدرة على أن يشمل تلك الحاجات التي تنشأ عن المواجهة والتصادم بين المجتمعات الإسلاميّة والأخرى الكافرة.

إنّ هذه المسألة تُعدّ من أوضح وأبرز مصاديق الدّفاع الواجب، والذي يُفتي فيه الإمام الخمينيّ رحمته الله:

«لو خيفَ على حوزة الإسلام من الاستيلاء السّيّاسيّ والاقتصاديّ المنجرّ إلى أسرهم السّيّاسيّ والاقتصاديّ ووهن الإسلام والمُسلمين وضعفهم، يجب الدّفاع بالوسائل المشابهة والمقاومات المنفيّة كترك شراء أمتعتهم وترك استعمالها...»^(٤٢).

قاعدة نفى السبيل:

من جُملة المقدمات التي يعتمد عليها الدّليل الثاني الآنف الذّكر: قاعدة نفى السبيل للكافرين على المُسلمين، فكان لا بدّ من التعرّض - بإيجازٍ - لهذه القاعدة وتطبيقها في المقام لإثبات الوجوب للعلوم الطّبيعيّة:

تُعتبر هذه القاعدة إحدى القواعد الفقهيّة المشهورة، التي عمل بها الفقهاء وطبقوها في موارد كثيرة، ومعنى هذه القاعدة - بحسب ما يُستفاد من كلمات غير واحدٍ منهم -: أنّ الله تبارك وتعالى لم يجعل، ولن يجعل، في عالم التشريع حكماً يكون موجباً لكونه سبيلاً وسُلطاناً للكافرين على المؤمنين. وهذا يعني: أنّه لو وردنا أيّ دليلٍ أوّلٍ، وكان هذا الدّليل يُثبت - بإطلاقه أو بعمومه - حكماً يُوجب نفوذ سُلطان الكافر على المُسلم، فلا بدّ، بمقتضى قاعدة نفى السبيل، من رفع اليد عن ظهور هذا الدّليل الإطلاقيّ أو العموميّ، ولا يجوز التمسك به

لإثبات الحُكْم المذكور؛ وذلك لأنَّ نسبة هذه القاعدة إلى سائر الأدلَّة هي نسبة الحاكم إلى المحكوم، بمعنى: أنَّها تكون شارحةً ومفسِّرةً لمعنى هذه الأدلَّة وحجَّتِها ناظرةً إليها ومبيِّنةً لحقيقة وحدود ما هو المقصود منها. ومن الموارد التي تُطبَّق فيها هذه القاعدة: ما يقوله الفقهاء من أنَّ الكافر لا يُمكن له، بحالٍ من الأحوال، أن يملك أحداً من المُسلمين، ولا أن يكون له بسبب هذا الملك سُلطةٌ ونفوذٌ عليه، كما لا يجوز استجاره للعبد إذا كان مُسْلِماً، إلى غير ذلك من الفروع التي طُبِّقت هذه القاعدة في موردها.

وقد استدلَّ لهذه القاعدة بالآية ١٤١ من سورة النساء، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾. ومما تمسَّك به الفقهاء لإثباتها أيضاً: الحديث المشهور عن رسول الله ﷺ: «الإسلام يعلو ولا يُعلَى عليه، والكُفَّار بمنزلة الموتى لا يحبون ولا يرثون»^(٤٣).

ومما استدلَّ المحقِّق البجنوردي به لإثباتها: مناسبات الحُكْم والموضوع، بمعنى: أنَّ شرف الإسلام وعزَّته مُقتضى، بل علَّة تامَّة، لأنَّ لا يجعل في شرائعه وأحكامه ما يُوجب ذلَّ المُسلم وهوانه، وقد قال الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]..

وانتهى المحقِّق المذكور بعد ذلك إلى القول بأنَّ:

الإنصاف أنَّ الفقيه يقطع بعد التأمل فيما ذكرناه بعدم إمكان جعل مثل ذلك الحُكْم الذي يكون سبباً لهوان المُسلم ودُّله بالنسبة إلى الكافر، مُعتبراً أنَّ هذا الحُكْم ليس من باب استخراج الحُكْم الشرعيِّ بالظنِّ والتخمين، كي يكون مشمولاً للأدلَّة النَّاهية عن العمل بالظنِّ والقول بغير علمٍ والافتراء على الله، بل هو من قبيل تنقيح المناط القطعيِّ، بل يكون استظهاراً من الأدلَّة اللَّفْظِيَّة. ثمَّ قال: وعندي أنَّ هذا الوجه أحسن الوجوه للاستدلال على هذه القاعدة^(٤٤).

ومع أنّ هذه القاعدة تُعدّ من مسلّمات الفقه وبديهيّاته، إلّا أنّ تطبيقها في مسألة وجوب العلوم غير الشرعيّة لا يخلو من بحث؛ لأنّ أقصى ما تدلّ عليه هذه القاعدة: أنّ الله تعالى لا يشرّع حكماً يوجب تسلّط الكافر على المسلم. ولكنّ ليس هذا ما نبحت عنه، بل ينصبّ بحثنا على هذه المسألة، وهي: أنّه لو فرضنا أنّ الضّعف، ولسببٍ من الأسباب، أصاب المسلمين في مجالات الفكر والاقتصاد والسياسة، ممّا أوجب غلبة الكافرين عليهم في هذه المجالات، ففي هذه الحالة، هل يُمكن بالاستناد إلى هذه القاعدة أن يُقال: يجب على المسلمين السّعي والمبادرة لتخليص أنفسهم من هذا الوضع الضّعيف أم لا؟ فلو أثبتنا وجوب ذلك عليهم، كان لا بدّ من القول بأنّه يجب عليهم أيضاً العمل على تحصيل العلوم وتوفير المقدمات اللاّزمة.

إنّ القول بشمول القاعدة لمثل هذه الموارد يحتاج إلى مزيد بحثٍ وتحقيق؛ إذ على الأقلّ، إنّ المفهوم الفعليّ لهذه القاعدة قاصر عن شمولها.

العلوم المستحبّة، المكروهة والمحرمّة:

من العلوم ما هو مستحبّ، ومنها ما هو محرّم، ومنها ما هو مكروه أو مباح. فالمستحبّ كتعلّم نفل العبادات والآداب الدنيّة ومكارم الأخلاق وشبه ذلك. والمحرّم كالسّحر والشّعبة. والمكروه هو كلّ علمٍ يوجب إهدار الوقت بالبطالة، وتضييع العمر بغير فائدة، كأشعار المولّدين المشتملة على الغزل غير المشتمل على الحرام. وأمّا العلوم المباحة، فكمعرفة التواريخ والوقائع والأشعار الخالية عن الباطل واللغو ممّا لا يصدق عليه أنّه تضييع للوقت والعمر بلا فائدة، وممّا لا يدخل فيما يجب تعلّمه وتعليمه. وأمّا العلوم الباقية، كالطبيعيّات والرياضيّات والعلوم الفنّيّة والصناعيّة، فأكثرها - بالنظر إلى ذاته - موصوفٌ بالإباحة، وقد يُمكن جعلها مندوبةً لتكميل النّفس وإعدادها وتجهيزها لغيرها

من العلوم الشرعية بتقويتها للقوة النظرية. كما أنها قد تحرم في بعض الأحيان، وذلك إذا كان الاشتغال بها مُستلزمًا للتقصير في العلم الواجب عيناً أو كفايةً، كما يتفق كثيراً في زماننا هذا لبعض المحرومين الغافلين عن حقائق الدين. ومن هذا الباب: الاشتغال في العلوم التي هي آلة العلم الشرعيّ زيادةً على القدر المعبر منها في الآلية مع وجوب الاشتغال بالعلم الشرعيّ، لعدم قيام مَنْ به الكفاية به، ونحو ذلك^(٤٥).

هذه. وقد أشرنا فيما سبق، إلى أنّ هذه العلوم التي حكمنا بالإباحة لها ذاتاً قد يعرض عليها ما يُبدّل الحكم الثابت لها إلى حكمٍ بالوجوب، كما لو توقّف عليها نظم وقوام أمور المعاش وحياة المجتمع.

تأثير العلوم الواجبة في رشد العلم وتطوره:

لكي نتمكن من معرفة الأثر الذي تتركه العلوم الواجبة على رشد العلوم وتوسّعها وتطوّرها، لا بدّ من معرفة الماهية التي تشكّل حقيقة العلم من الناحية الاجتماعية، كما لا بدّ من دراسة العلم من زاوية أنّه ظاهرة من ظواهر الاجتماع، وشكل من أشكاله؛ لأنّه بهذه الحيثية كائن اجتماعيّ يُمكن دراسة علاقته بسائر الظواهر الاجتماعية بكلّ يسرٍ وسهولة، ومدى تأثيره أو تأثره بها. وقبل الخوض في ذلك تفصيلاً، نرى من المناسب الإشارة - إجمالاً - إلى كيفية وأنحاء تأثير المجتمع في العلم، على أمل أن يُسهّم ذلك في إعطاء صورة واضحة عن ماهية العلم وأبعاده الاجتماعية.

وفي هذا المجال، ثمة نظريّتان يُمكن من خلالها التطرّق إلى البحث في هذا الموضوع:

النظرية الأولى: فلسفيّة معرفيّة.

ترى هذه النظرية أنّ تأثير المجتمع في العلم هو بمعنى: تأثير البيئة الثقافية

والظروف الاجتماعية على فهم الإنسان ومعرفته ومستوى إدراكه. وقد مُنيت هذه النظرية بشيء من الإفراط، لجهة أنها تتغافل عن المنطق الداخلي والقيمة المعرفية الذاتية للعلم، كما أنها تُنكر القدرات والمؤهلات التي يمتلكها عقل الإنسان في مجال المعرفة والكشف عن الحقائق، لتبني مبدأ النسبية في الفهم، الذي، بدوره، جرّ القائلين بهذه النظرية إلى القول بأنه ما من علم ولا معرفة إلاّ وهو فاقدٌ للحقانية والاعتبار.

والنظرية الثانية: نظرية اجتماعية.

والمهم في هذه النظرية أنّ المعنى المقبول لتأثير المجتمع في العلم، هو أنّ البيئة والظروف الاجتماعية تترك أثرها على العلم من حيث ازدهار الحركة العلمية أو ركودها، لا أنّ المجتمع يترك أثره على فهم الأفراد، أو على صيرورة العلم أمراً له حقيقة، أو لا حقيقة ولا وجود له، في الواقع.

وبعبارة أخرى: فإنّ أقصى دور يُمكن لظروف المجتمع وخصائصه ومكوّناته الثقافية أن تلعبه هو أنها تحدّد أو تزيد من انتشار العلم وازدهاره في مجتمعات من المجتمعات، من دون أن تكون له القدرة على أن تطال بتأثيرها الماهية والمضمون والمحتوى الذي يحمله هذا العلم ويؤدّيه.

وعلى أساس هذه النظرة الاجتماعية، فإنّ العلم والفنّ يغدو واحداً من أهمّ الفعاليات الاجتماعية التي تخضع لتأثير منظومة كبرى من الحاجات والضغوط والإنجازات والمعطيات التي تميز طبقة عن أخرى، ومجتمعاً عن آخر. وإنّ تطوّر العلم وتقدّمه - بناءً على هذه النظرة - ليس مجرد حصيلة لنبوغ العلماء أو تطوّر هذا العلم في صميمه وفي قرارة مسأله، فقط، وإنّما هو نتاج ومحصول لمجموعة أوسع من العوامل الاجتماعية والسياسية والجغرافية التي تُلقِي بظلالها على الساحة الاجتماعية^(٤٦).

وهنا يطفو على السطح الدور المهم الذي تلعبه التصوّرات والمبادئ الثقافية

التي يمتلكها أبناء المجتمع عن العلم وأهميته؛ لما لذلك من تأثير فعّالٍ في رسم وتشكيل الدوافع إليه، وتحفيز الطاقات واستنفار الإمكانيات في سبيل خدمته وتوسعته وتطوّره. ولعلّ أبرز مثالٍ على ذلك، الانفتاح الذي عاشه الغرب، ولا يزال، تجاه العلوم التجريبية والمادية، هذا الانفتاح الذي سبّبه وأدّى إليه المكانة البالغة الأهمية التي يعطيها أبناء المجتمع الغربيّ للحاجات المادية، ممّا أدّى إلى تركيزهم وتوجّه اهتماماتهم نحو العلوم التي تُعنى برُفع هذه الاحتياجات، فكان أنّ لاقت العلوم التجريبية في هذه المنطقة من العالم تفوّقاً قلّ أو انقطع نظيره.

وعلى هذا الأساس، يُمكن القول: بأنّ المذهب الذي يكون بأفكاره وتعاليمه سائداً في المجتمع، وبالأخصّ في المجتمعات الدّينية، يُمكن له أن يكون على صلة وثيقة بالعلم. كما أنّ المذهب الدّاعم للعلم والذي تنصّ تعاليمه على أهميته وقيّمته يُمكن له أن يكون عاملاً قوياً في تطوّر العلم واتّساعه.

ومنّ تعرّض لهذه الصّلة الوثيقة والرّابطة المميّزة التي تجمع بين العلم وبين المذاهب الفكرية وتحديث عنها المفكر مرتون (Merton)، الذي أشار إلى أنّ النّهضة الحضارية والعلمية الشّاملة التي شهدتها انكلترا إبان القرن السابع عشر سببها الأهم، تلك الرّابطة القويّة التي جمعت بين العلم والحضارة وبين مجموعة التعاليم والعقائد والقيم التي كان المذهب البروتستانتيّ يحتوي عليها آنذاك.

وقد أوضح مرتون في تحليله هذا: أنّ العلم هو كسائر الظواهر والفعاليات الاجتماعية، إذا ما أراد أن يتوسّع ويزدهر، فهو بحاجة إلى القيم الاجتماعية والثقافية كي تغطيه وتكون مساندة له ومدافعة عنه. لقد وافق مرتون على القول بوجود صلة تربط بين تعاليم المذهب البروتستانتي وبين رشد العلم التجريبيّ والتوسّع الذي حلّ فيه - وهي الفكرة التي كان ماكس وبر (Max Weber) أوّل من أسّس ونظر لها - إلّا أنّه رأى أنّ تقدّم العلم وتطوّره لا يكفي فيه أن

تكون تعاليم المذهب تحثّ عليه وتدعو إليه، بل لا بدّ أن ينضمّ إلى ذلك الدّور الإيجابي الذي يؤدّيه كلّ من: المنافع الاجتماعيّة، والتنمية الاقتصاديّة، والقدرة العسكريّة.

وكيف كان، فإذا رجعنا إلى عقائد المذهب البروتستانتي الذي اعتبره مرتون ووبر مفيدتين ونافعين في تقدّم العلم وازدهاره، لوجدنا أنّها عبارة عن: «القول بوجود حياةٍ أُخرويّة لا يعني صرف النظر بالكلّيّة عن شؤون هذه الدّنيا وأمورها وأحوالها، بل على العكس من ذلك، فإنّ حقيقة العظمة الإلهيّة لا تُدرّك ولا تُنال إلّا بالجدّ والاجتهاد في هذا العالم، والعمل الدّؤوب دون كلل أو ملل. وإنّ كلاً من حكمة الله تعالى وقُدّرتِه وعظيم فضله وإحسانه يُمكن أن تُشاهد آثاره في خلقه. وهو ما يُكسب قراءة عالم الطّبيعة والتأمّل والتعمّق فيه أهميّة قصوى، من حيث إنّهُ يُمكن الإنسان من التعرّف بشكلٍ أكبر على أفعال الله عزّ وجلّ وأوصافه وكمالاته. ومن وجهة نظر هذا المذهب: فإنّ التأمّل المحض والتعمّق الخالص لا نفع ولا قيمة له إذا ما اقترن بالبطالة والخمول والكسل، وإنّما التأمّل النّافع هو ذاك الذي يمتزج بالحركة والنشاط العلميّين، اللّذين اعتبرهما هذا المذهب: وسيلةً لإظهار الإيمان وإبراز المُعتقد عمليّاً. وقد كان انتشار هذا المذهب في وقتٍ واحدٍ مع بروز النّزعة والميل نحو التجارب والاختبارات لدى أبناء ذلك العصر، ممّا أدّى إلى كثرة ممارستهم لعلوم الطّبيعة التي وجدت في كلّ هذه المُعطيات الأرضيّة الخصبة والمناسبة»^(٤٧). وبحسب هذه النّظرة، فإنّ الفضل في كلّ التقدّم العلميّ الذي شهده الغرب يعود إلى الدّين، وينطلق من بين أحضانه.

وبالنّظر إلى كلّ ما تقدّم، يتّضح لنا: أنّ المنزلة والمكانة والنّفوذ والمجال الواسع الذي أولاه الإسلام للعلوم النّافعة والمفيدة، له أكبر الأثر في رشد هذه العلوم وازدهارها وتوسّعها في المجتمعات والمحافل الإسلاميّة. لا لمجرد أنّ

النصوص الإسلامية طافحة عن آخرها بالحث على تعليم العلم وتعلّمه، بل - أيضاً - لأنّ تعيين الإسلام وتحديد مجالات هذه العلوم، وبيانها لمواضع الاستفادة منها، ومقدار نفعها، ودعوته المسلمين إلى تطبيقها والتأكيد على لزوم إخراجها - أي: العلوم - عن كونها مجرد أمر نظريّ وفكريّ لتتحوّل إلى أمر عمليّ له وجودٌ فعليّ يشعر به الناس في صميم حياة المجتمع، كلّ هذا، له أكبر الأثر وأعظم النفع. وفيما يتعلّق بمجالات الانتفاع بالعلم الواجبة يُمكن الإشارة إلى النقاط التالية:

أ. حثّ المؤمنين وتوجيههم نحو العلوم المختلفة:

ما دُمنا قد اعتبرنا المجال الذي تحتله العلوم الواجبة في الإسلام والهامش الذي تتحرّك فيه مجالاً وهامشاً وسيعاً، وما دامت هذه العلوم - بناءً على بعض الأدلّة المتقدّمة التي يُمكن القبول بها والموافقة عليها - تتناول عدداً كبيراً من العلوم، فإنّ من أهمّ النتائج والآثار التي يُمكن أن تترتّب على ذلك: أن تكون الأرضيّة المناسبة لتوجّه العدد الأكبر من المؤمنين نحو العلوم والاختصاصات المتنوّعة - أن تكون هذه الأرضيّة - قد توفّرت وتهيّأت، ولم يُعدّ هناك ما يُعيق تحقّقها وتفعليها، على الأقلّ، من ناحية نظريّة وعقائديّة، بمعنى: أن المؤمن الذي تتوفّر له الرّغبة في دراسة العلوم وتحصيلها، وهو ملتفتٌ إلى مدى أهميّتها، لن يجد في عقائده كلّها، ولا في شيءٍ من التكاليف الموجهة إليه، ما يمنعه من الإقدام على هذه العلوم، والسّير خلف رغبته هذه، والتي كان قد انطلق فيها من وعيه لأهميّة العلم وآثاره ومنافعه.

وإذا ما قُدّر لهذا النّزوع والاندفاع والميل نحو العلم واختصاصاته، بتشجيعٍ إلهيّ، وبحثٍ من الدّين نفسه، إذا ما قُدّر أو تسنّى له أن يتحوّل إلى ثقافةٍ تسود المجتمع ككلّ فيحملها كافّة أبنائه، فإنّ من شأن ذلك أن يغطّي جزءاً كبيراً من ثقافة ساكني هذا العالم، وأن يُعيد دولاّب الحضارة إلى الحركة والنّهضة الكبرى

إلى الحياة من جديد، النهضة التي تعيش الدنيا، لا لأجل أنها هي الهدف، بل ما وراءها؛ والنهضة التي تضع كلاً من التقدم العمراني والنمو الاقتصادي والتطور التكنولوجي في إطاره السليم، وهو: وصول الإنسان إلى كماله المنشود، ونيله لمقام السعادة الحقيقية.

وعندما يصبح تحصيل الكثير من الفنون والعلوم جزءاً من وظائف المؤمنين، فلن يبقى التوجه نحو هذه العلوم مختصاً بطلاب الدنيا وأهلها، ولن يكون بمقدور هؤلاء أن يحتكروا القرار السياسي والقدرة الاقتصادية والفنية، بل ستمكّن من مشاهدة طبقة كبيرة من المؤمنين والمتدينين من أهل الاختصاص، ومعه: ستكون الفرصة أمام المجتمعات الإسلامية سانحة والمجال مفتوحاً لكسب القدرة الاقتصادية والكفاءة الفنية اللازمة. هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، فإنّ كلّ فاصلة كانت تفرّق وتحوّل بين العلوم الدنيوية والأخروية ستزول وتتلاشى، أو أنّها على الأقل، ستخفّ وتقلّص. لأنّ العلوم الدنيوية، على هذه الرؤية التي أسلفناها، واقعة في طول العلوم الدنيوية الأخروية لا في عرضها. الأمر الذي من شأنه أن يُلغي جميع المشاعر التي يُمكن أن تتولّد لدى المتخصصين الفنيين والتي تفرّق بينهم وبين المعارف الدنيوية، ليحلّ محلّها الشعور بالحاجة إلى هذه المعارف وكونها ضرورية وملحة حتّى بالنسبة إليهم. كما اتّفق ذلك في الأيام الذهبية التي مرّت بها الحضارة الإسلامية، حيث خرج كبار العلماء والمشاهير في كافّة التخصصات والمجالات من رحم المحافل الدنيوية الذين، وبالرغم من تربّعهم على سدّة العلم الرفيعة وقمّته السامقة، لم يطأطأوا رؤوسهم لغير الله تبارك وتعالى ولم يُظهروا خضوعهم إلّا له وعُرف عنهم الانقياد التام والالتزام الكامل بالأوامر والتكاليف التي جاء بها رسل الله عزّ وجلّ.

ب. عدم اختصاص التسهيلات والإمكانات المالية بالعلوم الدنيوية:

أكد الإسلام كثيراً على طلب العلم، وحثّ المسلمين على تحصيله ودراسته والتداول فيه، وأدّى هذا التأكيد والتشديد إلى إقبال المسلمين عليه إقبالاً كثيفاً، وعلى مرّ التاريخ، وخصّصوا له الأموال الطائلة، من أهمّها: ما يُسمّى الدّين الإسلاميّ باسم: الأوقاف، والتي تُعدّ ركناً أساسياً في اقتصاد المجتمعات الإسلاميّة. إنّ باستطاعة كلّ من يتصفّح التاريخ أن يطلع على المقدار الكبير الذي خصّسه الإسلام منها للمراكز والمعاهد والمؤسسات والجهات العلميّة، من المدارس والمكتبات ومراكز البحوث إلى أفراد العلماء والمتعلّمين، حتّى أنّ العديد من المدارس ليس لها من الموارد الماليّة ما تعتمد عليه، حتّى في رواتب الأساتذة والطلّبة ومصاريفها المختلفة وتأمين الكتب والتجهيزات اللازمة، إلّا ما تدرّره عليها الأوقاف الإسلاميّة. ونستطيع ملاحظة ذلك بوضوح في المدارس الموقوفة التي شُيّدت في العواصم والحوضر الإسلاميّة الكبرى، كدمشق والقاهرة وبغداد وفارس وأصفهان وغيرها^(٤٨)..

ومن الموارد المهمّة الأخرى التي تشكّل مصرفاً أساسياً للوجوه والأموال الشرعيّة، وبخاصّة ما يُعرّف لدى فقهاء المسلمين الشّيعيّة بـ (سهم الإمام)، هو الدّفاع عن الدّين عبر نشر العلوم الدّينيّة في المجتمع وتعزيز علاقات أبناء هذا المجتمع بالثقافة الإسلاميّة، وبالعلم بشكلٍ عامّ. وكمثالٍ على ذلك، نستذكر هنا المرجع الدّينيّ السيّد محسن الحكيم رحمته الله، والذي كان يشترط في جواز صرف سهم الإمام، إحراز أنّ الإمام، وهو صاحب المال الأصليّ، يرضى بأن يتمّ إنفاق هذا المال في المورد المقصود. فإنّه رحمته الله حصر الموارد التي يُمكن فيها إحراز هذا الرّضا بموردَيْن: أحدهما: حفظ الدّين، وإقامة الشّعائر الدّينيّة، وتبليغ الشّريعة والتصديّ لأعدائها، وتأمين الحاجات الصّوريّة للمؤمنين والمتديّنين، ومدّ يد العون تجاههم، ورفع مشاكلهم وهمومهم؛ إذ هم عيال صاحب هذا الحقّ، جاعلاً أهمّ مصارفه في هذا الزّمان: «مؤونة أهل العلم، الذين يصرفون أوقاتهم

في تحصيل العلوم الدينية، الباذلين أنفسهم في تعليم الجاهلين، وإرشاد الضالّين، ونصح المؤمنين ووعظهم، وإصلاح ذات بينهم، ونحو ذلك، ممّا يرجع إلى إصلاح دينهم وتكميل نفوسهم، وعلوّ درجاتهم عند ربّهم تعالى شأنه»^(٤٩).

وبالرّغم من أنّ أوقاف المسلمين لا اختصاص لها بالعلوم الدّينية، بل ثمة أوقافٌ لهم في سائر المجالات والعلوم^(٥٠)، إلّا أنّ هذا لم يمنع - في بعض الأحيان - أن يُستفاد من الأوقاف الدّينية والأموال الشرعيّة في تمويل الدّراسات والمشاريع التي تتعلّق بالعلوم غير الدّينية. وهذا، وإن كان قليلاً أو نادراً - لقلة الاهتمام نسبياً بهذه العلوم في المراكز والمعاهد الدّينية - إلّا أنّ من شأن هذه العلوم، فيما لو تحوّلت بفعل تبدّل الظروف والأحوال إلى علومٍ واجبة، أن تلقى تركيزاً واهتماماً في المحافل الدّينية، وأن تُرصد لها المبالغ والإمكانات الكافية، ولا سيّما إذا كان يتوقّف عليها نشر الدين وإبلاغ أحكام الشرع. وممّا ينبغي الالتفات إليه هنا: أنّ العلوم الطّبيعيّة لا تحتاج إلى مؤونة زائدة لجذب أنظار النّاس إليها، وذلك بسبب النتائج الملموسة والآثار المادّية التي تترتب عليها، ومن هنا، فلا ينبغي أن يُنقّ عليها من الأموال الشرعيّة إلّا بمقدار ما يحتاجه المجتمع الإسلاميّ، بعمومه، منها، وأمّا المصالح الشّخصيّة أو الفتويّة الضّيقة فلا ينبغي الاعتداد بها في هذا المقام.

ج. تطوّر العلوم المختلفة في المجتمعات الإسلاميّة:

إنّ اللازم الحتميّ الذي يترتب على تحقّق الأمرين السّابقين: أن تبلغ العلوم، بشتّى أنواعها، رُشدّها وكماها في المجتمعات الإسلاميّة، وبروز مظاهر النّزعة الشّعبية والميل نحو دراستها والبحث عنها، وتوفّر الإمكانات اللاّزمة لها. وبما أنّ طلب العلم - في المنظور الإسلاميّ - يُعدّ حاجةً أساسيّةً لبني البشر، تأتي في الرّتبة بعد احتياجاتهم الأوّليّة والضروريّة مباشرةً، فلا بدّ من العمل على توفير الحد الأدنى من الشّروط الاقتصاديّة ومتطلّبات العمل؛ لئلاّ يشغل النّاس عن

العلم وطلبه بتأمين لقمة عيشهم التي لا يجدونها، في ظل الظروف السيئة، إلا بشقّ الأنفس. والمستوى الوعي الذي يحمله أبناء المجتمع الإسلامي حول قيمة العلم ومكانته، الأثر الكبير في تسريع هذه العملية، أعني: عملية تأمين الشروط اللازمة والظروف الملائمة التي تتيح للباحثين أن يتفرّغوا للعلم وأبحاثه. كما يقول الإمام السّجاد عليه السلام - فيما رُوِيَ عنه -: «لو يَعْلَمُ النَّاسُ ما في طلب العلم طلبوه، ولو بسفك المَهْجِ وخَوْض اللّجج»^(٥١).

* * *

الهوامش:

- (١) نُشِرت هذه المحاضرة في كتاب: (ده گفتار)؛ ومن جُملة الموارد التي تعرّض فيها عليه السلام لهذا الموضوع أيضاً: كتاب: بيست گفتار ٢٤٧ - ٢٦٤؛ مجموعه آثار ٦: ٣٥، و ٢١: ٣٢٦ - ٣٢٩؛ وتعليم وتربيت در اسلام ٣٠، نشر وطباعة: انتشارات صدرا ١٣٦٧ هـ ش، قم.
- (٢) المتقي الهندي، علاء الدين علي، كنز العمال في سنن الأفعال والأفعال ١٠: ١٣٠ - ١٣١، ضبط وتفسير: الشّيخ بكري حياني، تصحيح وفهرسة: الشّيخ صفوة السّقا، نشر: مؤسسة الرّسالة ١٤٠٩، بيروت. والنّوري، الميرزا حسين، مُستدرك الوسائل ١٧: ٢٤٩، نشر وتحقيق: مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث ١٤٠٨، بيروت.
- (٣) الحرّ العاملي، محمّد بن الحسن، وسائل الشّيعه ٢٧: ٢٨ - ٢٩، كتاب القضاء، أبواب صفات القاضي، باب عدم جواز القضاء والإفتاء بغير علم، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث، الطّبعة الثانية ١٤٠٨، قم.
- (٤) المتقي الهندي، كنز العمال ١: ٤١، مرجع سابق.
- (٥) الطبرسي، أمين الإسلام، الفضل بن حسن، مجمع البيان في تفسير القرآن ٢: ٣٣١، نشر: مؤسسة الأعلميّ للمطبوعات ١٤١٥، بيروت.
- (٦) المظفر، الشّيخ محمّد رضا، أصول الفقه ١: ٩٢ - ٩٤، ط انتشارات اسعيليان، قم.
- (٧) العاملي، الشّهيد الثاني، الشّيخ زين الدّين بن علي، منية المريد في آداب المفيد والمُسْتفيد: ٣٧٩، تحقيق رضا المختاري، طباعة ونشر مكتب الإعلام الإسلامي ١٤٠٩، إيران؛ وراجع أيضاً: النّوري، الإمام أبو زكريّا، محيي الدّين، المجموع (السّرح المهذب للشيرازي) ١: ٦٢، تحقيق

وتعليق وتتميم: محمد نجيب المطيعي، الطبعة الأولى، نشر دار إحياء التراث العربي ١٤٢٢، بيروت.

(٨) المبيدي، رشيد الدين، أحمد بن سعد، كشف الأسرار وعدة الأبرار ٣: ٢٤٤، في ذيل الحديث عن الآية ٩٨ من سورة المائدة، تحقيق: علي أصغر حكمت، نشر وطباعة أمير كبير ١٣٧١ هـ ش، الطبعة السادسة، طهران.

(٩) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي ١: ٣٢، كتاب فضل العلم، باب صفة العلم وفضله وفضل العلماء، الحديث الأول، تصحيح وتعليق: علي أكبر غفاري، الطبعة الرابعة ١٣٦٥ ش، دار الكتب الإسلامية طهران، والمتقي الهندي، كنز العمال ١٠: ١٣٢، مرجع سابق.

(١٠) الفيض الكاشاني، محمد محسن بن الشاه مرتضى ابن الشاه محمود، الوافي ١: ١٣٤، تحقيق وتصحيح: ضياء الدين الحسيني الأصفهاني، نشر وطباعة مكتبة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ١٤٠٦، أصفهان، إيران.

(١١) التوري، الميرزا حسين، مستدرک الوسائل ١٧: ٢٤٥، نشر وتحقيق: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث ١٤٠٨، بيروت.

(١٢) الشهيد الثاني، منية المريد في آداب المفيد والمستفيد: ٣٨٠، مرجع سابق.

(١٣) نقلاً عن: الفيض الكاشاني، محمد محسن بن الشاه مرتضى ابن الشاه محمود، المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء ١: ٤٥ - ٤٦، صححه وعلق عليه: علي أكبر الغفاري، نشر وطباعة مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ١٤٠٣، بيروت.

(١٤) الفيض الكاشاني، الوافي ١: ١٢٥ - ١٢٦، مرجع سابق. هذا، وللشاعر الرازي كلاماً على درجة عالية من الأهمية في المقام، قال: «واعلم: أن مجموع ما يحتاج الإنسان إلى معرفته أمور ثلاثة. وهي: الماضي والحاضر والمستقبل. أما الماضي: فهو أن يعرف الموجود الذي كان موجوداً قبله، وذلك الموجود المتقدم عليه هو الذي نقله من العدم إلى الوجود، وذلك هو الإله تعالى وتقدس. واعلم: أن حقيقة ذات الإله وكُنْه هويته غير معلومة للبشر البتة، وإنما المعلوم للبشر صفاته. ثم إن صفاته قسمان: صفات الجلال... والمرتبة الثانية من المراتب التي يجب على الإنسان كونه عالماً بها: أن يعرف ما هو مهم له في زمان حياته في الدنيا، وما ذلك إلا تكميل النفس بالمعارف الروحية والجلال القدسية، وهذه المرتبة لها بداية ونهاية. أما بدايتها: فالاشتغال بالعبادات الجسدانية والروحية. أما العبادات الجسدانية: فأفضل الحركات الصلاة، وأكمل السكّنات الصيام، وأنفع البرّ الصدقة. وأما العبادة الروحية فهي: الفكر، والتأمل في عجائب صنع الله تعالى في ملكوت السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿وَيَمَكِّنُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ آل عمران:

[١٩١]. وأما نهاية هذه المرتبة: فالانتهاء من الأسباب إلى مسببها، و قطع النظر عن كلّ الممكنات والمبدعات، و توجيه حدقة العقل إلى نور عالم الجلال، واستغراق الروح في أضواء عالم الكبرياء، ومن وصل إلى هذه الدرجة، رأى كلّ ما سواه مُهَرَّوْلاً تَائِهاً في ساحة كبريائه، هالِكاً فانياً في فناء سناء أسائه. و حاصل الكلام: أنّ أوّل درجات السّير إلى الله تعالى: هو عبودية الله، وآخرها: التوكّل على الله، فلهذا السّبب قال: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾. والمرتبة الثالثة من المراتب المهمة لكلّ عامل: معرفة المستقبل، وهو: أنّه يعرف كيف يصير حاله بعد انقضاء هذه الحياة الجسمانيّة، و هل لأعماله أثرٌ في السّعادة والشّقاوة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾. والمقصود: أنّه لا يُضَيّع طاعات المطيعين، ولا يُهَيِّل أحوال المتمرّدين الجاحدين، وذلك بأنّ يُخَضِّروا في موقف القيامة، ويُجاسبوا على النّقر والقطمير، ويُعَاتَبُوا في الصّغير والكبير، ثمّ يحصل عاقبة الأمر: فريقٌ في الجنّة وفريقٌ في السّعير. فظهر: أنّ هذه الآية وافيةٌ بالإشارة إلى جميع المطالب العلويّة، والمقاصد القدسيّة، وأنّه ليس وراءها للعقول مُرتقى، ولا للخواطر مُنتهى، والله الهادي للصّواب».

(١٥) ما جمعه الشّريف الرّضويّ من كلام أمير المؤمنين عليه السلام، نهج البلاغة ٣: ٤٨، خطب الإمام علي عليه السلام، شرح وتحقيق: الإمام الشّيخ محمّد عبده، نشر: دار الذّخائر ١٤١٢، الطّبعة الأولى، قم، إيران.

(١٦) راجع: الفيض الكاشاني، المحجّة البيضاء في تهذيب الأحياء ١: ٣٨-٣٩، مرجع سابق.

(١٧) الكليني، الكافي ١: ٣٢، الحديث الرابع، مرجع سابق.

(١٨) الكليني، الكافي (مرجع سابق) ١: ٣١، كتاب فضل العلم، باب فرض العلم ووجوب طلبه والحثّ عليه، الحديث السابع.

(١٩) البرقي، أحمد بن محمّد بن خالد، المحاسن ١: ٢٢٩، باب الحثّ على طلب العلم، الحديث ١٦٥، تصحيح وتعليق: السيّد جلال الدّين الحسيني، نشر: دار الكتب الإسلاميّة ١٣٧٠، طهران.

(٢٠) راجع: الفيض الكاشاني، المحجّة البيضاء (مرجع سابق) ١: ٤٧-٤٩.

(٢١) الشّهيد الثاني، منية المريد (مرجع سابق): ٣٨١.

(٢٢) النّووي، المجموع (مرجع سابق) ١: ٢٦.

(٢٣) گلشنی، مهدي، قرآن وعلوم طبيعت ٥٧، نشر: پژوهشگاه علوم ومطالعات فرهنگي ١٣٨٤ هـ ش، الطّبعة الثالثة، طهران.

(٢٤) لا موضوعيّة هنا لخصوص ما يُعرَف بالعلوم الطّبيعيّة، وإفرادها بالذّكر فيما نحن فيه من باب

- التمثيل لا الحصر، والمقصود: العلوم المادّية والتجريبية كافّة.
- (٢٥) المطهريّ، الشهيد الشيخ مرتضى، ده گفتار ص ١٤٥، طباعة: انتشارات صدرا، قم.
- (٢٦) المطهريّ، الشهيد الشيخ مرتضى، مجموعه آثار ٥: ٣٥-٣٦، طباعة: انتشارات صدرا ١٣٨١ هـ ش، الطبعة الأولى، قم.
- (٢٧) المطهريّ، ده گفتار (مرجع سابق) ص ١٤٦.
- (٢٨) گلشنی، مهدي، قرآن وعلوم طبيعت (مرجع سابق) ١٣٨.
- (٢٩) المطهريّ، مجموعه آثار (مرجع سابق) ٢١: ٣٢٦-٣٢٩.
- (٣٠) المجلسي، العلامة محمّد باقر، بحار الأنوار ١: ١٧٧، الطبعة الثانية المصحّحة ١٤٠٣، دار إحياء التراث - مؤسّسة الوفاء، بيروت.
- (٣١) المجلسي، بحار الأنوار (مرجع سابق) ٢: ٩٧.
- (٣٢) المجلسي، بحار الأنوار (مرجع سابق) ١: ٢٢٠.
- (٣٣) المجلسي، بحار الأنوار (مرجع سابق) ١: ٢١٨.
- (٣٤) يُراجع: المطهريّ، ده گفتار (مرجع سابق) ص ١٤٢، وگلشنی، مهدي، قرآن وعلوم طبيعت (مرجع سابق) ٩-١٤، والشيرازي، الشيخ ناصر مكارم، تفسير نمونه ١٠-٢٨٦-٢٩٣، نشر وطباعة: دار الكتب الإسلامية ١٣٨٢ هـ ش، الطبعة ٢٧، طهران.
- (٣٥) المظفر، الشّيخ محمّد رضا، أصول الفقه (مرجع سابق) ١: ٧٦ و ٩٢.
- (٣٦) المجلسي، بحار الأنوار (مرجع سابق) ٣٠: ٤١٥.
- (٣٧) گلشنی، مهدي، قرآن وعلوم طبيعت (مرجع سابق) ٥٧.
- (٣٨) المطهريّ، تعليم وتربيت در اسلام (مرجع سابق) ص ٣٠، وگلشنی، مهدي، قرآن وعلوم طبيعت (مرجع سابق) ١٥.
- (٣٩) الفيض الكاشاني، المحجّة البيضاء في تهذيب الأحياء (مرجع سابق) ١: ٤٧.
- (٤٠) المطهريّ، ده گفتار (مرجع سابق) ص ١٤٣، وگلشنی، مهدي، قرآن وعلوم طبيعت (مرجع سابق) ص ١٦.
- (٤١) أنظر: المطهريّ، ده گفتار (مرجع سابق) ص ١٤٤، وگلشنی، مهدي، قرآن وعلوم طبيعت (مرجع سابق) ص ٦٢، وانظر أيضاً: رفيع پور، فرامرز، موانع رشد علمي ايران وراه حل هاي آن ص ٢٤، طباعة ونشر: شركت سهامی انتشار ١٣٨٣ هـ ش، الطبعة الثانية، طهران.
- (٤٢) الإمام الخميني، روح الله الموسوي، تحرير الوسيلة ١: ٤٨٥-٤٨٦، فصل في الدّفاع (المسألة الرابعة)، نشر وطباعة: دار الكتب العلميّة - مطبعة الآداب ١٣٩٠ هـ، الطبعة الثانية، النّجف

الأشرف.

- (٤٣) الشَّيْخُ الصَّدُوق، مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ بَابُويَه، مِنْ لَا يَحْضُرُهُ الْفَقِيه ٤: ٢٤٣، طباعة: انتشارات إسلامي التابعة لجامعة المدرسين ١٤٢٥، الطَّبعة الثانية، قم. ولمزيد من الاطلاع على تفاصيل قاعدة نفي السَّيْلِ وبيان أدلتها، يُرَاجَع: البجنوردِي، السَّيِّدُ مُحَمَّدُ حَسَن، القواعد الفقهيَّة ١: ١٨٧-١٩٣، تحقيق: مهدي مهريزي ومحمد حسين درايبي، الطَّبعة الأولى، نشر وطباعة: دليل ما ١٤٢٤ هـ، قم المقدسة. وأيضاً: اللَّكْرَانِي، الشَّيْخُ مُحَمَّدُ فَاضِل، القواعد الفقهيَّة ١: ٢٤٨، نشر: المركز الفقهيِّ للأئمة الأطهار ١٤٢٥، الطَّبعة الثانية، قم.
- (٤٤) البجنوردِي، القواعد الفقهيَّة (مرجع سابق) ١: ١٩٢. والفاضل اللَّكْرَانِي، القواعد الفقهيَّة (مرجع سابق) ١: ٢٤٩.
- (٤٥) الشَّهيد الثاني، منية المريد (مرجع سابق): ٣٨١-٣٨٣.
- (٤٦) توكل، محمد، جامعه شناسي علم ص ٩٧، ١٣٧٠ هـ ش.
- (٤٧) گلوور، ديفيد، وآخرون، جامعه شناسي معرفت وعلم: ٧٤، بترجمة: شاپور بهيان وآخرين، نشر: سمت، الطَّبعة الثانية ١٣٨٤، طهران.
- (٤٨) قحف، محمد منذر، الوقف الإسلامي: تطوُّره، إدارته، تنميته: ص ١٤٢، طباعة: دار الفكر المعاصر ١٤٢١، بيروت. وقاسمي پويا، اقبال، مشاركت های مردمی در آموزش و پرورش ص ٨٤، وزارت آموزش و پرورش و پژوهشكده تعليم و تربيت ١٣٨٠ هـ ش، طهران وقم.
- (٤٩) الطَّبَّاطْبَائِي الْحَكِيم، الإمام السَّيِّدُ حَسَن، منهاج الصَّالِحِينَ (المَحْشَى): ١: ٤٨٤، طباعة ونشر: دار التعارف، ١٤١٠ هـ، الطَّبعة الأولى، بيروت.
- (٥٠) قحف، محمد منذر، الوقف الإسلامي (مرجع سابق) ص ١٤٢ فيما بعدها.
- (٥١) المجلسي، العلامة مُحَمَّدُ باقر، بحار الأنوار (مرجع سابق) ١: ١٨٥.

الوحدة الإسلامية

مقاربات: كاشف الغطاء والبروجردى

□ الشيخ محمد جاسم الساعدي (*)

مختبر

لا يخفى على القارئ الحصيف أنَّ الوحدة الإسلامية هي إحدى الأمنيات الكبرى التي تعتلج في قلوب المسلمين أفراداً وجماعات. فالواقع أنَّ الإسلام نفسه دين الوحدة؛ إذ قد استطاع في مطلع ظهوره أن يوحد ويلمّ شمل جميع القبائل والشُّعوب العربيّة والأعجميّة، وبنى في مدّة سبعين سنة أكبر حضارة إنسانيّة شهدها التاريخ على مرّ عصوره، إلّا أنَّه من المؤسف حقاً انتشار بذور الخلاف والفرقة بين المسلمين، وتشتّت شملهم، وتشرذم الأُمّة الإسلاميّة إلى أجزاء شتّى، وبالأخصّ في هذه الفترة العصيبة التي أحدثت بأُمّة الإسلام ولقّتها بالأخطار من جميع الجوانب وعلى كافّة الأصعدة. ومن هنا تبرز حاجة المسلمين الماسّة إلى إيجاد وحدة متلاحمة لجمع ما تفرّق من صفوفهم، وتوحيد ما تبعثر من جهودهم، فجمع الكلمة وتوحيد الطاقات من المسائل الحيّاتيّة للأُمّة الإسلاميّة؛ لا لأنّها وصيّة نبيّ الرّحمة ﷺ فحسب، بل لأنّها من أشرف

(*) باحث إسلامي / العراق.

الغايات الدينية؛ لا تصالها بمقومات وجودنا ووجود أجيالنا، وبكرامتنا...
ووحدة الكلمة خفقة القلب، وومضة الفكر، ودرب السلوك، والبعد
الأساسي لمستقبل الأمة، لا مجرد شعارات فارغة وكلمات مكتوبة، ولا يكون
ذلك إلا ببذل الطاقات وصرف الجهود والمثابرة والسعي من أجل تكريسها في
المجتمع، وعندئذ تصبح وحدة الكلمة حقيقة قائمة، ونموذجاً يُحتذى، ومثالاً
يُقتدى.

وها نحن نرى - وللأسف - اجتماع أهل الباطل على باطلهم في حين أن أهل
الحق قد تفرقوا عن حقهم! كتب المفكر المصري الشيخ محمد الغزالي - وذلك في
نقده لظاهرة الفرقة والاختلاف بين المسلمين وتوحد غيرهم - قائلاً:

«لقد تناسى المسيحيون الحروب الدينية التي اندلعت ناراها بينهم خلال
القرون الوسطى، ونبذوا الخلافات الكبيرة التي تباعد بينهم أحياناً في أصول
العقيدة، وقرروا أن يجابهوا الإسلام وأهله صفاء واحداً كالبنان المرصوص! أما
المسلمون فإن التضامن والاتحاد الذي يجب أن يلم شملهم أصبح حلماً بعيد
المثال، وروح الصفاء الذي ينبغي أن يُنير طريقهم ويوحدهم لا زال بعيداً»^(١).
والحقيقة أن الأخوة الدينية بين المسلمين هي شأن طبيعي من شؤون
المؤمنين، وليس تليفاً جديداً بعد الإيمان..

يقول الشيخ محمود شلتوت: «قررت الأخوة الدينية بين المسلمين على أنها
شأن طبيعي من شؤون المؤمنين، يتحقق من تلقاء نفسه بمجرد الإيمان، ويستتبع
جميع آثاره من حقوق وواجبات، وليست بوصية يوصيهم بها، ولا تليفاً
جديداً يطلب تحقيقه بعد الإيمان... وربطت هذه الأخوة بين قلوب المسلمين
حتى أصبحوا أسرة واحدة كبرى، يفرح المسلم لفرح أخيه، ويحزن لحزنه، ويمد
يد المعونة إليه عند الحاجة، ويرشده إذا غوى، ويهديه إذا ضلّ، ويرحمه إذا
ضعف، ويعامله بها يحب أن يعامل به، ويمحضه النصيح إذا استنصحه أو رأى

عليه ما ينكره الشرع والدين، ويحفظه في ماله وعرضه غائباً وحاضراً، ويسعى في إصلاح ذات البين ورفع ما يقع من الخلاف، إخوة متصافون رحماء بينهم^(٢). وللوحدة الإسلامية محاور مركزيّة تدور في فلكها، ولها عوامل عدّة، ومبادئ كذلك، سأعرض لمعظمها في الأسطر التالية.

ولقد استطاعت الأمة الإسلامية أن تقاوم تغيرات الزمان والمكان والمؤثرات الخارجية العنيفة والتقلّبات الداخلية غير المتناهية بقوّتين عظيمتين، كان لهما بالغ الأثر في بقاء الإسلام وكذلك خلوده إلى قيام الساعة وبإذن الله تعالى:

القوة الأولى: هي الحيويّة الكامنة في وضع الإسلام نفسه، وصلاحيّته للحياة، والإرشاد في كلّ بيئة وفي كلّ عهد من عهود التاريخ، فقد خصّ الله تعالى محمّداً ﷺ برسالة وتعاليم كاملة للإنسان صالحة لكلّ زمان ومكان، تستطيع أن تواجه ما يتجدّد من الشؤون وأطوار الحياة، وتحلّ كلّ ما يعترى من المعضلات والمشكلات.

القوة الثانية: هي تكفّل الباري عزّ وجلّ بأن يمنح هذه الأمة التي قضى ببقائها وخلودها رجالاً أحياءً أقوياء في كلّ عصر، ينقلون هذه التعاليم الإسلامية إلى الحياة، ويعيدون إليها الشباب والنشاط. إنّ هذا الدين يبعث في هؤلاء الرجال الثورة والتمرد على الأوضاع الفاسدة والأخلاق المنحلّة والسياسة المستبدّة والتّرف المسرف، ويفرض عليهم إنكار المنكرات وقول كلمة الحقّ عن سلاطين الجور، ويحرّم عليهم الاستكانة إلى الأوضاع الفاسدة والرضا بالحياة الدّنيا وبيع الضمائر، ويهيم الأصول والنصوص المتينة الحكيمة التي يحلّون على ضوئها المشاكل العالقة والمسائل المعقّدة. والمتبّع حقيقةً لتاريخ الأمة الإسلامية يجد أنّ هذه الأمة تقدّم في كلّ عصر من عصورها مجدّدين في الدين، وأئمّة في العلم، وعمالقة في الفكر، وأبطالاً في الجهاد، وأعلاماً في

الإصلاح، لا يوجد نظير لهم في أمة من الأمم الأخرى.

إنَّ تاريخ الإصلاح والتجديد متَّصلٌ في الإسلام؛ وذلك للحفاظ على بقاء الإسلام وخلوده ممثلاً في الأمة الإسلامية، واتِّصاله ليس من قبيل المصادفة، وإِنَّمَا هو من قبيل لطف الله تعالى بهذه الأمة، بل لطفه بالإنسانية كُلِّها؛ إذ لو ضاعت هذه الأمة لضاعت أمانة السماء ولضاعت أمانة الإنسانية، وإِنَّمَا هي حراسته الكريمة وحفاوته القويّة لهذا الدين الَّذي فرض عليه أن يرافق الحياة إلى آخر مرحلةٍ من مراحلها^(٣)..

يقول الأستاذ الندوي:

«وقام في كُلِّ عهدٍ وفي كُلِّ ناحيةٍ من نواحي العالم الإسلامي رجالٌ فضحوا المنحرفين والمتأمرين، ورفعوا اللثام عن وجه الإسلام، ونفضوا عنه غبار الجهل والضلالات، وأنكروا البدع والخرافات، ودافعوا عن السنّة دفاعاً قوياً، وردّوا على العقائد الباطلة، وشنّوا الحرب على الجاهلية وأعمالها وتقاليدها، وحاربوا المادّيّة والتّرف بكُلِّ قوّة، ونعوا على المنحرفين في عصرهم، وجهروا بالحقّ في وجوه السّلاطين الجائرين والملوك المستبدين، وحدّوا من سلطان العقل الَّذي طغى وتخطّى الحدود، ونفخوا في الإسلام روحاً جديدة، وخلقوا في المسلمين إيماناً جديداً وثقةً جديدةً. وقد كان هؤلاء الأفراد نوابغ عصورهم عقليّةً وعلماً وخُلُقاً، وكانوا أصحاب شخصيّةٍ جذّابةٍ وكفايةٍ فائقةٍ، وكانت عندهم لكلّ فتنةٍ وظلمةٍ يدٌ بيضاء، تبدّد الظّلمات وتنير السبيل»^(٤).

وعليه، فلا يخفى على المراقب الحصيف دور رجال الإصلاح وروّاده في نشر وترويج الفكر الوحدوي والإصلاحي في الأوساط الثّقافيّة والفكرية الإسلامية وعلى أكثر من مستوى. ولم يقف دورهم وأثرهم عند هذا الحدّ، بل تعدّاه إلى مستوى أكثر فاعليّة، بعدما فتحوا الأبواب لدخول «الأفكار الأخرى»، وسلّطوا الأضواء على المباحث العلميّة الجادة والمفيدة في سبيل رفعة

الإسلام ورفرفة رايته الفضفاضة، بحيث يتسنى للأجيال اللاحقة متابعة الحقيقة بأبهى صورها.

إنَّ هكذا رجال وأصحاب قلم وفكرٍ إصلاحيّ بحاجةٍ إلى برنامجٍ للتعريف بهم لأجيالنا اللاحقة، وللدِّفاع عن مبادئهم وشعاراتهم التي فدوا أنفسهم الزّكية وأموالهم الطيبة وأوقاتهم الشريفة من أجلها^(٥).

ومن هنا سأخصّ بالحديث بعض الشخصيات المهمّة منهم، ذاكراً قبساً من حياتهم وشيئاً من منهجهم في الإصلاح والوحدة، وأثرهم في الفكر الإسلامي الحديث، مخصّصاً في هذا العدد الحديث عن الشّيخ مُحَمَّد حسين آل كاشف الغطاء النّجفي، والسّيّد حسين البروجردى، رحمهما الله تعالى برحمته الواسعة.

قبسٌ من سيرة الإمام كاشف الغطاء، رَحِمَهُ اللهُ:

وُلِدَ الشّيخ مُحَمَّد حسين بن عليّ بن مُحَمَّد رضا المالكي النّجفي آل كاشف الغطاء في مدينة النّجف الأشرف عام ١٨٧٦م، ونشأ وترعرع في كنف أسرة تعدُّ من ألمع الأسر العلميّة والأدبيّة في العراق، ولما بلغ سنّ العاشرة من عمره التّشريف شرع بدراسة العلوم الأدبيّة من نحوٍ وصرفٍ وبلاغةٍ ولغةٍ، وتوسّع في طلب العلوم، فقرأ الهيئّة والفلك والرياضيات والمنطق والحكمة والعرفان والكلام والتّفسير، ومن ثمّ توغّل كذلك في دراسة الفقه وأصوله توغّلاً عميقاً حتّى أضحى من مراجع الدّين العظام في عصره.

وقد تميّز بنبوغه ونشاطه العلمي، وكان يتمتّع بالذكاء الحادّ والألمعيّة الوقادة، فحصل على قسطٍ وافٍ من العلم والفضل، وتبوّأ المكانة اللائقة وهو في مقتبل عمره.

وتتلمذ على مجموعةٍ من الفطاحل، كالسّيّد مُحَمَّد كاظم اليزدي، والشّيخ رضا الهمداني، والميرزا الشّيرازي، والشّيخ الآخوند الخراساني، والميرزا النّوري،

والميرزا مُحَمَّد باقر الاصطهباناتي. وتتلמד على يده الكثير من الفضلاء، كالشَّيخ مُحَمَّد حسين الرِّزِين العاملي، والسَّيِّد مُحَمَّد رضا شرف الدِّين، والشَّيخ كاظم موسى كاشف الغطاء، والشَّيخ عبد الواحد المظفر، والسَّيِّد صدر الدِّين الحسيني، والشَّيخ مهدي صحين السَّاعدي، والشَّيخ مُحَمَّد تقي الفقيه العاملي، والشَّيخ مُحَمَّد جواد مغنية، وغيرهم.

أمَّا عن شخصيَّته، فحدَّث ولا حرج، فقد كان مضرب المثل في الخُلُق الرَّفيع، وكان أُسلوبه وسلوكه الاجتماعي يخضع للحُجَّة، ويؤيِّد البرهان، ويؤمن بالمنطق الرِّزين إذا وجده عند جلسيه، وكانت فيه ظاهرة الوفاء إلى حدٍّ واسع، فهو يرمي جانبها ويحرص عليها ويقيم الأثر لحسابها، وكان ذا حماسٍ دينيٍّ منقطع النّظير، وذا حديثٍ عذبٍ مسترسل، لا يملّه السَّامع على اتِّساع الوقت، وكان رجلاً مؤمناً موقناً ورعاً تقياً أميناً.

وقد كانت له رحلاتٌ وأسفارٌ عديدةٌ لمناطق وبلدن مختلفة، كالحجاز، ودمشق، وبيروت، والقاهرة، والقدس، وإيران، والباكستان، وغيرها.. قام فيها بطباعة بعض كتبه، وإلقاء المحاضرات في بعض المحافل الأدبيَّة والعلميَّة، والمشاركة في المؤتمرات الإسلاميَّة، ولقاء الشخصيات الإسلاميَّة المهمَّة، وكذلك كان من ثمرات هذه الأسفار الحجَّ والزَّيارة والزَّواج.

وفي سنة ١٩٣١م عُقد مؤتمرٌ إسلاميٌّ كبير في القدس، وبعد عدَّة دعواتٍ من لجنة المؤتمر توجَّه الإمام كاشف الغطاء إليه وشارك فيه، وكان من جملة المشاركين أيضاً: حبيب العبيدي مفتي الموصل، ومحمَّد زيارة من اليمن، ومحمَّد رشيد رضا من مصر، ومحمَّد إقبال اللاهور من باكستان، بالإضافة إلى عددٍ كبيرٍ من علماء الحنفيَّة والشافعيَّة والمالكيَّة والحنابليَّة والزَّيديَّة والإماميَّة والإسماعيليَّة والإباضيَّة والوهابيَّة. وقد دُعي كاشف الغطاء إلى الصَّلَاة جماعة، فصلَّى بالحضور على الطَّريقة الجعفريَّة، وكان عدد جميع أعضاء المؤتمر (١٥٠) عضواً،

وخلفهم جُمٌّ غفير من أهالي فلسطين يناهز عددهم العشرين ألفاً، وقيل: أكثر، وكان ذلك في ليلة المعراج بالمسجد الأقصى.

وكانت للشيخ مكتبةٌ وصفها الشيخ مُحَمَّد هادي الأميني بأنها مكتبةٌ عامرةٌ نفيسة^(٦)، وكذلك وصفها الأستاذ جعفر الخليلي بقوله: «وكان لتلك المكتبة صدىً كبير في الأوساط العلميّة»^(٧).

ويمتاز الشيخ كاشف الغطاء بعلميةٍ بارزةٍ كما تقدّم، ففي مضمار الفقه أدخل فيه كثيراً من التطوُّر، وأوجد العديد من القواعد الجديدة، وقد بادر إلى تقنين جُلِّ مسائل الشريعة، وجعلها محبوكَةً ضمن إطارٍ معيّن، وكانت هذه المبادرة أملاً يراود رواد التشريع، فقام الشيخ بسدِّ هذا الفراغ التشريعي القانوني، ووضع بين يدي الباحثين نصوصاً شرعيةً مقتنّةً بأسلوبٍ عصريٍّ ممتاز، وذلك من خلال تأليفه لكتاب «تحرير المجلّة» تعليقاً واستدراكاً وتهذيباً لكتاب «مجلّة الأحكام العدليّة» الذي كان يمثّل القانون المدني للإمبراطوريّة العثمانيّة آنذاك، وكان محلّ اعتماد الدوائر القضائيّة لحلّ المشكلات والمعضلات، فهذا الكتاب تمّ تدوينه وتنقيحه بأسلوبٍ حقوقيٍّ عصريٍّ، وأضيفت على فتاواه الفقهية طابع الموادّ والبند الحقوقيّة والجزائية، ممّا حدا بكاشف الغطاء إلى تأليف كتابه على هذا المنوال^(٨).

وقد كان كاشف الغطاء واحداً من أولئك الأفذاذ الذين جمعوا بين العلم والأدب، فلم يكن تفوّقه وانشغاله بالأوّل منهما مانعاً له من تفوّقه ونبوغه في الثاني، فراح ينظم القصائد الواحدة تلو الأخرى، ومجموع شعره ينوف على سبعة آلاف بيت^(٩)، بالإضافة إلى بعض الموشّحات التي برع فيها ونظم الكثير منها. ومن شعره عندما زار باكستان ووقف على قبر الفيلسوف الشاعر مُحَمَّد إقبال اللاهوري عام ١٣٧١هـ:

يا عارفاً جَلَّ قدرًا في معارفه حيّاك منّي إكبارٌ وإجلالُ

إن كان جسمك في الضريح ثوى فالروح منك لها في الخلد إقبال
تحية لك من خل أذاك على بعد المزار بقول مثل ما قالوا
لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق إن لم يسعد الحال^(١٠)

هذا من حيث الشعر، وأما النثر فحدث ولا حرج، فقد كان كاشف الغطاء
ذا بيانٍ ساحرٍ جذابٍ وأسلوبٍ مشرقٍ وهاجٍ، يُرسل الكلام في تعبيرٍ قويٍّ
ولسانٍ ذليقٍ وفصاحةٍ نادرة، ولطالما رقى المنابر في شتى المناسبات، فيملك
القلوب بسحر بيانه، ويستولي على العقول بحلاوة منطقته.

وقد كانت له مواقف سياسية وإصلاحية كثيرة، ففي عام ١٩١٦م ذهب مع
السيد اليزدي ورعيل من العلماء إلى الكوت للوقوف بوجه القوات البريطانية
المحتلة، ومن مواقفه إخماده لفتنة عبد الرزاق الحصان التي انبثت من كتابه
«العروبة في الميزان»، وكذلك إخماده لقلقلات عشائر الفرات على أثر استقالة
جميل المدفعي وتشكيل وزارة ياسين الهاشمي، وأيضاً حل الخلافات التي
حدثت بالنجف في عهد وزارة نور الدين محمود عام ١٩٥٢م، وقد بعث
برسالة إلى محمد علي جناح رئيس وزراء باكستان في سنة ١٩٤٧م طالباً منه ألا
يعقد حلفاً عسكرياً مع أميركا، كما كانت له مواقف معروفة مع السفير
البريطاني في العراق آنذاك «سرجون تروتيك»، السفير الأمريكي «برتون
بري».

هذا، وقد ترك الإمام كاشف الغطاء مؤلفات كثيرة، منها: تحرير المجلة،
الدين والإسلام، المراجعات الرجائية، أصل الشيعة وأصولها، الفردوس
الأعلى، جنة المأوى، وجيزة الأحكام، عين الميزان، مقتل الحسين عليه السلام، حاشية
على العروة الوثقى، تنقيح الأصول، دائرة المعارف العليا، عقود حياتي، تعليقة
على أمالي المرتضى. كما ترجم إلى العربية بعض الكتب الفارسية، كـ: «فارسي
هيئت» و «حجة السعادة في حجة الشهادة»، و «رحلة ناصر خسرو»^(١١).

وانتقل الإمام كاشف الغطاء رحمه الله إلى رحمة الله تعالى في شهر ذي القعدة سنة ١٣٧٣هـ، المصادف للتاسع عشر من شهر تمّوز عام ١٩٥٤م، ودُفن في وادي السلام بالنّجف الأشرف، بعد عمرٍ مباركٍ قضاه في التدريس والتأليف ورّد الشّبّهات وخدمة الدّين الحنيف، فرحمة الله عليه.

منهج الإمام كاشف الغطاء الوحدوي والإصلاحي:

دعا الشّيخ كاشف الغطاء إلى الوحدة، حيث يقول: «إلى كلّ ذي حسٍّ وشعورٍ يعلم أنّ المسلمين اليوم بأشدّ الحاجة إلى الاتفاق والتآلف وجمع الكلمة وتوحيد الصّنفوف، وأنّ ينضمّ بعضهم لبغض كالبنيان المرصوص، ولا يدعوا مجالاً لأيّ شيءٍ ممّا يثير الشّحناء والبغضاء والتّقاطع والعداء»^(١٢).

وقد بارك وأثنى على كلّ خطوة تدعو إلى الاتّحاد والتّقريب، فمما قاله في رسالة له إلى دار التّقريب بالقاهرة: «فضيلة العالم الجليل الشّيخ محمود شلتوت أيّده الله: أطلعتُ على كلمةٍ لكم في بعض الصّحف، كان فيها لله رضى وللأُمة صلاح، فحمدناه تعالى على أن جعل في هذه الأُمة وفي هذا العصر مَنْ يجمع شمل الأُمة، ويوحد الكلمة، ويفهم حقيقة الدّين، ويزيد الإسلام لأهله بركةً وسلاماً. وما برحنا منذ خمسين عاماً نسعى جهدنا في التّقريب بين المذاهب الإسلاميّة، وندعو إلى وحدة أهل التّوحيد»^(١٣).

وطلب الشّيخ من العلماء والمفكرين والمثّقين أن يبحثوا بحثاً موضوعياً بعيداً عن كلّ التّراكمات وردود الفعل النّفسيّة التي خلقتها الفرقة المذهبيّة، وكذلك طلب منهم أن يعملوا بكلّ جدٍّ وإخلاصٍ على تهدئة الجوانب العاطفيّة المتأجّجة في الوسط الشّعبي التي تقف أمام الخلافات بحدّة، وأن يوضّحوا للأُمة أنّ الخلافات ما هي إلّا اجتهاداتٍ اختلفت بها كلّ مجتهدٍ من خلال اجتهاده، والمجتهد قد يخطئ وقد يُصيب.

وقد التقى الإمام كاشف الغطاء علماء مصر والشام والمغرب العربي وإيران والهند وباكستان والحجاز والخليج، فقام بإقرار العلاقات الودية والأخوية بين الجميع، وخفف من النزعات اللاإنسانية، وعرف الأمة بحقيقة الإسلام بعيداً عن المنحى الطائفي والتعصب العرقي أو المذهبي، وبذلك أوجد المناخ الائتلافي بين مختلف الطبقات الإسلامية.

يقول في رسالة له للشيخ محمد بشير الإبراهيمي: «ولا سعادة لهم [أي: للمسلمين] إلا بالاتفاق وتوحيد الكلمة، ومن كلماتي المؤثرة ما قلته في مؤتمر فلسطين قبل أكثر من عشرين سنة: إن الإسلام بني على دعامتين: كلمة التوحيد، وتوحيد الكلمة. ولو أن المسلمين تدبروا آية واحدة من كتاب الله العظيم، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْسَنَكُمْ شِعَاعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾^(١٤)، لو تدبروها لكفتهم حافزاً على جمع الكلمة وعدم التأثر بالخلافات المذهبية والنعرات الطائفية. أترى - يا أخي - يأتي الله بيوم للمسلمين يجمع به كلمتهم ويحقق وحدتهم، فيكون شيعة واحدة أو سنة واحدة أو السنة والشيعة متفقة؟! إذ ذاك ما أتمناه، وما هو على الله بعزير»^(١٥).

كما يقول - أيضاً - من جملة كلام له في المؤتمر العالمي الإسلامي المنعقد في القدس الشريفة سنة ١٩٣١ م: «إن من الغرائز التي استحكمت في نفوسنا وتوارثناها في قرون بعيدة - وهي التي قضت علينا ولم نستطع إلى اليوم أن نقضي عليها - غريزة الشقاق والخلاف بيننا، خلافاً لما أمرنا الله سبحانه به من الوحدة والألفة، وما عقده جل شأنه في أعناقنا من الأخوة والولاء: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾^(١٦)، ومعلوم أن اختلاف الآراء وحرية الفكر ناموس من نواميس البشر، وفطرة فطر الله الناس عليها: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾^(١٧)، ولكن الرزية وقاصمة الظهر جعل

الاختلاف في الرأي سبباً للعداوة وآلة لقطع وشائج الأخوة وأواصر القربى، ولا ريب أننا مسلمون موحدون قبل كوننا سنّيين أو شعيّين أو زيديّين أو شافعيّين، وهذه الطرائق المتأخّرة حدوداً وزماناً ورتبة لا توجب قطع رابطة الإسلام المحكّمة فيما بيننا:

ما ذا التقاطع في الإسلام بينكموا وأنتم - يا عباد الله - إخوان وقد كانت الصّحابة - رضوان الله عليهم - سيّما بعد رحلة صاحب الرسالة، يختلفون في كثيرٍ من الفروع، ولكلّ رأي، وقد شاعت اختلافاتهم في مسائل مهمّة، كالمسح أو الغسل في الوضوء، وفي العول والتّعصيب في الميراث، وفي المتعة والمهر في النّكاح، وهكذا إلى كثيرٍ من المسائل، ولكن ما أوجب شيءٌ من ذلك صدعاً في وحدتهم ولا تفريقاً في كلمتهم، بل كانوا يصلّون بصلاةٍ واحدة، ويقتدي بعضهم ببعضٍ، ولا يطعن بعضهم في إيمان بعضٍ، ولذلك ملكوا بالإسلام شرق الأرض وغربها في نصف قرنٍ. فمن الواجب المحتمّ على كلّ مسلم - سيما القادة والعلماء - في مثل هذه الأوقات العصيبة بذل الجهود إلى ضمّ المسلمين بعضهم إلى بعضٍ، ونشر الألفة فيما بينهم، كما أراد الله سبحانه ورسوله وأمر به كتابه.

وليس معنى تلك الأخوة أن تدعو السنّي ليكون شيعياً أو الشّيعي ليكون سنّياً، فإنّ هذا منافٍ للحكمة، ومصادم لسنة الله في خلقه، بل لكلّ رأي وما يعتقده، ولكن معنى الدّعوة إلى الوحدة أن لا نجعل تلك الخلافات أداة للتّفرقة ومعولاً للتمزيق وسبباً للتشاحن والتطاحن والعداوة والبغضاء بين الأخوين..

فيا أيّها الأعلام، ويا زعماء الإسلام، الله الله في هذه القضية! فإنّها قضية جوهريّة، فليبدل كلّ واحدٍ منّا جهده في نشر هذه الرّوح الطّيبة، وبثّ تلك التعاليم المقدّسة، عسى أن يكون الله سبحانه من المسلمين - بفضل مساعيكم - أمة تهرّ العالم ثانياً كما هزّته أولاً، بل أقول: ثانياً، ولا أخشى أن أكون مغالياً،

تصلح العالم عَوْدًا كما أصلحته بدءً..

فالوحدة الوحيدة يا أهل التوحيد! فقد قلتُ قبل هذا كلمتين أرجو أن تكون من الكلمات الخالدة، قلت: الإسلام يقوم على دعامتين: كلمة التَّوْحِيد، وتوحيد الكلمة، فإذا لم تتوحد الكلمة - يا أيها المسلمون - فعلى الإسلام السَّلام!«^(١٨).

وقد بينَ الشَّيْخ أنَّ الاختلاف طَبِيعَةٌ من طبائع هذا الكون، وأنَّ اختلاف الآراء من أدقِّ نواميسه وأقوى قاعدة لحفظ نظام العالم، وأنَّ الوحدة التي ندب إليها القرآن الكريم ليست هي وحدة الآراء والمذاهب، فهذا أمرٌ مستحيلٌ بحسب الطَّبِيعَةِ البشريَّة، ومُعْطَلٌ لأكمل المواهب، وأيِّ موهبةٍ أشرف من موهبة حريَّة الآراء وعدم الحجر على العقول وإخماد جذوة الذكاء والفهم والتَّنْقِيب؟! وإنَّما المراد بالوحدة المندوب إليها: الوحدة الأخلاقيَّة، الوحدة الإيمانيَّة، وحدة الإخاء والمودة؛ وذلك بأنَّ لا يكون اختلاف الآراء سبباً للتَّقاطع والتَّباغُض والجفاء والعداء، بل يأخذ الأطراف بالمثل الأعلى والقُدوة الحسنة من خيار الصَّحابة في صدر الإسلام، فقد كانوا - والحال على كثرة ما بينهم من الاختلاف في القضايا الفرعيَّة والمسائل العلميَّة - على أقصى ما يرام من الإخاء والصَّفَاء، كأنَّ الإسلام جسدٌ وهم أعضاء ذلك الجسد، تجمعهم رُوحٌ واحدة، روح المبدأ المقدَّس وتضحية كُلِّ عزيزٍ في سبيله^(١٩).

وذكر أيضاً: أنَّ المسلمين لا يزالون يتعلَّقون بحبال الآمال، ويكتفون بالأقوال عن الأعمال، ويديرون على دوائر الظَّواهر والمظاهر دون الحقائق والجواهر، يدورون على القشور، ولا يصلون إلى اللَّبِّ! على العكس ممَّا كان عليه أسلافهم أهل الجدِّ والنَّشاط وأهل الصَّدق في العمل قبل القول وفي العزائم قبل الحديث، تلك السَّجَايا الجبَّارة التي أخذها عنهم الأغيار فسبقوا مسلمي اليوم وكان السَّبق لهم، وكانت للمسلمين الدَّائرة عليهم، فأصبحت على المسلمين! ويستحيل على المسلمين لو بقوا على هذه الحال أن تقوم لهم

قائمة، أو تجتمع لهم كلمة، أو تثبت لهم في المجتمع البشري دعامة ولو ملؤا الصُّحف والطَّوامير وشحنوا أرجاء الأرض وآفاق السَّماء بألفاظ الاتحاد والوحدة وكُلَّ ما يشتقُّ منها ويرادفها، بل ولو صاغوا سبائك الخطب منها بأساليب البلاغة، ونظموا فيها عقود جواهر الإبداع والبراعة، كُـلُّ ذلك لا يجدي إذا لم يندفعوا نحو العمل الجدِّي والحركة الجوهرية، ويحافظوا على أخلاقهم وملكاتهم، يكبحوا جماح أهوائهم ونفوسهم بإرسال العقل والروية والحكمة والحكمة، فيجد كُـلُّ مسلم أنَّ مصلحة أخيه المسلم هي مصلحة نفسه، فيسعى لها كما يسعى لمصالح ذاته، وذلك حيث ينزع الغلَّ من صدره والحق من قلبه، وينظر كُـلُّ من المسلمين إلى الآخر مهما كان نظر الإخاء لا نظر العدا، وبعين الرضا لا بعين السخط، وبلحاظ الرحمة لا الغضب والنقمة.

كما ذكر- أنَّ الاتحاد سجايا وصفات، وأعمال وملكات، وأخلاق فاضلة، وحقائق راهنة، ونفوس متضامنة، وسجايا شريفة، وعواطف كريمة. والاتحاد أن يتبادل المسلمون المنافع، ويشاركوا في الفوائد، ويأخذوا بموازين القسط وقوانين العدل.. وليس معنى الوحدة في الأمة أن يهضم أحد الفريقين حقوق الآخر فيصمت، ولا من العدل أن يقال للمهضوم إذا طالب بحق أو دعا إلى عدل: إنَّك مفرق أو مشاغب، بل ينظر الآخرون إلى طلبه، فإن كان حقاً نصره، وإن كان حيفاً أرشدوه وأقنعوه، وإلا جادلوه بالتي هي أحسن مجادلة الحميم لحميمه والشقيق لشقيقه، لا بالشتائم والسباب والمنازعة وبالألقاب! ودعا كاشف الغطاء إلى عقد المؤتمرات لتنمية فكرة الاتحاد الجدِّي، وأن يحذر المسلمون من حيتان الغرب وأفاعي الاستعمار، كما سمَّاهم، فإنَّهم من عوامل بذر التفرقة والشقاق بين أبناء الأمة الإسلامية^(٢٠).

قبس من سيرة الإمام البروجردي رحمته الله:

وُلِدَ السَّيِّدُ حَسِينُ الطَّبَّاطِبَائِي البروجردِي فِي شَهْرِ صَفَرِ عَامِ ١٢٩٢ هـ، بِمَدِينَةِ بروجرد الإيرانية، وَتَوَلَّى تَرْبِيَتَهُ وَالِدُهُ السَّيِّدُ عَلِيٌّ، وَدَخَلَ «الْمَكْتَبَ» بِتَوْجِيهِ مِنْهُ، فَدَرَسَ هُنَاكَ جَامِعَ الْمَقْدَمَاتِ وَرَوْضَةَ الْوَرْدِ لِسَعْدِي الشَّيرَازِي، ثُمَّ دَخَلَ بَعْدَئِذٍ مَدْرَسَةَ «نُورِ بَخْشِي»؛ لِمَوَاصِلَةِ الدَّرَاسَاتِ الْحُوزَوِيَّةِ، كَمَا اهْتَمَّ بِاِكْتِسَابِ الْفَضَائِلِ الْأَخْلَاقِيَّةِ حَتَّى بَلَغَ فِيهَا الدَّرَجَةَ الْعَالِيَةَ مِنَ الرَّقْيِ وَالسَّمَوِ وَالْكَمَالِ^(٢١). يَنْتَهِي نَسَبُهُ بَعْدَ ثَلَاثِينَ ظَهْرًا إِلَى الْإِمَامِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ عليه السلام. وَقَدْ هَاجَرَ السَّيِّدُ إِلَى إِصْفَهَانَ لِإِكْمَالِ دَرَاثَتِهِ، وَسَكَنَ مَدْرَسَةَ «صَدْر»، وَدَرَسَ عَلَى يَدِ بَعْضِ الْأَكْبَارِ، كَالْمِيرْزَا أَبِي الْمَعَالِي الْكَرْبَاسِي، وَالسَّيِّدِ مُحَمَّدٍ تَقِي الْمَدْرَسِيِّ، وَالْقَشْقَائِي، وَالْمَلَا مُحَمَّدَ الْكَاشَانِي^(٢٢). وَبَلَغَتْ مَدَّةُ إِقَامَتِهِ هُنَاكَ تِسْعَ سَنَوَاتٍ، وَصَلَ فِيهَا إِلَى مَرْتَبَةٍ عَالِيَةٍ مِنَ الْجَهْدِ^(٢٣). وَقَدْ سَافَرَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى النَّجَفِ الْأَشْرَفِ وَهُوَ ابْنُ ثَمَانٍ وَعَشْرِينَ سَنَةً؛ لِيَنْهَلَ مِنَ الْعُلُومِ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ، وَدَرَسَ لِمَدَّةِ تِسْعِ سَنَوَاتٍ عَلَى يَدِ الْعُلَمَاءِ: الْآخُونَدِ الْخُرَاسَانِي، وَشَيْخِ الشَّرِيعَةِ الْإِصْفَهَانِي، وَنَالَ دَرَجَةَ الْجَهْدِ مِنْ أُسْتَاذِيهِ^(٢٤)، وَعَادَ إِلَى بَلَدَتِهِ بروجرد مَاكِنًا فِيهَا مَدَّةَ ثَلَاثِينَ سَنَةً، انْكَبَّ فِيهَا عَلَى التَّدْرِيسِ وَالتَّأْلِيفِ وَالتَّوْجِيهِ، وَخَرَجَ بَعْضُ الشَّخْصِيَّاتِ الْبَارِزَةِ فِي الْحُوزَةِ الْعِلْمِيَّةِ، كَالشَّيْخِ مُحَمَّدِ إِبْرَاهِيمِ الْمَدْرَسِيِّ، وَالسَّيِّدِ أَبِي الْمَجْدِ الطَّبَّاطِبَائِي^(٢٥).

وَفِي عَامِ ١٣٤٤ هـ تَوَجَّهَ لَزِيَارَةِ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ، كَمَا غَادَرَ عَامَ ١٣٤٥ هـ مَدِينَتَهُ مُتَوَجِّهًا صَوْبَ الْكَازِمِيَّةِ وَسَامَرَاءَ، ثُمَّ عَادَ إِلَى إِيرَانَ عَنْ طَرِيقِ الْبَصْرَةِ^(٢٦).

وَفِي عَامِ ١٣٦٤ هـ سَافَرَ السَّيِّدُ إِلَى مَدِينَةِ قَمٍّ وَاسَطَ إِصْرَارَ بَعْضِ تَلَامِيذِهِ - وَكَانَ عَلَى رَأْسِهِمُ الْإِمَامُ الْخَمِينِي رحمته الله - بِنَهْوِضِهِ بِأَمْرِ مَرْجِعِيَّةِ الْعَالَمِ الشَّيْعِيِّ وَزَعَامَةِ الْحُوزَةِ الْعِلْمِيَّةِ فِي تِلْكَ الْمَدِينَةِ^(٢٧).. فَسَلَّمَ لَهُ السَّيِّدُ مُحَمَّدُ الْحُجَّةُ الْكُوهِكَمَرِي - وَهُوَ مِنْ كِبَارِ مُرَاجِعِ التَّقْلِيدِ - مَنْصَبَ تَدْرِيسِهِ، وَتَحَلَّى لَهُ الْمَرْجِعَ

السَّيِّد صدر الدين الصِّدْر عن موضعه في إمامة صلاة الجماعة في الصَّحن الكبير المجاور لضريح السَّيِّدة فاطمة المعصومة عليها السلام، وكذلك بادر السَّيِّد مُحَمَّد تقي الخوانساري للمشاركة في حلقة درسه تعبيراً عن احترامه للإمام البروجردي^(٢٨). وكان من جملة تلاميذ الإمام البروجردي في قم: الإمام الخميني، والشَّيخ علي پناه الاشتهاردی، والشَّيخ علي الصَّافي الكلبايكاني، والشَّيخ حسين المنتظري، والشَّيخ مُحَمَّد الفاضل اللنكراني، والشَّيخ ناصر مكارم الشِّيرازي، والشَّيخ جعفر السَّبحاني، وغيرهم^(٢٩).

يقول الشَّيخ مرتضى المطهري رحمته الله واصفاً السَّيِّد: «كُنَّا نحضر دروس الإمام البروجردي، وكُنَّا نلاحظ أنَّه يبدي رأيه في القضايا الفقهيَّة والأُصوليَّة.. لقد كان فقيهاً من الطَّراز الأوَّل في زمانه، وكان متبحراً جداً في الفقه والأُصول، وكانت له رؤاه الخاصَّة في هذين الحقلين، وكانت لديه أيضاً إحاطة واسعة بتفاسير القرآن، وكان حافظاً لأكثر من نصف الكتاب العزيز. أمَّا الآداب العربيَّة فقد كان يجيدها إلى حدٍّ بعيد، ولا يكاد المرء يصدِّق بأنَّ رجلاً فقيهاً يمكن له أن يتقن آداب اللُّغة الفارسيَّة إلى هذا الحدِّ، كان أحياناً يستشهد في مناسباتٍ معيَّنة بأشعار المولوي وحافظ الشِّيرازي، وكذلك كان جيِّداً في استقراء المعلومات التَّاريخيَّة»^(٣٠).

وقد كان السَّيِّد البروجردي إذا رأى حديثاً عند الاستنباط في أيِّ فرعٍ فقهيٍّ فإنَّه ينظر إلى زمن صدوره، ويلاحظ آراء ووجهة نظر فقهاء أهل السَّنة، وخاصَّةً في المدينة، وكذلك بالنَّسبة للمدن التي كان الإمام المعصوم عليه السلام على اتِّصالٍ ببعض أهاليها، ويلتفت إلى طبيعة فهم الأصحاب والسَّائِلين، وهذه من ميَّزاته البارزة رحمه الله^(٣١).

كما كانت لديه إحاطة تامَّة بمسائل علم الأُصول، وقد أخضع الكثير منها لمزيدٍ من الدِّقَّة والتَّمحيص، وقد اتَّبِع مفهومًا ومنهجاً خاصًّا في مفهوم الإجماع،

وذهب إلى خلاف ما ذهب إليه مشهور الأصوليين من القول في بحث الانسداد بأنه يمثل دليلاً على الحجية المطلقة للظن؛ حيث اعتبره بيان معيّن دليلاً على حجية خبر الواحد^(٣٢)، كما أنّ القول بأن موضوع علم الأصول الحجية^(٣٣) يعدّ من ابتكاراته.

أمّا في علم الرجال، فكان له إبداعٌ ونبوغٌ متميّز في هذا المجال، يقول الميرزا حسين النوري الهمداني: «كان الإمام البروجردي رحمه الله محيطاً بتراجم رواة الأحاديث، حتّى كأنّه قد ربّاهم، فكان يعرف كلّ واحدٍ منهم باسمه، ومحلّ ولادته، ومعيشتة، ومن كبار أيّ طبقة كان، ومن صغار أيّ طبقة، وكم أدرك من إمام، وما ألف. ويمكن أن نلخص كلّ ذلك فيما قاله أحد الأفاضل: إنّّه يعدّ الرجال بأنامله»^(٣٤). وقد قام السيّد بمراجعة أسانيد الروايات التي يُستند إليها في مقام الاستنباط، وحصل على نتائج باهرة، منها: معرفة شخصيّة وأحوال الراوي، والاطّلاع على عدد روايات كلّ راوٍ، وتسليط الضوء على الأسماء المحذوفة من الرواة في سلسلة سند الأحاديث، والكشف عن الموارد المشتركة، وتمييز حالات التحريف والتّصحيف، وترتيب طبقات الرواة.

ومن جملة مؤلّفات السيّد البروجردي: الأحاديث المقلوبة وجواباتها، رسالة في منجزات المريض، حاشية على خلاف الشيخ الطوسي، حاشية على فرائد الأصول، تقليد الأعلام، ترتيب أسانيد الكافي، تجريد أسانيد رجال النّجاشي، حاشية على عمدة الطالب، بيوت الشيعة، صراط النّجاة، مجمع الفروع، المهدي في كتب أهل السّنة، تعلّيق على أسفار الملا صدرا^(٣٥).

وقد كانت للإمام البروجردي مواقف سياسيّة بارزة:

منها: أنّ الشّاه أراد يوماً أن يستبدل الخطّ الفارسي بالخطّ اللاتيني، وطبّل وزمّر لهذا العمل، فوقف السيّد بكّل كيانه ضده، وقال: «لن أسمح بهذا العمل ما دمت حياً ومهما كلف الأمر»^(٣٦).

ومنها: أنّه عندما زاره السيّد إقبال رئيس وزراء إيران آنذاك كلّمه عن الشّاه بلهجة حادة قائلاً: «كان أبوه أُمياً، ولكنّه على قدرٍ من الإدراك والشُّعور، بينما هذا فليس له شعور، ولا يكاد يفقه شيئاً»^(٣٧).

كما كان له مواقف مشهودة في محاربة فرقة البهائية^(٣٨)، وساند حركة تأميم النفط وحكومة الدكتور مُحَمَّد مصدّق^(٣٩)، كما منع الشّاه من الزواج بامرأة إيطالية^(٤٠)، وقد أصدر بياناً مشهوراً لإدانة واستنكار احتلال الأراضي الفلسطينية من قبل الصّهاينة عام ١٩٤٨ م^(٤١).

وقد وافاه الأجل في الثالث عشر من شوال سنة ١٣٨٠ هـ، ودُفن في قم، وأُعلن الحداد العام عليه؛ لخدماته العلميّة ونشاطاته الاجتماعيّة والسياسيّة، والتي صرف عمره الشّريف في المواظبة عليها، فرحمه الله برحمته الواسعة.

منهج البروجردى الوحدوي والإصلاحي:

كان السيّد البروجردى يُبدي اهتماماً واسعاً بفقّه أهل السُّنّة، ولم يقتصر هذا الاهتمام على مستوى معرفة فتاوى أئمة المذاهب الأربعة، بل شمل آراء الصّحابة والتّابعين وغيرهم، كالليث بن سعد، وسفيان الثّوري، وعبد الرحمن الأوزاعي، وداود الإصفهاني الطّاهري^(٤٢). وكانت له عبارة مشهورة، وهي قوله: «إنّ الفقه الشّيعي يقع في هامش فقه أهل السُّنّة»^(٤٣)، بمعنى: أنّ الفقه الشّيعي يعلّق على فقه أهل السُّنّة، وذلك لأنّ أجوبة الأئمة عليهم السّلام كانت تأخذ بنظر الاعتبار الفتاوى السّائدة في ذلك الوقت.

وقد أبدى الإمام البروجردى أيضاً الاهتمام بقضيّة الوحدة بين المذاهب، وظلّ يتابع هذه المسألة الخطيرة، ويعدّ معالجتها من الواجبات الحيويّة لكُلّ عالم شيعيٍّ، ويتعيّن عليه السّعي لتحقيقها..

يقول الشّيخ المطهري: «إحدى الخصائص التي كان يتّصف بها سماحته:

اهتمامه ورغبته الوافرة بقضية الوحدة الإسلامية، وحسن التفاهم والتقريب بين المذاهب الإسلامية. ونظراً لما كان لهذا الرجل من اطلاع على تاريخ الإسلام والمذاهب الإسلامية، فقد كان يدرك بأن سياسة الحكام السابقين كان لها تأثيرها إلى حد بعيد في إثارة الفرقة وتأجيج الاختلاف، وكان يعي أيضاً بأن السياسات الاستعمارية في العصر الراهن تستغل هذه التفرقة أقصى درجات الاستغلال، بل وتعمل أيضاً على إضرار نيرانها وصب الزيت عليها. وكان من الواضح لديه أيضاً بأن ابتعاد الشيعة عن سائر الفرق جعل تلك الفرق لا تعترف بالشيعة، وتخلق عنها تصورات بعيدة عن الحقيقة. وانطلاقاً من كل ذلك كانت لديه رغبة عميقة لإيجاد نوع من حسن التفاهم بين الشيعة والسنة؛ وذلك من أجل تحقيق الوحدة الإسلامية التي تعدّ بمثابة هدف عظيم لهذا الدين المقدس. هذا من جهة، ومن جهة أخرى لتبيين حقيقة الشيعة وفقههم ومعارفهم، كما هي في الواقع للمجتمعات السنية التي تؤلف أغلبية المسلمين... ومما يدعو للعجب أنني سمعتُ من مصدرين موثّقين بأن العارض القلبي الأخير الذي انتهى به إلى الوفاة، جاء بعد عارض قلبي أول أصابه، وكان خلال ذلك فاقداً للوعي مدّة من الزمن، ثم أفاق بعد ذلك، وقبل أن ينتبه إلى وضعه أو يتحدّث عن حالته أثار قضية التقريب والوحدة الإسلامية قائلاً: لقد كانت لي آمال في هذا المجال»^(٤٤).

وعندما تأسست دار التقريب في مصر بتظافر جهود جمع من علماء الشيعة والسنة قام السيّد بدعمها بكل الوسائل، ومنها المال، كما أقام علاقات حسنة مع شيخ الأزهر آنذاك: الشّيخ عبد المجيد سليم، ومن بعده الشّيخ محمود شلتوت عن طريق المراسلات.. وكان السيّد يبدي سروره تجاه أخبار التقريب ويقول: «إنّ التقريب في حالة تقدّم، ونشكر الله على أن كانت لنا مشاركة في ذلك»^(٤٥).

وكان له منهجية خاصة للتقريب، بينها ساحة الشيخ هاشمي الرفسنجاني في سياق كلمته التي ألقاها في مؤتمر تكريم السيد البروجردي والشيخ شلتوت بقوله: «كان الإمام البروجردي يقول في الدرس: اختلافنا مع أهل السنة يتمثل في جانبين: أحدهما: قضية الخلافة، والآخر: حجية أقوال الأئمة. والشيء المهم بالنسبة إلينا هو قضية حجية الأقوال؛ إذ إن قضية الخلافة قضية تاريخية ولا يمكن أن تتكرر اليوم، فيجب البحث مع أهل السنة حول حجية أقوال الأئمة؛ لما لهذه القضية من تأثير في زماننا»^(٤٦).

ويُركز السيد على النقاط المشتركة لإيجاد المحبة والمودة بين الفرق الإسلامية، كما يُركز على دور حديث الثقلين في تثبيت الوحدة بين المسلمين، وبذل مساعيه الشريفة في تعريف مصادر الاستنباط عند كل من الفريقين، بحيث تعرف أعضاء بارزون في دار التقريب على فقه الشيعة وأصولهم، ففي إحدى المرات سافر وزير الأوقاف المصري آنذاك: الشيخ أحمد حسن الباقوري إلى إيران، والتقى بالسيد البروجردي، وتأثر بشخصيته إلى درجة كبيرة، وعندما عاد إلى مصر كتب مقدمة على كتاب «المختصر النافع» للعلامة الحلي، ونشر على نفقة وزارة الأوقاف في مصر^(٤٧).

هذا كله ما يتعلق بفكر هذين العالمين الجليلين من علماء الشيعة، وسأتعرض - إن شاء الله - في العدد القادم إلى شخصيتين أخريين كان لهما دور كبير في مسائل وقضايا الوحدة الإسلامية، وهما من علماء إخواننا السنة، أولهما: الشيخ محمد الغزالي، وثانيهما: السيد عبد الرحمن الكواكبي.

فإلى اللقاء ثانياً..

وَأَخِرُ دَعْوُهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ...

الهوامش:

- (١) الغزالي، مُحَمَّد، دفاعٌ عن العقيدة والشرعية ضدّ مطاعن المستشرقين: ٣٣٥، الطبعة الخامسة ١٩٨٨م، نشر: دار الكتب الإسلامية.
- (٢) شلتوت، محمود، الإسلام عقيدة وشرعية: ٤٣٤، الطبعة السابعة عشر ١٤١١هـ، نشر: دار الشروق، بيروت والقاهرة.
- (٣) الندوي، أبو الحسن، رجال الفكر والدعوة ١: ١١-٢٣، الطبعة الحادية عشر ١٤٢٠هـ، نشر: دار القلم، بيروت.
- (٤) المصدر نفسه ١: ١٥.
- (٥) الساعدي، مُحَمَّد جاسم، كاشف الغطاء: ٧، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ، نشر: المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، طهران.
- (٦) الأميني النجفي، د. مُحَمَّد هادي، معجم رجال الفكر والأدب ٣: ١٠٤٩، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ.
- (٧) الخليلي، جعفر، هكذا عرفتهم ١: ٢٢٨، نشر: مكتبة الشريف الرضي، قم.
- (٨) لاحظ: كاشف الغطاء، مُحَمَّد حسين، تحرير المجلة ١: ١٠٩، تحقيق: مُحَمَّد جاسم الساعدي، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ، نشر: المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، طهران.
- (٩) الخاقاني النجفي، علي، شعراء الغري ٨: ١٢٥، ١٢٧، نشر: مكتبة المرعشي النجفي، قم ١٤٠٨.
- (١٠) هذا البيت تضمنه بيت المتنبي، راجع: ديوان المتنبي ٢: ٢٥٠، شرح وتعليق: مصطفى سبيتي، الطبعة الأولى ١٤٠٦، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت.
- (١١) انظر: كاشف الغطاء: ١٧٧-١٩٢، مرجع سابق.
- (١٢) لاحظ المصدر نفسه: ١٣٧.
- (١٣) المصدر نفسه: ١٣٧-١٣٨.
- (١٤) سورة الأنعام: ٦٥.
- (١٥) كاشف الغطاء: ١٤٠، مرجع سابق.
- (١٦) سورة التوبة: ٧١.
- (١٧) سورة الفتح: ٢٣.
- (١٨) كاشف الغطاء، مُحَمَّد حسين، محاوره الإمام مع السفيرين: ٥٦، الطبعة الثالثة، إعداد وطبع: المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف.

- (١٩) كاشف الغطاء، مُحَمَّد حسين، جنة المأوى: ٣١٦، تحقيق: مُحَمَّد علي القاضي الطَّبَّاطبائي، الطبعة الثانية ١٤٢٦هـ، نشر: دار أنوار الهدى، قم.
- (٢٠) تجد جميع موارد كلام كاشف الغطاء المذكورة آنفاً في كتاب: حول الوحدة الإسلامية: ٣٣ - ٤٠، إعداد ونشر: معاوينة العلاقات الدولية في منظمة الإعلام الإسلامي، الطبعة الثانية ١٤٠٩، طهران.
- (٢١) گلشن أبرار (رياض الأبرار) ٢: ٦٦٢، إعداد: جمع من باحثي الحوزة بقم، الطبعة الثالثة ١٣٨٥هـ. ش، نشر: معروف، قم.
- (٢٢) مجله حوزة (مجلة الحوزة)، العدد: ٥٣، الصفحة: ٥٢، ٥٧.
- (٢٣) المصدر نفسه، العددان: ٤٣، ٤٤، صفحة: ٣١٤.
- (٢٤) واعظ زاده الخراساني، مُحَمَّد، حياة الإمام البروجردي: ٤٥ - ٤٨، إعداد: جلال الدين مير آقائي، الطبعة الأولى ١٤٢١، نشر: المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، طهران.
- (٢٥) اللواني، علي، زندگاني (حياة) آية الله البروجردي: ١٠١ - ١٠٢.
- (٢٦) المصدر نفسه: ١٠٤.
- (٢٧) آبادي، مُحَمَّد علي، أَلْگوي زعامت (قدوة القيادة): ٤٤، الطبعة الأولى ١٣٧٨هـ. ش، نشر: عصمت، قم.
- (٢٨) زندگاني (حياة) آية الله البروجردي: ١١٩، مرجع سابق.
- (٢٩) چشم وچراغ مرجعيت (قرة عين ومشعل المرجعية): ٣٠٢، إعداد: مجموعة من الباحثين، الطبعة الأولى ١٣٧٩هـ. ش، نشر: مكتب الإعلام الإسلامي، قم.
- (٣٠) المطهري، مرتضى، مسألة شناخت (مسألة المعرفة): ١٤٤، نشر: إيران.
- (٣١) مجله الحوزة، مرجع سابق.
- (٣٢) الحجّتي، بهاء الدين، الحاشية على كفاية الأصول (تقرير بحث البروجردي) ٢: ١٥٣ وما بعدها، تصحيح: غلام رضا مولانا، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، نشر مؤسسة أنصاريان، قم.
- (٣٣) الإمام الخميني، روح الله، لمحات الأصول (تقرير بحث البروجردي): ١٧، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ، تحقيق ونشر: مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني، قم.
- (٣٤) أَلْگوي زعامت: ٨٣.
- (٣٥) لمراجعة فهرسة مؤلفات السيّد البروجردي راجع كتاب: چشم وچراغ مرجعيت: ٢٨٦ - ٣١١، مرجع سابق.

- (٣٦) گلشن أبرار ٢: ٦٧١، مرجع سابق.
- (٣٧) مجلّة الحوزة، العددان: ٤٣، ٤٤، صفحة: ١١٥.
- (٣٨) چشم و چراغ مرجعیت: ٣٤٢، مرجع سابق.
- (٣٩) المصدر نفسه: ١٠٣، ١٦٢، ٢٧٩.
- (٤٠) مجلّة الحوزة، العددان: ٤٣، ٤٤، صفحة: ١١٦، ١٣٣.
- (٤١) الدّواني، علي، مفاخر الإسلام ١٢: ٣٦٢، الطّبعة الرّابعة ١٣٧٩هـ، نشر: مركز أَسناد الثّورة الإسلاميّة، طهران.
- (٤٢) چشم و چراغ مرجعیت: ١٢٧، مرجع سابق.
- (٤٣) زندگانی (حیاة) آية الله البروجردي: ٨٤، مرجع سابق.
- (٤٤) المطهري، مرتضی، شش مقالة (ستُّ مقالات): ٢٦٠، (التّكامل الاجتماعي للإنسان)، نشر: إيران.
- (٤٥) چشم و چراغ مرجعیت: ١٣٥، مرجع سابق.
- (٤٦) عدد خاص من صحيفة «جمهوري إسلامي»، بتاريخ ٣ / ١١ / ١٣٧٩هـ.ش.
- (٤٧) زندگانی (حیاة) آية الله البروجردي: ٩١، مرجع سابق.

مفهوم ابتغاء الوسيلة

دراسة قرآنية

□ الشيخ خالد الغفوري (*)

إنَّ (ابتغاء الوسيلة) من المفاهيم التي وردت في القرآن الكريم، وقد ذُكر هذا المفهوم في سورتي المائدة والإسراء، ولكي نعرف ما هو المراد من هذا المفهوم، وما هو موقف القرآن منه، لا بدَّ من دراسة كلا الموضعين:

الموضع الأول:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥].

وفي البدء ينبغي التّعرّض لأمرين قبل دراسة مدلول هذا المفهوم:

الأمر الأول: في بيان المراد الإجمالي من الآية

لقد اشتملت هذه الآية على ثلاثة أوامر:

١. الأمر بتقوى الله، بمعنى اجتناب غضبه بترك المعاصي.

٢. الأمر بابتغاء الوسيلة لأجل التّقرّب إلى الله تعالى.

(*) رئيس تحرير مجلّة فقه أهل البيت (عليه السلام).

٣. الأمر بالجهاد في سبيل الله.

ثم خُتِمت الآية بجعل الفلاح غاية لهذه الأوامر.

الأمر الثاني: في بيان بعض مفرداتها

ونقتصر على ذكر مفردتين:

الأولى: الابتغاء، وقد خُصَّ بالاجتهاد في الطلب، أو ضمَّن معنى

الحرص^(١).

الثانية: الوسيلة، وهي التَّوَصَّلُ إِلَى الشَّيْءِ برغبة، وهي أخص من الوصيلة؛

لتضمَّنْها معنى الرِّغْبَةِ، وهي كالقربة^(٢). ويحتمل: إرادة ما به التَّوَصَّلُ

والتَّقَرُّبُ^(٣).

قال لبيد^(٤):

أرى النَّاسَ لا يدرون ما قدرُ أمرهم أَلَا كُلُّ ذِي لَبٍّ إِلَى اللَّهِ وَاسِلٌ

والوسيلة: كُلُّ مَا يُتَوَسَّلُ بِهِ، أي: يتقَرَّبُ بِهِ من قرابةٍ أو صنعةٍ أو غير ذلك،

فاستعيرت لما يتوسَّلُ بِهِ إِلَى اللَّهِ تعالى من فعل الطَّاعَاتِ وترك المعاصي، وهي

فعيلة من تَوَسَّلْتُ إِلَيْهِ، أي: تقَرَّبْتُ، قال عنتره:

إِنَّ الرَّجَالَ لَهُمْ إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ أَنْ يَأْخُذُوا بِكَ تَكْحَلِي وَتَخْضَبِي

والجمع: الوسائل، قال الشاعر:

إِذَا غَفَلَ الْوَاشُونَ عُذْنَا لَوْصَلْنَا وَعَادَ التَّصَافِي بَيْنَنَا وَالْوَسَائِلُ^(٥)

ويقال: منه سِلْتُ، أي: طلبْتُ، وهما يتساوِان، أي: يطلب كُلُّ وَاحِدٍ من

صاحبه، فالأصل الطَّلَب. والوسيلة: القربة التي ينبغي أَنْ يطلب بها، والوسيلة

درجة في الجَنَّةِ^(٦).

البحث في مدلول الآية:

أولاً: حكم ابتغاء الوسيلة

إِنَّ الأمر بابتغاء الوسيلة ظاهره الوجوب، فيجب طلب الوسيلة، وبذل قُصارى الجهد في هذا الطَّلَب؛ لأنَّ الابتغاء ليس هو مطلق الطَّلَب، بل هو الاجتهاد في الطَّلَب كما فسره بعض اللغويين.

ثانياً: في المراد من الوسيلة

وفيه احتمالات ثلاثة:

الأول: أن يُراد بها درجة في الجنة، وعن عطاء أنَّها أفضل درجات الجنة، وروى عن النبي ﷺ أنه قال: «سلوا الله لي الوسيلة، فإنَّها درجة في الجنة لا ينالها إِلَّا عَبْدٌ واحدٌ، وأرجو أن أكون أنا هو»^(٧)، وروى عنه أيضاً: «من سأل لي الوسيلة حلت له الشَّفاعة»^(٨).

وهذا الاحتمال لا يتلاءم مع ظاهر الآية؛ فإنَّه لو أُريد هذا المعنى لعبر عنه بابتغاء الوسيلة من دون حاجةٍ إلى الجارِّ والمجرور ﴿إِلَيْهِ﴾، أو التعبير عنه بـ (منه). ومَّا يزيد في ضعف هذا الاحتمال ما ورد من كون الوسيلة درجةً يختصُّ بها النبي ﷺ.

الثاني: أن يُراد بالوسيلة القربة بالمعنى المصدري، أي: التَّقَرُّبُ إليه، ويكون المعنى: اجتهدوا في طلب التَّقَرُّبِ إليه تعالى، فتكون الآية دالَّةً على الأمر بالاجتهاد في طلب التَّقَرُّبِ إلى الله تعالى.

وهذا أيضاً خلاف الظَّاهر؛ إذ لو كان ذلك هو المراد لأمر بالتَّقَرُّبِ أو بالاجتهاد بالتَّقَرُّبِ مباشرة، لا بتوسيط الأمر بطلب ذلك.

الثالث: أن يُراد بها ما يتوسَّل به، وليس المراد المعنى المصدري، وهو الشَّائع في الاستعمال، كما أنَّه هو الظَّاهر من الآية، أي: ابذلوا قصارى جهدكم، وتحروا ما يوصلكم إلى الله تعالى، هذا من ناحية المفهوم.

وأما من ناحية المصداق، فيحتمل أن يكون هي الطَّاعات والأعمال الصَّالحة، كما أنَّه يحتمل أن يكون التَّحَقُّقُ بحقيقة العبودية، أو التَّلبُّسُ بطريق

الهداية إلى الله.

والاحتمال الثالث هو الأرجح؛ لأنّ قوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ مسبوقة بقوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ وملحوق بقوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾، وكلا الجملتين مطلقتان، وتدلان على الاجتهاد في طاعة الله، فإرادة المصداق الأول موجبٌ للتكرار. والمصداق الثاني وإن كانت إرادته ممكنة إلا أنّه لا قرينة عليه. وعليه، فالأظهر إرادة الأخير، وهو الطريق الموصل إلى الله. ويؤيد ذلك أنّ السبيل يحتاج في تشخيصه إلى دقّة، وليس هو واضحٌ جداً، فعبر بالابتغاء، كما أنّ الوسيلة أخذ في معناها الرّغبة، وبذلك افرقت عن مطلق الوسيطة، والرّغبة تناسب الطريق والسبيل عادة؛ إذ أنّ الطّاعة ربما يستثقلها المكلف فيؤديها لا عن رغبة بل امتثالاً للأمر، ومن هنا أريد من المؤمن أن يكرّر الدّعاء والطلب من الله بالقول: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٩) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ [الحمد].

وهذا المعنى ينطبق على ما ذهبت إليه الإماميّة من كون المراد بذلك طريق أهل بيت النّبوة ﷺ، ورووا في تفسير الآية: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾، أي: «تقربوا إليه بالإمام»^(٩).

وروي عن عليّ عليه السلام في هذه الآية: «أنا وسيلته»^(١٠).

ثالثاً: طبيعة الأوامر والنّواهي

وليُعلم أنّ الأوامر والنّواهي الإلهيّة منها ما يكون معبراً عن حكم خاصّ، نظير: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣]، ومنها ما يكون معبراً عن حكم عامّ، نظير: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١].

والفرق بينهما، مع اشتراكهما في المطلبية والمرغوبية، هو أنّ المراد في القسم الثاني يكون نيلاً أشدّ من القسم الأول، ومن هنا ناسبه الأمر بالاجتهاد في طلبه، كما ناسبه التعبير بكلمة قد أُشربت معنى الرّغبة، كما هو الحال في كلمة الوسيلة.

وبما أنَّ الطَّريق العام: هو الإسلام والإيمان، فأمرُ المسلمين والمؤمنين بذلك معناه تحصيل الحاصل، وعليه فلا بدَّ أن يكون المراد الطَّريق إلى الإسلام الَّذي يحفظ المؤمن من الانحراف، فهي إذن الهداية الخاصَّة الواقعة في طول الهداية العامة.

الموضع الثَّاني:

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧].

وفي دراسة هذه الآية نقدّم - أيضاً - مقدّمتين:

الأوَّلَى: إِنَّ هذه الآية أعقبت قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ ذُبُورًا﴾ ﴿٥٥﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ ﴿٥٦﴾.

وقد جاءت هذه الآية لتكشف عن حقيقة هامّة، وهي: أنَّ كُلَّ مخلوقٍ مهما كانت مرتبته فإنَّ العبوديّة لازمةٌ له، والله جلّ وعلا هو قطب هذه العبوديّة، فلا معنى لعبوديّة غيره؛ لكون كُلِّ ما فُرض أنّه غير الله فهو عبدٌ لله.

هذا، وقد اختلفت كلماتهم في بيان سبب نزول هذه الآية:

- قال ابن مسعود: نزلت في قوم من العرب من خزاعة أو غيرهم، كانوا يعبدون رجالاً من الجنّ، فأسلم الجنّيون، وبقي الكفّار يعبدونهم، فأنزل الله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ...﴾.

- وعن ابن عبّاس: أنَّ الآية نزلت في الَّذِينَ كانوا يعبدون عُزَيْرًا والمسيح وأُمّه.

- وعنه أيضاً، وعن ابن مسعود وابن زيد والحسن: أنَّها نزلت في عبدة الملائكة.

- وعن ابن عباس: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي عِبْدَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْكَوَاكِبِ وَعُزَيْرِ
وَالْمَسِيحِ وَأُمِّهِ ^(١١).

الثَّانِيَّةُ: فِي بَيَانِ بَعْضِ مَفْرَدَاتِ الْآيَةِ

- ﴿أُولَئِكَ﴾: مَبْتَدَأٌ فِي مَحَلِّ رَفْعٍ، وَ﴿يَبْتَغُونَ﴾: خَبَرُهُ.

- ﴿الَّذِينَ﴾: صِفَةٌ.

- ﴿يَدْعُونَ﴾: صِلَةُ الْمَوْصُولِ.

- ﴿أَيُّهُمْ﴾: مَبْتَدَأٌ، وَ﴿أَقْرَبُ﴾: خَبَرُهُ، وَهُوَ بَيَانٌ لَابْتِغَاءِ الْوَسِيلَةِ؛ لَكُونَ الْابْتِغَاءِ

فَحْصًا وَسُؤَالًا فِي الْمَعْنَى عَلَى مَا يُعْطِيهِ السِّيَاقُ، وَيَحْتَمِلُ كَوْنُ ﴿أَيُّ﴾ بَدَلًا مِنْ

ضَمِيرِ الرَّفْعِ فِي ﴿يَبْتَغُونَ﴾، وَهِيَ مَوْصُولَةٌ.

- ﴿مَحْذُورًا﴾، أَيُّ: مَتَّقَى.

البحث في مدلول الآية:

فِي الْآيَةِ احْتِمَالَاتٌ عَدِيدَةٌ، نُشِيرُ إِلَى الْمَهْمِّ مِنْهَا، وَهُوَ اثْنَانِ:

الأوَّلُ: أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ اسْمِ الْإِشَارَةِ ﴿أُولَئِكَ﴾: الْأَنْبِيَاءُ، وَالْمَعْنَى: أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ

يَدْعُونَ إِلَى اللَّهِ أَوْ إِلَى الْحَقِّ، أَوْ يَدْعُونَ اللَّهَ وَيَتَضَرَّعُونَ إِلَيْهِ يَطْلُبُونَ بِذَلِكَ الزَّلْفَى

لَدَيْهِ؛ لِيُظْهَرَ أَنََّّهُمْ كَانَ أَحْضَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَشَدَّ تَقَرُّبًا إِلَيْهِ بِالْأَعْمَالِ ^(١٢). وَالْقَرِينَةُ عَلَى

ذَلِكَ هُوَ تَقَدُّمُ الْحَدِيثِ عَنْهُمْ قَبْلَ هَذِهِ الْآيَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿...وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ

الَّذِينَ عَلَى بَعْضٍ وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾. وَمَالَ ذَلِكَ: إِلَى أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ مَعَ عُلُوِّ رَتَبِهِمْ،

وَشَرَفِ مَنْزِلَتِهِمْ، إِذَا لَمْ يَعْبُدُوا غَيْرَ اللَّهِ، فَأَنْتُمْ أَوْلَى أَنْ لَا تَعْبُدُوا غَيْرَ اللَّهِ، وَإِنَّمَا

ذُكِرَ ذَلِكَ حَتًّا عَلَى الْاِقْتِدَاءِ بِهِمْ ^(١٣). وَلَا يَخْفَى مَا فِي ذَلِكَ مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى

مَطْلُوبِيَّةِ التَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَالتَّزَلُّفِ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ فِعْلُ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِينَ هُمْ

الْقُدُوةُ لِسَائِرِ النَّاسِ.

وَيُرَدُّ عَلَى هَذَا الْاِحْتِمَالِ أَنَّ إِرَادَةَ الْأَلْهَةِ الْمَزْعُومَةِ لِلْمَشْرِكِينَ أَوْلَى؛ لِأَنَّ اسْمَ

الموصول في قوله: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ...﴾ أقرب إلى اسم الإشارة ﴿أُولَئِكَ﴾ من لفظ ﴿الَّتِيحَنَ﴾، سيما مع التناظر بين لفظي ﴿أَدْعُوا﴾ و ﴿يَدْعُونَ﴾ الذي يُشير إلى وحدة المدعو في الجملتين، وهم الآلهة المزعومة دون الله.

هذا، مضافاً إلى أنَّ المشركين لا يعتقدون بالأنبياء والرسل، فلا يصحَّ حاجبتهم بما عليه أنبياء الله من عبادة الله سبحانه، وإنَّها المناسب للاحتجاج على المشرك بشيء هو يعتقد به ويسلمه، وهم الآلهة.

الثاني: أنَّ المراد باسم الإشارة ﴿أُولَئِكَ﴾: الَّذِينَ يدعونهم المشركون من الملائكة والجن والإنس، يطلبون ما يتقربون به إلى ربهم، يستعملون أيهم أقرب حتى يسلكوا سبيله ويقتدوا بأعماله؛ ليتقربوا إليه تعالى ويرجون رحمته ويخافون عذابه.

فهؤلاء المشركون من الوثنيين يتوسلون إلى الله ويتقربون بالملائكة الكرام والجن والأولياء من الإنس، فيتركون عبادته تعالى ولا يرجونه ولا يخافونه، وإنَّها يعبدون الوسيلة ويرجون رحمته ويخافون سخطها، ثم يتوسلون إلى هؤلاء الأرباب والآلهة بالأصنام والتماثيل، فيتركونهم ويعبدون الأصنام ويتقربون إليهم بالقرايين والذبائح.

وبالجملة: يدعون التقرب إلى الله ببعض عباده أو أصنام خلقه، ثم لا يعبدون إلا الوسيلة مستقلة، ويرجونها ويخافونها مستقلة من دون الله، فيشكون بإعطاء الاستقلال لها في الربوبية والعبادة. والمراد بالوسيلة ما به التوصل والتقرب، وهو الأنسب بالسياق؛ نظراً لتعقيبه بقوله: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾.

ثم إنَّ المراد بـ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ إنَّ كان هو الملائكة الكرام والصلحاء المقربون من الجن والأنبياء والأولياء من الإنس - كما في الاحتمال الأول - كان المراد من ابتغائهم الوسيلة ورجاء الرحمة وخوف العذاب: ظاهره المتبادر، أي:

يتضرعون إلى الله تعالى ويتقربون إليه بأفعالهم الاختيارية^(١٤).

لكن إن كان المراد بهم: الأعم من ذلك، حتى يشمل من كانوا يعبدونه من مردة الشياطين وفسقة الإنس، كفرعون ونمرود وغيرهما، كان المراد بابتغائهم الوسيلة إليه تعالى ما ذكر من خضوعهم وسجودهم وتسبيحهم التكويني غير الإرادي، وكذا المراد من رجائهم وخوفهم ما لذواتهم من الافتقار والحاجة والتعلق بالخالق عز وجل^(١٥).

وفي الآية دلالة على أن لا شيء يستحق أن يُعبد من دون الله على نحو الاستقلال، فلو فرض أن هناك وسيلة موصلة إليه، فهو الذي يكون أهلاً للعبادة، وليس الوسيلة، فتكون الآية من الآيات النائية عن الشرك.

جولة ختامية:

يتضح مما تقدم:

- أن النص الأول يأمر بالاجتهاد في طلب الوسيلة إلى الله.
- أن الثاني يحذر من الانحراف في جعل الوسيلة هدفاً.
- وحاصل الجمع بين النصين: أن اتخاذ الوسيلة إليه تعالى مرغوب فيه ومأمور به، والعكوف على الوسيلة من دون الله مرفوض ومنهي عنه.
- بقي شيء لم يتكفل النصان ببيانه، وهو: ما هي خصائص الوسيلة التي تتخذ؟

وقد تعرضت نصوص الكتاب إلى بيان ذلك بنحوين:

الأول: البيان الكلي، وأنه لا بد من أن تكون الوسيلة مأذوناً بها من الله، وليس الأمر بيد البشر، قال سبحانه معترضاً على المشركين الذين اخترعوا لأنفسهم أرباباً من دون الله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَعَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ [النجم: ٢٣].

الثاني: البيان الخاص، كقوله جلّ وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، وقوله: ﴿إِنهَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [٥٥] وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ [المائدة]، وقوله: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]، وما شابه ذلك.

* * *

الهوامش:

- (١) الراغب الإصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن: ٥٦، الطبعة الثانية ١٤٠٤، نشر: دفتر نشر الكتاب.
- (٢) المصدر نفسه: ٥٢٣.
- (٣) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن ١٣: ١٣٠، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم.
- (٤) الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين ٧: ٢٩٨، تحقيق: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، الطبعة الثانية ١٤١٠، نشر: مؤسسة دار الهجرة.
- (٥) القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن ٦: ١٥٩، تحقيق: أبو إسحاق إبراهيم أطفيش، نشر دار إحياء التراث العربي ١٤٠٥، بيروت.
- (٦) المصدر نفسه.
- (٧) أمين الإسلام الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن ٣: ٣٢٧، الطبعة الأولى ١٤١٥، نشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
- (٨) الجامع لأحكام القرآن ٦: ١٥٩، مرجع سابق.
- (٩) القمّي، علي بن إبراهيم، تفسير القمي ١: ١٦٨، تعليق وتصحيح: السيّد طيّب الموسوي الجزائري، الطبعة الثالثة ١٤٠٤، نشر: مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر، قم.
- (١٠) الحافظ ابن شهر آشوب، محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب ٢: ٢٧٣، تصحيح وشرح ومقابلة: لجنة أساتذة النجف الأشرف، نشر: المكتبة الحيدرية عام ١٩٥٦، النجف الأشرف.

- (١١) راجع: أضواء البيان للشنقيطي ٣: ١٦٢، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات، نشر: دار الفكر للطباعة والنشر ١٤١٥، بيروت.
- (١٢) شيخ الطائفة الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن ٦: ٤٩١، تحقيق وتصحيح: أحمد حبيب قصير العاملي، الطبعة الأولى ١٤٠٩، نشر: مكتب الإعلام الإسلامي، قم.
- (١٣) أمين الإسلام الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن ٦: ٢٦٢، الطبعة الأولى ١٤١٥، نشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
- (١٤) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن ١٣: ١٣٠، مرجع سابق.
- (١٥) المصدر نفسه.

مع الإمام الخميني رحمته الله

في رحاب شهر شعبان

□ الشيخ مصطفى جعفر بيته فرد (*)

تقديم

تعتبر الأشهر الثلاثة الأولى من النصف الثاني من السنة أشهر نشاط وسرور لأولياء الله تعالى، المشتاقين للجذبات المعنوية، والتجليات الربوبية، فتراهم يمضون أشهر السنة الواحد تلو الآخر، ويعدون اللحظات مهيئين أنفسهم للورود إلى الأشهر الثلاثة: رجب، وشعبان، وشهر رمضان. فقد ورد في الخبر عن النبي صلوات الله عليه وآله قوله: «ألا إن رجباً شهر الله، وشعبان شهري، ورمضان شهر أمتي...»^(١).

وكما أن لبعض الأماكن تأثيرات خاصة على روحية الإنسان، فبعضها أشرف من بعض، كالمسجد الحرام، والروضة النبوية، والحائر الحسيني، فكذاك للأزمنة تأثير عظيم على توجهاته الباطنية. فلليل - مثلاً - تأثير كبير على الدعاء، والذكر، والتفكير، والخلوة، قال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾

(*) أستاذ في الحوزة العلمية، وعضو الهيئة العلمية في جامعة المصطفى صلوات الله عليه وآله العالمية.

[المزمّل: ٦]، وليس ذلك إلا لفراغ البال من المشاغل التي تعرض على الإنسان في أوقات النهار.

ومن أهم الأوقات التي تمّ التأكيد عليها في المجمع الحديثية، واستفاضت الأخبار وتواترت على شرفها وفضلها هو: شهر شعبان.

فكلمة «شعبان» التي يرجع أصلها اللغوي إلى كلمة «شعب»^(٢)، تدلّ على أنّ هذا الشهر المسمّى بهذا الاسم هو مصدرٌ لشعب الخيرات، وانفتاح أبواب الرّحمة والبركات.

وقد ورد في بعض الأخبار: «لَقَدْ مَرَّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ عَلَيْهِ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَخْلَاطِ الْمُسْلِمِينَ لَيْسَ فِيهِمْ مُهَاجِرِيٌّ وَلَا أَنْصَارِيٌّ، وَهُمْ قُعُودٌ فِي بَعْضِ الْمَسَاجِدِ فِي أَوَّلِ يَوْمٍ مِنْ شَعْبَانَ، وَإِذَا هُمْ يَخُوضُونَ فِي أَمْرِ الْقَدَرِ وَغَيْرِهِ مِمَّا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ، قَدْ ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمْ، وَاشْتَدَّ فِيهِمْ مُحْكَمَتُهُمْ وَجِدَاهُمْ»، فخطبهم في كلام طويل، جاء فيه: «هَذَا يَوْمٌ غُرَّةُ شَعْبَانَ الْكَرِيمِ، سَمَّاهُ رَبُّنَا شَعْبَانَ؛ لِشَعْبِ الْخَيْرَاتِ فِيهِ. قَدْ فَتَحَ رَبُّكُمْ فِيهِ أَبْوَابَ جَنَانِهِ، وَعَرَضَ عَلَيْكُمْ قُصُورَهَا وَخَيْرَاتَهَا بِأَرْحَاصِ الْأَتَمَانِ...»^(٣).

فالفضائل والبركات التي ذُكرت في المصادر الدّينية، والروائية لهذا الشهر الشريف جعلت طلاب القرب الإلهي يولون عنايةً وتوجّهاً خاصّين له؛ لينالوا من الكمالات ما يؤهّلهم لتلقّي الفيوضات الرّبّانية، لا سيما في شهر رمضان المبارك.

كما أنّ الولادات العطرة التي يكتنفها هذا الشهر كمولد الإمام الحسين عليه السلام، والإمام الحجة عليه السلام تضيف عليه المزيد من الشّرف والفضيلة.

وكم يخلو للعاشقين، والمشتاقين للجمال الإلهي الذين يريدون أن يغترفوا أفضل الزّاد في كلّ لحظةٍ من لحظات هذا الشّهر المبارك، ويتعرّفوا أكثر عليه، وعلى أدعيته أن يروا شمس ضيائه المشعّة بمرآة عبد صالح، قد أولى اهتماماً بالغاً

بالحقائق المعنوية، ويستمعوا إلى أنوار كلامه حول معالمه، ما يكشف أكثر عن عظمة، وشموخ روحه الطاهرة.

فلا شك في أنَّ الإمام الخميني رحمه الله ذو شخصيّة متعددة الأبعاد، بل إنَّ لنا أن ندَّعي أنَّه قد جمع الأضداد في شخصيته. ولئن أصبح بعض تلك الأبعاد معروفاً للنَّاس، لا سيَّما البارز منها، والذي يسهل عليهم فهمه، لكنَّه - وللأسف - فإنَّ الأبعاد المعنوية والروحية لهذا الإمام العظيم بقيت مغمورة، فشبابنا المتعطشون لمعرفة الحقائق، الذين لم يدركوا الإمام رحمه الله، ولم يذوقوا طعم اللقاء معه عن قرب لا يعرفون إلَّا القليل من أبعاد شخصيته المباركة.

فالأبعاد الروحية، والاتِّجاهات المعنوية للإمام الرَّاحل رحمه الله، والتي كانت مزوجة بالتمسك والتعلُّق بالشرعية الدِّينية، هي من أهم - بل أهم - أبعاد شخصيته المتعددة، وليس هذا بادِّعاء؛ إذ لا يبالغ من يقول إنَّ هذا البعد جعل من الإمام الرَّاحل رحمه الله رجلاً سياسياً، ثابتاً، مؤمناً، فهيماً، لا يهزم، ذا أهداف سامية، وتطلعاتٍ متعالية.

فمِمَّا لا يمكن غصُّ الطرف عنه في حياة الإمام الرَّاحل رحمه الله، ومنذ سنيَّ حياته الأولى، مروراً بالمدة التي أمضاها في الحوزة العلمية؛ مشغلاً بتحصيل العلوم، والأيام التي كان فيها قائداً كبيراً، ومحبوبَ قلوب الملايين من العشاق والمشتاقين، ممسكاً بزمام أعظم ثورة، والذي كان يظهر جلياً في كلماته، وكتاباتهِ بشكلٍ عميقٍ هو التوجُّه للباطن، والمسائل المعنوية، والروحية.

بل إنَّ توجُّهه رحمه الله للعمل السياسي كان نابعاً من توجُّهه إلى هذه الحقيقة، فإنَّها قد مهّدت له الطريق للثورة في السَّاحة السياسية، والتدخُّل في الأمور الاجتماعية.

ومستندات المواجهات الأولى للإمام الرَّاحل رحمه الله بتاريخ: ١٣٢٣/٢/١٥ هـ.ش، حيث كان يناهز السَّابعة والأربعين من عمره الشَّريف شاهد صدق

على هذه الوقائع^(٤). ففي هذه الرسالة واستلهاماً من قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطِيَكُمْ بِوَحْدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ مِثْنٍ وَفُرَدَى﴾ [سبأ: ٤٦]، يقول ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ بَيَّنَّ فِي هَذَا الْكَلَامِ الشَّرِيفِ الطَّرِيقَ مِنْ مَنْزِلِ الطَّبِيعَةِ الْمَظْلَمِ، وَحَتَّى مَتَّهَى سِيرِ الْإِنْسَانِيَةِ. وَأَفْضَلَ مَوْعِظَةٍ انْتَخَبَهَا إِلَهُ الْكَوْنِ مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ الْمَوَاعِظِ، وَنَصَحَ بِهَا، هِيَ الْكَلِمَةُ الْفَارِدَةُ الَّتِي تُمَثِّلُ الطَّرِيقَ الْوَحِيدَ لِلصَّلَاحِ فِي الْعَالَمِينَ وَهِيَ الْقِيَامُ لِلَّهِ». ثُمَّ يَضِيفُ قَائِلًا: «الْقِيَامُ لِلَّهِ الَّذِي قَامَ بِهِ مُوسَى الْكَلِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِعَصَاهُ فِي وَجْهِ فِرْعَوْنَ وَأَتْبَاعِهِ، جَعَلَ مَلِكَهُمْ هَبَاءً مَنْثُورًا، وَالَّذِي أَوْصَلَهُ إِلَى مِيقَاتِ الْمَحْبُوبِ، وَجَرَّهُ إِلَى مَقَامِي الصَّعْقِ وَالصَّحْوِ.

الْقِيَامُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ مُحَمَّدًا ﷺ يَنْتَصِرُ عَلَى جَمِيعِ عَادَاتِ، وَعَقَائِدِ الْجَاهِلِيَّةِ، حَيْثُ أَلْقَى بِالْأَصْنَامِ مِنْ عَلَى بَيْتِ اللَّهِ ﷺ؛ لِيُغْرِسَ مَكَانَهَا التَّوْحِيدَ، وَالتَّقْوَى، وَالَّذِي أَوْصَلَ تِلْكَ الذَّاتِ الْمُقَدَّسَةَ إِلَى مَقَامِ ﴿قَابُ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم: ٩].

فَالْإِلْهَامُ السَّابِقُ مِنْ آيَةِ الْمَوْعِظَةِ قَدْ اسْتَشْهَدَ بِهِ الْإِمَامُ الرَّاحِلُ ﷺ عَلَى طَوْلِ تَارِيخِهِ الْفِكْرِيِّ، وَالسِّيَاسِيِّ، فَكَانَ يُعْتَبَرُ أَنَّ الْعَمَلَ الْأَسَاسَ لِلثَّوْرَةِ فِي الدَّخْلِ وَالخَارِجِ هُوَ الْقِيَامُ لِلَّهِ تَعَالَى. وَأَنَّ الْقِيَامَ لِلَّهِ هُوَ الْمَبْنَى الْأَسَاسِيُّ لِأَيِّ تَغْيِيرٍ وَإِصْلَاحٍ فِي السَّاحَةِ الدَّخْلِيَّةِ لِلْفَرْدِ، أَوْ مِيدَانِ الْأُمُورِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ. وَعَلَى هَذَا الْأَسَاسِ كَانَ ﷺ يَسْتَفِيدُ مِنَ الْأَوْقَاتِ الْخَاصَّةِ، وَالْأَزْمَنَةِ ذَاتِ الشَّرَفِ أَفْضَلَ اسْتِفَادَةً.

كَمَا كَانَ الْإِمَامُ ﷺ الَّذِي تَذَوَّقَ طَعْمَ يَنْبَاعِ رَجَبٍ، وَشَعْبَانَ، وَشَهْرَ رَمَضَانَ يَقُودُ الْأَفْئِدَةَ الْمَشْتَاقَةَ إِلَى حِيَاضِ هَذِهِ الْيَنْبَاعِ الْعَذْبَةِ؛ إِذْ كَانَ يَرَى الْعَالَمَ بَعِينَ السَّالِكِ إِلَى اللَّهِ، وَيَعِيشُ ضَمْنَ هَذِهِ الدَّائِرَةِ الْفِكْرِيَّةِ، فَيَسِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مَعَ الْخَلْقِ، وَأُمَّتِهِ الَّتِي يَتَزَعَّمُ قِيَادَتَهَا السِّيَاسِيَّةَ، غَائِصًا فِي أَسْمَائِهِ، وَصِفَاتِهِ تَعَالَى.

لَقَدْ كَانَ الْإِمَامُ الرَّاحِلُ ﷺ يَكْتَسِبُ مِنْ شَهْرِ شَعْبَانَ الْكَثِيرَ مِنَ الْخَيْرَاتِ، وَيَجْلُو الْقُلُوبَ بِبَيَانِ مَا لِهَذَا الشَّهْرِ مِنْ أَمِيَّةٍ فِي سِيرِ الْعِبَادِيَّةِ، وَمَا لِأَدْعِيَّتِهِ - وَلَا

سَيِّئًا الْمُنَاجَاةُ الشَّعْبَانِيَّةُ - مِنْ أَهْمِيَّةٍ فِي هَذَا الطَّرِيقِ. وَالْآنَ، وَمَعَ حُلُولِ شَهْرِ شَعْبَانَ الْمُبَارَكِ، نَعُودُ لِقِرَاءَةِ تِلْكَ الْبَيَانَاتِ؛ لِتَعِيدَ تِلْكَ الدَّرُوسُ الْخَالِدَةَ صَفَاءً جَدِيداً لِلْأَرْوَاحِ، وَتَضَعِ أَقْدَامَ شَبَابِنَا الْأَطْهَارِ، الْمُتَعَطِّشِينَ لِلْحَقِيقَةِ عَلَى طَرِيقِ كَوْنِ الْمَعْرِفَةِ الْإِلَهِيَّةِ.

فَعِنْدَمَا نَتَأَمَّلُ فِي عَقِيدَةِ الْإِمَامِ الرَّاحِلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِشَهْرِ شَعْبَانَ، وَنَحْطُ الرِّحَالَ عَلَى أَعْتَابِ كَلَامِهِ النُّورَانِيِّ نَشَاهِدُ جَمَالَهِ الْبَاهِرَ، وَنَرَى أَمَانَنَا عَالِماً مِنَ الْعِظَمَةِ، وَالْحَيَرَةِ. فَنَظَرْتُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِشَهْرِ شَعْبَانَ نَظْرَةً جَامِعَةً وَشَامِلَةً. فَقَدْ كَانَ يَرَى فِي هَذَا الشَّهْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ مَعاً، فَحَيْثُ يَرِاقِبُ الْبَاطِنَ لَمْ يَكُنْ غَافِلاً عَنِ الظَّاهِرِ، بَلْ كَانَ يَتَطَلَّعُ بَعِيْنٍ تَمْلُؤُهَا عِظَمَةُ هَذَا الشَّهْرِ، فَلَا يَضْحَى بِشَيْءٍ عَلَى حِسَابِ الْآخَرِ. وَهَذَا الْأَمْرُ يَدْعُونَا لِلتَّوَقُّفِ بَيْنَ يَدَيْ كَلَامِ هَذَا الْإِمَامِ الْعَظِيمِ فِي شَهْرِ شَعْبَانَ؛ لِتَسْتَنِيرَ الْقُلُوبَ بِشَيْءٍ مِنْ نُورِ كَلِمَاتِهِ الْبَدْرِيَّةِ، وَتَتَعَطَّرَ الْعُقُولُ بِأَرْيَاجِ عَطْرِ مَعَارِفِهِ الْوَرْدِيَّةِ.

شرف شهر شعبان العظيم

يَرَى الْإِمَامُ الرَّاحِلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ بَرَكَاتٍ وَافِرَةً تَصِيبُ الْإِنْسَانَ فِي الْأَشْهُرِ الثَّلَاثَةِ: رَجَبٍ، شَعْبَانَ، وَشَهْرِ رَمَضَانَ. بَرَكَاتٍ يُعْتَبَرُ مَبْعَثُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَبْدَأُهَا، وَنَزُولُ الْقُرْآنِ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ مُمْتَنَّاها. وَهَذَا يَقُولُ: «إِنَّ الْأَلْسُنَ وَالْعُقُولَ لَتَعْجُزُ عَنْ بَيَانِ فَضِيلَةِ هَذِهِ الْأَشْهُرِ الثَّلَاثَةِ»^(٥)، وَلَعَلَّنَا سَوْفَ نَدْرِكُ شَيْئاً مِنْ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ عِنْدَمَا نَلَاظُ الْخُصَائِصَ الْآتِيَةَ الذِّكْرَ.

أدعية شهر شعبان

إِنَّ مِنْ جَمَلَةٍ مَا يَبْرَهْنُ عَلَى عِظَمَةِ هَذَا الشَّهْرِ الشَّرِيفِ تِلْكَ الْأَدْعِيَةُ الَّتِي وَهَبَتْ لِلْبَشَرِيَّةِ تَحْتَ عُنْوَانِ «الْقُرْآنُ الصَّاعِدُ»، وَالَّتِي تَمَثِّلُ دَلِيلاً عَلَى أَحَقِّيَّةِ

التشيع^(٦).

يقول الإمام الرّاحل رحمه الله: «إنَّ من بركات هذه الأشهر - رجب، شعبان، وشهر رمضان - تلك الأدعية الواردة فيها، فالمناجاة الشعبانية على سبيل المثال هي من أعظم الأمور التي يمكن لأهل المناجاة أن يدركوها، وليس ذلك إلاَّ بمستوى إدراكاتهم، لا أكثر»^(٧).

شهر شعبان والوفود على ضيافة الله ﷻ

يعتبر شهر شعبان وقتاً للتهيؤ، وإعداد العدة اللازمة؛ للوفود على شهر رمضان المبارك، شهر الضيافة الإلهية، وفي هذا الإطار يقول الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله في خطبته التي ألقاها بمناسبة حلول شهر رمضان مخاطباً الناس: «شَهْرٌ دُعِيتُمْ فِيهِ إِلَى ضِيَاةِ اللَّهِ»^(٨)؛ ومن منطلق ذلك كان الإمام الرّاحل رحمه الله يقول: «شهر شعبان مقدّمة لشهر رمضان، لكي يتهيأ الناس للوفود على شهر الرحمة، والورود إلى ضيافة الله ﷻ، فالإنسان عندما يريد أن يذهب إلى حفلٍ قد دعي إليه يقوم ببعض التغيرات على مستوى شكله الظاهري، بحيث لا يتواجد في الحفل على تلك الصّورة والهيئة التي يكون عليها في منزله. وشهر شعبان شهر التهيؤ للضيافة، لتهيؤ الأفراد، والمسلمين لضيافة الله، وما الأدعية والمناجاة من قبيل المناجاة الشعبانية إلاَّ لتأمين هذا الاستعداد»^(٩).

شهر شعبان شهر التجلي الإلهي:

في إحدى فقرات المناجاة الشعبانية يقول الدّاعي: «واجعلني ممّن ناديته فأجابك، ولاحظته فصعق لجلالك، فناجيته سرّاً، وعمل لك جهراً»، ففي هذه الفقرة نلاحظ الحديث عن الصّعق، واندھاش الإنسان أمام التّجلي الإلهي، نلاحظ ذلك المعنى الذي يتحدّث عنه القرآن الكريم في قصة نبي الله موسى

عَلَيْهِ السَّلَامُ عند التجلي الإلهي: ﴿فَلَمَّا تَخَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وبمناسبة هذا المقطع من المناجاة الشعبانية كان الإمام الرّاحل ﷺ يعتبر شهر شعبان شهر الصّعق، ويذكر أنّ من جملة خصائصه أنّه من الشُّهور التي تحتاج إلى الصّعق. فهذا شهر التّجلي الإلهي على النبي الأعظم ﷺ، وبتبعه على الأئمة ﷺ^(١٠).

فمن وجهة نظر الإمام الرّاحل ﷺ يمثل شهر شعبان شهر الإمامة والولاية، وفي هذا يقول: «شهر رمضان شهر النُّبوة، وشهر شعبان شهر الإمامة، فشهر رمضان فيه ليلة القدر، وشهر شعبان فيه ليلة النّصف، التي تمثل الأرضية لليلة القدر». وقد استلهم ﷺ هذا المضمون من رواية منقولة عن الإمام الباقر ﷺ في الجواب عن فضيلة النّصف من شعبان، «سُئِلَ الْبَاقِرُ ﷺ عَنْ فَضْلِ لَيْلَةِ النَّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ؟ فَقَالَ: هِيَ أَفْضَلُ لَيْلَةٍ بَعْدَ لَيْلَةِ الْقَدْرِ، فِيهَا يَمْنَحُ اللَّهُ تَعَالَى الْعِبَادَ فَضْلَهُ، وَيَغْفِرُ لَهُمْ بِمَنْنِهِ، فَاجْتَهِدُوا فِي الْقُرْبَةِ إِلَى اللَّهِ فِيهَا فَإِنَّهَا لَيْلَةٌ إِلَى اللَّهِ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ لَا يَرُدَّ سَائِلًا لَهُ فِيهَا مَا لَمْ يَسْأَلْ مَعْصِيَةً، وَإِنَّهَا اللَّيْلَةُ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ لَنَا أَهْلَ الْبَيْتِ بِإِزَاءِ مَا جَعَلَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ لِنَبِيِّنَا ﷺ»^(١١).

وإذا لاحظنا جواب الإمام نرى أنّه يشتمل على أمرين:

الأول: أنّه لا ليلة بعد ليلة القدر تصل في فضلها إلى ليلة النّصف من شعبان، ففي ليلة النّصف ينزل الله فيضه، وإحسانه على عباده.

الثاني: أنّه وبإزاء ليلة القدر التي جعلها الله للنبي الأكرم ﷺ قد جعل لأهل البيت ﷺ النّصف من شعبان.

واستناداً لهذه الرواية فقد ذهب الإمام الرّاحل ﷺ إلى أنّ ليلة النّصف من شعبان تلي ليلة القدر في الفضل، وقد ركّز على أنّه كما أنّ روحية رسول الله ﷺ استوجبت نزول الوحي، فكان شهراً رمضان وشعبان مباركين،

فكذلك شهر شعبان، شهر الأئمة هو استمراراً للنبوة؛ لأن شهر شعبان استمراراً لروحية ذلك الشهر المبارك.

وكما أن القرآن نزل في شهر رمضان، فهذه الأدعية عن الأئمة عليهم السلام قد وردت في شهر شعبان؛ ولذا فإن شهر شعبان هو شهر التجلي الإلهي عليهم بواسطة الرسول الأعظم صلوات الله عليه وآله ^(١٢).

وبالإضافة إلى كون النصف من شعبان تالياً لليلة القدر عند أهل البيت عليهم السلام، ما يجعل الشهر الشريف شهر الإمامة والولاية، فإن فيه ولادتين عظيمتان، تعتبر معرفة المولود في كل منهما، والتمسك بسيرته العطرة من التعاليم العظيمة، والقيمة فيه، ما يجعله أكثر إشعاعاً بنور الولاية، ففي الثالث منه مولد سيد الشهداء عليه السلام، وفي النصف مولد المهدي المنتظر عليه السلام.

فالتنبه لهاتين الولادتين مفيد جداً، لا سيما بعد ملاحظة ما لهذا الشهر من ارتباط بموضوع الولاية والإمامة؛ ولهذا كان للإمام الراحل رحمته الله توجه خاص لهذه النسبة، وهذا الارتباط.

ففي بحث الولاية يقع الكلام في الولاية التكوينية لأهل البيت عليهم السلام من جهة، والولاية التشريعية من جهة أخرى، وحيث إن هذه الوريقات لا تسع البحث عن تأثير ولاية الأئمة عليهم السلام على الخلق لما فيه من الدقة، والعمق فإننا نكتفي بنقل كلمة للإمام الراحل رحمته الله في هذا المضمار، حيث يقول: «كما أن الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله وبحسب الواقع حاكم على جميع الموجودات، فكذلك الإمام المهدي عليه السلام حاكم عليها أيضاً، فذاك خاتم الرسل عليهم السلام، وهذا خاتم الولاية، وذاك خاتم الولاية التامة بالأصالة، وهذا خاتمها بالتبع» ^(١٣).

وحيث لا يخفى ما يحتاج إليه هذا الكلام المرتبط بحقيقة الإنسان الكامل، الجامع لعالم الوجود، وما له من ولاية باطنية، وروحية عليه من شرح مستقل، وهو ما عكسه الإمام الراحل رحمته الله في بعض مكتوباته، ومن جملتها (مصباح

الهداية إلى الخلافة والولاية)؛ حيث أشار هناك إلى جوانب عقلانية ومعرفية لهذا البحث مستنداً على ما ورد في روايات أهل البيت عليه السلام، وكلمات أهل المعرفة فإننا نعرض في المقام عن هذا البحث؛ لنسلط الضوء على بعد آخر من أبعاد شخصيتي المولودين في شهر شعبان، وهو بُعد الأسوة والقدوة من وجهة نظر الإمام الراحل عليه السلام.

الأمير الأسوة والحسين القدوة في كلام الإمام الراحل عليه السلام

لقد كان الإمام الراحل عليه السلام شخصاً جامعاً في معارفه، ونظرياته الدينية، وهو ما نلاحظه في كلامه عن شهر شعبان. فلقد مرَّ أنه كان يعتقد أنَّ شهر شعبان مقدمة للضيافة الإلهية، وكان يصفه بشهر التجلي الإلهي، وشهر ولاية أهل البيت عليه السلام، وأنه كان يعظمُ أدعيته ويسمّيها القرآن الصاعد^(١٤). ولكنَّ هذه الخصائص المعنوية، وهذا التفكير الباطني ما كانا ليفصلاه عن التوجّه إلى ما يجري من حوله في العالم الخارجي، ففكره الديني لم يقصُرْه على أحد الجانبين، بحيث يغفل عن الآخر، وهذا هو الفكر الذي جعله يقول: «إنَّ ميلادي شهر شعبان، ميلاد سيد الشهداء عليه السلام، وميلاد المهدي المنتظر عليه السلام حجة على المسلمين». ويقول: «لقد كان الهدف من قيام سيد الشهداء عليه السلام ومنذ اليوم الأول إقامة العدل، وهو ما أعرب عنه بقوله: ألا ترون أنَّ المعروف لا يعمل به، وأن المنكر لا يتناهى عنه، فهدفه إقامة المعروف، ومحق المنكر، والانحرافات جميعها من المنكرات، فكلَّ ما عدا خط التوحيد المستقيم منكرٌ، يجب أن يزول، ونحن أتباع سيد الشهداء عليه السلام يجب أن نلاحظ موقفه الذي اتخذ، لقد بذل سيد الشهداء عليه السلام كُلَّ حياته الشريفة من أجل القضاء على حكومة الجور، وإحقاق الحق، ومحق المنكرات، وصاحب الزمان عليه السلام سيظهر من أجل هذا الأمر، وجميع الأنبياء عليه السلام الذين قاموا في عالم الطبيعة - وبغض النظر عن معاني قيامهم الغيبية

والتي لا ندركها، فالله تعالى يعلمها - إذا لاحظنا سيرهم نرى أنهم ومن أول الأمر قد واجهوا الطواغيت، وبناءً عليه فإن هذا الأمر يجب أن يكون وظيفة لجميع المسلمين»^(١٥).

إنَّ عمق الكلمات السابقة يظهر العمق الفكري للإمام الراحل رحمه الله في المعارف الدينية. فالمقتطفات التي قرأناها من كلامه تعتبر من المباني الأصلية والثابتة في فكره، والتي أكد عليها مراراً وتكراراً في كتاباته، وخطاباته على مرّ ثلاثة عقود، وحتى أواخر لحظات حياته الدنيوية. ومنها تظهر - أيضاً - معالم فكره السياسي، وعقيدته حول ما يتوقعه من الدين، وظاهرة إقامة ثورة دينية.

دروس من أدعية شهر شعبان

إنَّ الدعاء من الأمور المهمة جداً في الفكر الإسلامي، فهو يعني أن يقوم الداعي بجلب نظر المدعو؛ لينظر إليه، ويحصل منه على ما يريد.

والدعاء في الاصطلاح الإسلامي عبارة عن التضرّع، والمناجاة، والتعبير عما يختلج في الصدر مع المعبود. فالإنسان عبد الله تعالى، والله ربّه، ومالكة الحقيقي، والعبادة هي الاعتراف والإقرار بالملكية الحقيقية لله تعالى.

والدعاء، والتضرّع، وطلب الحاجات على أعتاب الساحة الإلهية مصداقُ بارزٌ لعبودية الإنسان في مقابل مولاه ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، فالآية الكريمة تدعو إلى الدُّعاء وتعد بالإجابة، وتزيد على ذلك حيث تسمي الدُّعاء عبادة^(١٦)، كما أشارت إلى صفة من صفات المستكبرين، وهي أنهم يرفضون العبادة، وإظهار العبودية لله تعالى مالك الإنسان.

إنَّ ملكية الله تعالى ملكية حقيقية، وتكوينية، وأما الإنسان ففي ذاته فقير، ومرتبطة، ومحتاج له ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر:

[١٥]، وشتان بين الملكية الحقيقية، والملكية الاعتبارية، التي لا تعدو في حقيقتها الجهل والاعتبار، والتي تركز على العقد، وعلى هذا الأساس كما توجد الملكية الاعتبارية بعقد واتفاق فإنها تفنى وتعدم بهما أيضاً.

فالملكية الحقيقية مرتبطة تكويناً بالموجد، والإنسان بذراته، وصفاته، وأعضائه، وجوارحه كالعين، والأذن، والحياة، وكل ما يتعلق به من زوجة، وأولاد، وثروة لا يعدو كونه عبداً مملوكاً لله تعالى، وهذا الارتباط الحقيقي يستلزم كونه تعالى أقرب الموجدات لهذا الإنسان ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، وقد تعلقت إرادة ومشية هذا الرب، والمالك، والمعبود الحقيقي للبشرية، والأكثر قرباً إلى الإنسان من أي شيء آخر بأن يستجيب دعاء من دعاه، وهذا هو قانون الخلقة. والقضاء والقدر الربانيان قد حتماً ذلك حيث يقول تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِلَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

فالآية الكريمة قد أشارت بأجل قالب أدبي، وأبهى أسلوب إلى أهمية الدعاء، والتضرع في رشد، وكمال البشر، ثم إن تكرارها لضمير المتكلم ست مرات، وإعراضها عن صيغة الغائب لدليل على قرب هذا الخالق من الإنسان، وكونه المالك الحقيقي له، فالله تعالى قد أمر الإنسان أن يدعوه، ويجب على الإنسان أن يمثل هذا الأمر الإلهي، وأن يسير إليه؛ ليصل إلى الرشد، والعلو ﴿قُلْ مَا يَعْزُبُ عَنْكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧].

وقد سئل الإمام الباقر عليه السلام: أيهما أفضل تلاوة القرآن، أو الدعاء؟ فأجاب مستشهداً بهذه الآية أن الدعاء أفضل ^(١٧).

وقد أكدت المجمع الروائية على الدعاء بشكل كبير، حتى عدته سلاح المؤمن، وعمود الدين، ومفتاح الفلاح، والصلاح ^(١٨).

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «الدُّعَاءُ أَنْفَقُ مِنَ السَّانِ الْحَدِيدِ» ^(١٩).

وفي الحديث القدسي: أَنَّ الله تعالى خاطب موسى ﷺ قائلاً: «سلني كُلَّ ما تحتاج إليه، حتى علف شاتك، وملح عجينك»^(٢٠).

وبملاحظة مقام الدعاء الرفيع في الفكر الإسلامي، والذي كان لنا فيما سبق إطلاقة على شيء منه يمكننا أن ندرك شيئاً من أهمية أدعية شهر شعبان. مع التأكيد على أَنَّ الدين الإسلامي، وبخلاف العديد من الأديان، قد أتاح الفرصة للإنسان كي يناجي ربه تعالى ويتضرع إليه، أُنَّى يشاء، ومن دون وسائط.

كما أباح له الدعاء بما يشاء، فليس من الواجب على الداعي أن يدعو بالمأثور، والمنقول في المصادر الدينية. ولهذا نرى أَنَّ الشرع قد جَوَّز لكلِّ إنسان أن يُنشئ دعاءً بلغته، وبمقدار معرفته؛ ليخاطب به ربه تعالى. كما أباح له أن يقرأ الأدعية التي أنشأها الآخرون^(٢١).

وهذا الباب وإن كان مفتوحاً عند المسلمين على مصراعيه، وفي وجه الجميع، إِلَّا أَنَّ الله سبحانه قد خصَّصَ أزمناً وأمكنةً دون غيرها لذكره تعالى ومناجاته، بحيث يفيض على عباده في تلك الأزمنة والأمكنة ما لا يُفاض في غيرها. ومن تلك الأزمنة شهر شعبان، الذي أشرنا إلى شيء من عظمتة فيما سبق.

هذا، ولا يخفى أَنَّ الأدعية الخاصة الواردة على السنة الكُمل من الناس الذين تذوقوا حقائق الوجود ورفعوا الحجب، هي إشراقةٌ أُخرى من رحمة هؤلاء الربانيين، والتي تعتبر غنيمة عظيمة لكل من لم يجرم نفسه من التمسك بأهل البيت ﷺ، والوقوف على باب علم النبي ﷺ، عاملاً بحديث الثقلين، غير مستغن عن الرجوع إليهم. ولهذا فقد كان للإمام الراحل ﷺ ولهُ خاصٌّ بأدعية أهل البيت ﷺ، لا سيما أدعية شهر شعبان، والمناجاة الشعبانية، وذلك اقتداءً بأجداده ﷺ، فقد كان ﷺ يقول: «لَمْ أَرِ بين الأدعية دعاءً يقرؤه جميع الأئمة، سوى المناجاة الشعبانية»^(٢٢).

وفيما يلي نستعرض بعضاً من فكر الإمام الرَّاحِل ﷺ حول أدعية الأئمة المعصومين ﷺ، والتي أبرز الكثير منها في مناسباتٍ مختلفة، منها الحديث عن شهر شعبان، والمناجاة الشعبانية؛ لما في ذلك من الأهمية على مستوى الاستفادة من هذا الشهر.

١. المناجاة الشعبانية دليل على أحقية الأئمة ﷺ

وإن كانت المعجزة مما يحتاج عامة الناس إليها؛ لإثبات أحقية الأنبياء ﷺ، إلا أن الخواص منهم يمكنهم إثبات ذلك بما لهم من قدرة معرفية، وهذه الحقيقة ثابتة في حق أولياء الله تعالى، فالإمام الرَّاحِل ﷺ، وبملاحظة المضامين الرفيعة للمناجاة الشعبانية، يعتبر هذه المناجاة دليلاً على حقانية العترة الطاهرة، ويرى أنه «لو لم يكن من الأدعية إلا المناجاة الشعبانية لكفت في إثبات أن أئمتنا ﷺ أئمة بحق. والذين سبروا أغوار هذا الدعاء يقولون إن جميع المسائل التي يذكرها العرفاء في كتبهم المطولة منطوية في بعض كلمات هذه المناجاة»^(٢٣).

وسوف تتضح هذه الحقيقة أكثر فأكثر إذا أخذنا بعين الاعتبار أن هذه الأدعية - كالقرآن الكريم - قد ظهرت في أرضٍ لم تكن لتعرف المدنية، والحضارة في ذلك الزمان. فقد ظهرت بين جاهليين، غرباء عن العلم، والمعرفة، بمن تعرفوا حديثاً على الوحي. فمع أوائل ظهور نور النبي ﷺ ما كانت المناجاة الشعبانية لتظهر إلا على لسان علي ﷺ، فالعديد من الصحابة الذين كانوا إلى جنب النبي ﷺ، ولعشرات السنين، لم تؤثر عنهم مثل هذه الأدعية، كيف؟! وهي لا تتأتى إلا من الأنبياء ﷺ، وأولياء الله تعالى. وليس الأمر أن العرفاء لم يعرفوا مثل هذه الأدعية من صحابة النبي ﷺ أيام حياته فحسب، بل لم يجد الزمان فيما بعد بمثلها أبداً، يقول الإمام الرَّاحِل ﷺ: «لقد استفاد العرفاء من هذه الأدعية التي وردت في الإسلام، فهناك فرق بين عرفاء

الإسلام وعرفاء الهند أو الأماكن الأخرى^(٢٤)، فبعد قرونٍ من إطلاق الكلمات الثُورانية لأهل البيت عليه السلام كالمناجاة الشعبانية استطاع المفكرون والعلماء وأهل النّظر والمعرفة - وبالتدريج، وبعد بذل جهود جبارة ومضنية - أن يدركوا بعضاً من هذه المفاهيم الرفيعة، ويقفوا على شيء من العمق المعرفي لها.

٢. الأدعية قرآن صاعد

ينقل الإمام الرّاحل رحمه الله عن أحد مشايخه، والظاهر أنّه المرحوم الشاه آبادي رحمه الله قوله: «القرآن النّازل هبط إلى تحت، والدعاء يصعد إلى فوق، فهو القرآن الصاعد»^(٢٥)، فهو ومن خلال هذه الكلمات لعلّه يريد الإشارة إلى أنّه كما أنّ القرآن كتاب للهداية ﴿هُدًى لِّلشَّاقِّينَ﴾ [البقرة: ٢]، وبالتدبّر فيه يصل الإنسان إلى السعادة والصلاح، فإنّ للأدعية نفس هذا الأثر، فهذه الأدعية هي نفس مسائل القرآن تلك، غاية الأمر أنّها بلسانٍ آخر، وهو لسان الأئمة عليهم السلام، اللسان الذي يخفّف عن كاهل الإنسان، ويخرجه من ظلمات الدنيا، ويخلص النفس من البلاءات والتهيه، فالأدعية وبلغتها الفريدة تأخذ بيد الإنسان، وتقوده إلى الرّقي والصعود، وتهدي الإنسان - الذي لو خُلّي ونفسه لكان أشد افتراساً من أيّ حيوان مفترس - إلى النور، والصراط المستقيم، وتخرج البشر من الظلمات، والتبعية، والتعلّق، وتقدّم إليهم الحرية كهدية. فأدعية الشهور، والأيام، لا سيما شهر رجب، وشعبان، وشهر رمضان تقوّي روحية الإنسان، وتفتح أمامه طريقاً، وتنيره؛ لتخرج البشرية من الظلمات إلى النور كالمعجزة^(٢٦).

٣. الأدعية خطوة على طريق تحقيق أهداف الأنبياء عليهم السلام

لقد كان هدف الأنبياء عليهم السلام إنقاذ الأُمّة من الضّلال الذي يشتتها بين هذه الجهة وتلك، وأن يرشدوها إلى الطّريق: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦]،

وبيّنوا لها ما يقابلها؛ إذ يقع على الطّرف المقابل نفسانية الإنسان، والشهوات، والآمال، والأمنيات البشرية، والدّنيا الكاذبة، والعلائق الدنيوية التي تقتل الإنسان. فالأنبياء ﷺ مبعوثون لتخليص البشر من هذه العلائق، وليبيّنوا لهم أنّه لا مناص للإنسان عن هذا الطّريق، فالصّراط المستقيم طريق الإنسانية، والإسلام على رأس جميع الأديان جاء ليوصل إلى هذا الهدف، ومناجاة وأدعية أئمتنا ﷺ تبين لنا هذا الطّريق.

فبعد أن عاش الأئمة ﷺ تحت بطش الجبارين وظلمهم الذي جعلهم لا يستطيعون أن يقوموا بهداية الناس بشكلٍ علنيّ، فجعلوا يهدونهم إلى الطّريق التي ينبغي أن يهدوهم إليها من خلال الأدعية^(٢٧)، وبهذا استمرّ خطّ الأنبياء ﷺ.

فالأدعية وسيلة لإبراز جوهر الإنسانية، وهو ما بُعث الأنبياء ﷺ لإبرازه، ومن أجله يشكّلون حكوماتهم^(٢٨).

٤. الأدعية عامل التطوّر في المجالات الإنسانية

وقف الإمام الرّاحل ﷺ في مقابل التفكير الخاطئ الذي يعتقد أن الدعاء والذكر يقعدان بالأئمة والمجتمع عن بذل الجهد المفيد، ويمنعانها من التطوّر؛ ليقول إنّ الأدعية سبب لقوّة الناس. فقراءة الأدعية تعطي قوّة روحية، وتقود الفرد إلى منزل الشّهادة، بحيث تكون الشّهادة أمراً مستساغاً بالنسبة إليه^(٢٩). فالثورة على الظّالمن يقوم به قراء الأدعية، وهم الذين يُقيمون العدل أيضاً. فقارئ المناجاة الشّعبانية هو الذي يشهر سيفه، ويحارب الكافرين.

وأصحاب هذه الدعوى لا يفقهون تأثير الدّعاء، وهم غافلون عن أثره المعنوي، فجميع الخيرات والبركات تنزل ببركة قراء الأدعية، حتى ولو كانوا سطحيين في علاقاتهم بها، فللدعاء أثرٌ حتّى على روحية الذين لا ينظرون إليه

نظرة عميقة. لكنّ هذا الفرد أكثر أدباً ممّن لا يقرأ الدّعاء أصلاً^(٣٠).

فاليوم يدور الحديث في المجتمع حول أنواع التطّور، من السياسي، والاقتصادي، والثقافي، والقضائي، وغيره، وهذه المحاور تشكّل مادّة للبحث في المحافل العلمية المختلفة، والسياسية كذلك. والأحزاب السياسيّة كلّ واحد منها يقارب هذه الموضوعات بشكلٍ مختلفٍ، لكنّ السّؤال الأهم الذي ينبغي أن يطرح في خضم هذا الصّراع هو: أيّ أبعاد التطّور مقدّم على البقية؟!

وفي سياق الجواب على هذا السّؤال الذي ترتبط سعادة المجتمع بالجواب الصّحيح عنه يطرح الإمام الرّاحل رحمته الله التطّور المعنوي، والرّوحي، ويذكر الدّعاء كوسيلةٍ من وسائل هذا التطّور.

ففي الواقع إنّ الذين لهم أنسٌ بالدّعاء، ممن يجلون صفحات قلوبهم بالمناجاة؛ ليهبوا حياةً جديدةً تراهم حاضرين في كلّ جبهةٍ بإخلاص تام، وهم يقومون بأدوارهم بكلّ همّة ونشاطٍ وعزيمةٍ غير قابلة للانكسار؛ وما ذلك إلّا لأنّهم ينطلقون إلى العمل بدافع عبادي، فهم يعملون لله تعالى، وهدفهم التقرب إليه. والملفت للنظر أنّ هؤلاء مع أنّهم يقدّمون أفضل الإنجازات إلّا أنّك تراهم قانعين يوم الحصاد.

فأمير المؤمنين وسيد الشهداء عليه السلام هما من ألفا دعاء كميل، والمناجاة الشعبانية، ودعاء عرفه، وهما من ناجيا ربّهما بهذا العشق، ومع ذلك فقد خرجا للجهاد، وإقامة العدل كانت جزء من برنامجهما، فمع أنّهما كانا يسعيان لإقامة الدولة، إلّا أنّهما كانا يقومان بالأعمال الاقتصادية الصّعبة أيضاً، من إحياء الأراضي، وإحداث القنوات، وإيجاد مزارع النّخيل حيث كان الأمر يقتضي القيام بذلك، يقول الإمام الرّاحل: «في ذلك اليوم الذي بويع فيه أمير المؤمنين عليه السلام - وبحسب النقل التاريخي - فقد حمل معوله، واتّجه إلى عمله»^(٣١).

هذا وإنَّ نسبة الجريمة عند قراء الأدعية أقلَّ منها عند غيرهم، فهم أكثر التزاماً بالقانون، وهو ما عبّر عنه الإمام الرَّاحِلُ ﷺ حيث قال: «الذين يقرؤون الدعاء، والمتمسكون بظواهر الشريعة، إما أنَّه لا ملفات جنائية لهم، وإما أنَّ ملفاتهم أقلَّ من ملفات غيرهم. فلهؤلاء دورٌ في انتظام هذا العالم، فلا ينبغي تغييب الدعاء عن مجتمعنا، وإبعاد الشباب عنه؛ لأنَّ ذلك من الوسوسات الشيطانية»^(٣٢).

ومن هذا المنطلق كان الإمام الرَّاحِلُ ﷺ يعتقد أنَّه كُلِّما كانت هذه الحقيقة أكثر حضوراً ونورانيةً في قلوب أهل الدعاء والمعنويات كانوا أكثر وأشدَّ تأثيراً في مسيرة التطوُّر، وعلى جميع الصَّعد. فنشر المعنويات على المستوى الكمي والكيفي يؤدي إلى استقرار النَّظام، والأمن، والالتزام بالقانون، ومضاعفة الجهود الاقتصادية، والجهاد، والمبارزة في الأبعاد المختلفة.

ففي بيان له ﷺ حول إنجازات الشعب الإيراني وجَّه السُّؤال التالي: «لقد شاهدنا نجاحاتٍ واضحةً حتى الآن، أدَّت إلى انبهار المخترعين في الداخل والخارج، وقد أدَّى ذلك إلى اندحارهم، ومن بقي منهم سيصعق في المستقبل إن شاء الله تعالى، لكنَّ من الآن فصاعداً ماذا يجب علينا أن نفعل؟» ثم أجاب عن ذلك قائلاً:

«المسألة التي تحتلُّ القمَّة بين جميع المسائل هي المسألة المعنوية، فيجب أن نسعى لنشر وتطبيق المعنويات في هذه الأُمَّة، وبين المسلمين. وأن ندعو النَّاس إلى المعنويات، والأخلاق، والآداب والثقافة الإسلامية»^(٣٣).

فهو ﷺ يعتبر أنَّ أوَّل خطوةٍ على طريق التطوُّر والتقدُّم هي: النشر الحقيقي والواقعي للمعنويات، والأخلاق، والآداب الدينية، والتي وصفها كعلاج لآلام الأُمَّة، وفي هذا إشارة إلى أنَّ طريق المعنويات طريقٌ يجب أن يسير الإنسان فيه طوال حياته. «فجلوس الأُمَّة في القصور لا يسعدها، ومن يقطن القصور

لكونها قصوراً لا يمكن أن يكون سعيداً، فجلسة القصور وإن كانت في حد ذاتها غير مضرّة، لكن السعي إليها مضرٌّ، فمن كان كلّ همّه الدّنيا لا يمكن أن يكون آدمياً، وما دامت الأُمّة متمسّكة بالمعنويات لا يمكن لأحد أن يعتدي عليها، ففي اليوم الذي تُبهر الدّنيا أبصارنا، ويصبح الشّيطان قائداً تتمكّن القوى الاستكبارية أن تؤثر علينا، وتقضي على بلدنا. إنّ سكّان القصور يبيدون الوطن، إنهم لا يستطيعون أن يفهموا معنى الفقر. وأما التّوجّه إلى الله تعالى، واكتساب المعنويات فإنّه يبعث من صحراء الحجاز الملتهية، ومركز الجهالة إنساناً؛ ليحمل إلى العالم كلّ هذا التمدّن. إنّ الإسلام يريد أن يصلح الإنسان، فاسعوا لتقوية المعنويات، فبالمعنويات تستطيعون حفظ استقلاليتكم، وأن تكونوا أحراراً، وأن تطووا مراتب الكمال».

فمن وجهة نظر الإمام الرّاحل رحمته الله إنّما يكون التطوّر السياسي ممكناً إذا كان في ظلّ التطوّر المعنوي فقط، وهكذا التطوّر على جميع الصعد، ونظرته هذه وليدة رؤيته الجامعة للدين، فما كان الإمام رحمته الله ليعتقد أنّ الدين يؤمّن الدّنيا فقط، أو يريّ الطريق إلى الآخرة فحسب، بل الدين عنده لجميع أبعاد الحياة الإنسانية، ولهذا كان يرى في مفردة الدّعاء - مثلاً - والتي تعدّ من أهمّ المفردات المعنوية، وأشدّ المقولات الدّينية ارتباطاً بالباطن جميع الأبعاد الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، وما كان ليقبل بفصل هذه المسائل عن بعضها. كيف؟! وهو القائل: «لاحظوا أدعية الإمام السّجاد عليه السلام، ماذا يفعل الإمام عليه السلام في دعائه، ففي دعائه المعنويات، والحكومة، وكلّ شيء، حتى القيام على حكومة الظلم، وهكذا كان أئمتنا»^(٣٤).

الإمام الرّاحل رحمته الله وبعض فقرات المناجاة الشعبانية

مع أنّ كتب الأدعية قد نقلت أدعيةً مختلفةً لأيام شهر شعبان، وأوقاته

الخاصة، إِلَّا أَنَّ اثْنَيْنِ مِنْ بَيْنِهَا اخْتَصَّ بِمَزِيدِ نَوْرَانِيَّةٍ وَصَفَاءِ خَاصِّينَ، هُمَا: دَعَاءُ كَمِيلٍ، وَهُوَ الدُّعَاءُ الْوَاردُ فِي لَيْلَةِ النِّصْفِ، وَالْمَنَاجَاةُ الشَّعْبَانِيَّةُ الَّتِي تَقْرَأُ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْهُ.

يقول الإمام الرَّاحِلُ عليه السلام: «ورد دعاء كميل في شهر شعبان، وهو من الأدعية التي تقرأ في ليلة النصف منه، وهو يشتمل على أسرارٍ نقصر عن الوصول إليها»^(٣٥).

وفي شأن ورود هذا الدعاء يذكر السيّد ابن طاووس رحمه الله عن كميل بن زياد النخعي عليه السلام أَنَّهُ قَالَ:

«كنت جالساً مع مولاي أمير المؤمنين عليه السلام في مسجد البصرة ومعه جماعة من أصحابه، فقال بعضهم: ما معنى قول الله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤]، قال: ليلة النصف من شعبان، والذي نفس عليّ بيده أَنَّهُ ما من عبدٍ إِلَّا وجميع ما يجري عليه من خيرٍ وشرٍّ مقسوم له في ليلة النصف من شعبان إلى آخر السنّة في مثل تلك اللّيلة المقبلة. وما من عبدٍ يحييها، ويدعو بدعاء الخضر عليه السلام إِلَّا أُجيب له. فلما انصرف طرقت ليلاً فقال عليه السلام: ما جاء بك يا كميل؟ قلت: يا أمير المؤمنين دعاء الخضر عليه السلام، فقال: اجلس يا كميل، إذا حفظت هذا الدعاء فادعُ به كُلَّ ليلة جمعة، أو في الشهر مرة، أو في السنّة مرّة، أو في عمرك مرّة تكفي، وتنصر، وترزق، ولن تعدم المغفرة. يا كميل أوجب لك طول الصّحبة لنا أن نجود بما سألت»^(٣٦).

وأما المناجاة الشَّعْبَانِيَّةُ فقد وقعت محطّ أنظار العوام والخواص، وهي مناجاة رواها الحسين بن محمد بن خالويه رحمه الله حيث قال:

«إنّها مناجاة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، والأئمة عليهم السلام من ولده كانوا يدعون بها في شهر شعبان»^(٣٧).

فمداومة جميع الأئمة عليهم السلام على هذه المناجاة نكتة مهمة جداً، لطالما ركّز

الإمام الرَّاحِلَ ﷺ عليها، واعتبرها دليلاً على مدى أهميتها ورفعة شأنها. كما ذهب إلى أنَّ علوَّ مضامينها دليلٌ على اعتبار سندها^(٣٨)، فمثل هذه العبارات العالية المضامين والتي وقعت مورد تأمُّلٍ وتحقيقٍ وتحليلٍ من قبل أهل المعرفة وعلى مدى قرونٍ من ورودها؛ ليستخرجوا منها بعض الثَّكَّات اللَّطيفة جداً في أبواب المعرفة للدَّليلِ واضحٍ على أنَّ يد الإنسان العادي قاصرةٌ عن أن تأتي بمثلها، إلَّا أنْ تعترف من ينبوع مبدأ العلم اللَّدني.

فهذه المناجاة قد احتلت مساحةً مهمَّةً من كلمات الإمام الرَّاحِلَ ﷺ، وكتاباتهِ على مدى ثلاثة أو أربعة عقود، وحتى أواخر أيام عمره الشَّريف، فكان يستشهد بها، ويتأمَّلها تأمُّل العالم العارف.

هذه المناجاة التي حلَّقت فيها مجموعة كبيرة من المضامين المعرفية العالية، قد أثَّرت بعض فقراتها على الإمام الرَّاحِلَ ﷺ بشكلٍ كبير؛ لما تمثَّله من قمة معرفية شامخة، فحظيت باهتمام بالغ منه^(٣٩)، بل ومن غيره من السَّالِكين أيضاً كالمرحوم الميرزا جواد آقا ملكي التبريزي ﷺ، وهي الفقرة التي يقول فيها الإمام عليه السلام: «إِلَهِي هَبْ لِي كَمَالَ الْإِنْقِطَاعِ إِلَيْكَ، وَأَنْزِرْ أَبْصَارَ قُلُوبِنَا بِضِيَاءِ نَظَرِهَا إِلَيْكَ، حَتَّى تَخْرِقَ أَبْصَارَ الْقُلُوبِ حُجُبَ الثُّورِ فَتَصِلَ إِلَى مَعْدِنِ الْعِظَمَةِ، وَتَصِيرَ أَرْوَاحُنَا مُعَلَّقَةً بِعِزِّ قُدْسِكَ. إِلَهِي وَاجْعَلْنِي مِمَّنْ نَادَيْتُهُ فَأَجَابَكَ، وَلَا حَظَّتُهُ فَصَعِقَ بِجَلَالِكَ، فَتَاجَيْتُهُ سِرّاً وَعَمِلَ لَكَ جَهراً»^(٤٠).

ففي هذه الفقرة مفاهيم عالية، ومهمة جداً، من قبيل الانقطاع إلى الحق، ومشاهدة الجمال الإلهي، والحجب النورانية، ومعدن العظمة، والنداء الإلهي، ونظر الله تعالى إلى عباده، والصَّعق البشري في مقابل التجلِّي الإلهي، ونجوى الله تعالى، ومع أنَّ كلَّ واحدٍ من هذه العناوين يصلح ليكون عنوان مقالٍ مستقلاً، يُعمل فيها على شقِّ غمار هذا المفهوم الرَّفيع بدقَّة متناهية، إلَّا أنَّ لهذه الفقرة من المناجاة رسالةً عامَّةً تريد أنْ توصلها، والإمام الرَّاحِلَ ﷺ قد أشار إليها في

أحاديثه حول هذه المناجاة، وهي: نحو ارتباط عالم الوجود بالله تعالى، وكيفية ربط الخليقة به^(٤١).

إنَّ الربط بين الأمرين الوجوديين الذي يعرفه البشر على نوعين:

- روابط من قبيل الرابطة بين الأب وابنه.

- وروابط من قبيل ارتباط شعاع الشمس بالشمس.

أو ارتباط القوى النفسية - من قبيل السمع والبصر - بالنفس.

وبملاحظة هذه الموارد نرى أنَّ التباين بين الأب والابن واضحٌ جداً، وأنَّ الربط تكوينيٌّ، وفي مرتبةٍ ضعيفة.

وأما المثال الثاني فالربط فيه أكثر قوةً وأشدَّ، كما أنَّ التباين بين الطرفين غير مشهود.

وأما المثال الثالث فنوع العلاقة الوجودية، والارتباط التكويني فيه أشدَّ بكثيرٍ منه في المثالين السابقين، وأكثر وضوحاً أيضاً، فكلُّ إنسان له القدرة على إدراك ذلك بالعلم الحضورى، فبالأمل في قواه النفسانية، ونوع الارتباط بينها وبين نفسه يدرك أنَّ للنفس إحاطةً قيوميةً على البصر، والسمع، وغيرهما من القوى. وأنَّ النفس هي منشأ، وعلة جميع هذه القوى بالأصالة.

وفي هذا السياق يرى الإمام الرَّاحِل رحمته الله وبحسب تحليله العرفاني أنَّ نحو ارتباط الموجودات بالله تعالى أعلى وأرقى من النوع المذكور في المثال الثالث، وأنها من حيث التعلُّق، والفقر أشد حاجة، إلى درجةٍ تعجز الألفاظ عن بيان ذلك. فله تعالى إحاطة تامة بعالم الخلق، فحيثما يوجد خلق فإنَّ له تعالى إحاطةً وقىوميةً ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

وهذا البيان عن ارتباط الله تعالى بالعالم مقتبسٌ من فكرة الفقر الإمكانى، التي ذكرتها الحكمة الصدرائية، وبرهنتها الحكمة المتعالية بشكل كامل، فهي تثبت - وبالدليل العقلي - أنَّ الحق تعالى مبدأ جميع الموجودات، وأنَّ الموجودات

عين التعلّق والفقر، وأنها لا تمتلك لنفسها من نفسها شيئاً، وأنّ عليّة الله تعالى وإبداعيته ليست على نسق الفواعل الطبيعية، حيث يوجد الفاعل بعض التغييرات في الوجود كالنّجار والبناء. فالحق تعالى يوجد الأشياء بإرادته، ومحض مشيئته، ومن دون أن يكون لها أيّ تحقيق ووجود من قبل.

ولتقريب الفكرة إلى الذهن يطرح الإمام الرّاحل ﷺ مثال الارتباط بين الموج والبحر، فالموج ليس خارج البحر، بل إنّ البحر نفسه متموّج، فعندما ننظر فإنّنا وإنّ كنا نراها شيئين: البحر، وموج البحر، ولكنّ الحقيقة هي أنّه لا شيء غير البحر^(٤٢).

وقد عبّر الفلاسفة والمتكلمون عن حقيقة الرّبط بين الخالق والخلق بتعبيرات مختلفة، من قبيل: العلة والمعلول، الخلق والمخلوق، الأثر والمؤثر. وأما التعبير المذكور في الكتاب والسّنة، والذي اقتبسه العرفاء منها فهو: الظهور والتجلي ﴿فَلَمَّا تَخَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

نسأل الله أن ينفعنا بما علمنا، ويوفّقنا للعمل به، إنّّه نعم المولى ونعم المجيب...

* * *

الهوامش:

- (١) الشّيخ الصدوق، محمّد بن عليّ، ثواب الأعمال وعقاب الأعمال: ٥٤، تقديم: السيّد محمّد مهدي الخرسان، الطّبعة الثّانية ١٣٦٨ ش، نشر: منشورات الشّريف الرّضي، قم.
- (٢) راجع: مجمع البحرين للطّريحي، مفردة: (شعب).
- (٣) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار ٥٦: ٩٤، الطّبعة الثّالثة ١٤٠٣، دار إحياء الثّراث، بيروت.
- (٤) صحيفة النّور ٣: ١.
- (٥) المصدر نفسه ١٧: ٢٦٥.

- (٦) المصدر نفسه ١٢: ٢٣٩.
- (٧) المصدر نفسه ١٧: ٢٦٤.
- (٨) الحرّ العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة ١٠: ٣١٣، كتاب الصوم، الباب: (١٨)، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت، الطبعة الأولى ١٤١٢، قم.
- (٩) صحيفة النور ١٣: ٢٣٩.
- (١٠) المصدر نفسه ٢٠: ٨٢.
- (١١) شيخ الطائفة الطوسي، محمد بن الحسن، مصباح المتعبد ٨٣١، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ، نشر: مؤسسة فقه الشيعة، بيروت.
- (١٢) صحيفة النور ٢٠: ٨٢.
- (١٣) المصدر نفسه ٢٠: ٨٣.
- (١٤) المصدر نفسه ١٢: ٢٣٩.
- (١٥) المصدر نفسه ١٢: ١٩٠.
- (١٦) الطبائبي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن ٢: ٣٤، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم.
- (١٧) انظر: المصدر نفسه ٢: ٣٢.
- (١٨) انظر: الكافي للكليني، الجزء الثاني، أبواب الدعاء.
- (١٩) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي ٢: ٤٦٩، كتاب الدعاء، باب: أنَّ الدعاء سلاح المؤمن، الحديث: (٧)، تصحيح وتعليق على أكبر غفاري، الطبعة الثالثة ١٣٦٧ ش، دار الكتب الإسلامية، طهران.
- (٢٠) ابن فهد الحلبي، أحمد بن محمد، عدّة الداعي ونجاح الساعي: ١٣٣، تصحيح: أحمد الموحدي القمي، نشر: مكتبة وجداني، قم.
- (٢١) حسن حسن زاده الآملي، نور على نور، في الذكر والذاكر والمذكور: ٧١.
- (٢٢) صحيفة النور ١٢: ٢٣٩.
- (٢٣) المصدر نفسه ١٢: ٢٤٠.
- (٢٤) المصدر نفسه.
- (٢٥) المصدر نفسه.
- (٢٦) المصدر نفسه.
- (٢٧) المصدر نفسه: ٢٤١.

- (٢٨) الإمام الخميني، روح الله، تفسير سورة الحمد: ١٧٤، بتصرف.
- (٢٩) صحيفة النور ١٢: ٢٤١.
- (٣٠) تفسير سورة الحمد: ١٤٩ - ١٥٤.
- (٣١) المصدر نفسه: ١٤٩.
- (٣٢) المصدر نفسه: ١٥٣، بتصرف.
- (٣٣) صحيفة النور ١٧: ٢١٦.
- (٣٤) المصدر نفسه ٢٠: ١٩٢.
- (٣٥) المصدر نفسه ٢٠: ٨٣.
- (٣٦) ابن طاووس، رضي الدين علي بن موسى، الإقبال بالأعمال الحسنة فيما يعمل مرة في السنة ٣: ٣٣١، تحقيق: جواد القيومي الإصفهاني، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ، نشر: مكتب الإعلام الإسلامي، قم.
- (٣٧) المصدر نفسه ٣: ٢٩٥.
- (٣٨) راجع: كتاب الأربعون حديثاً للإمام الخميني: ٤٥٤.
- (٣٩) صحيفة النور ١٧: ٢٦٤.
- (٤٠) الإقبال بالأعمال الحسنة فيما يعمل مرة في السنة ٣: ٢٩٩، مرجع سابق.
- (٤١) راجع: تفسير سورة الحمد للإمام الخميني: ١٧٧ - ١٨٤.
- (٤٢) راجع: المصدر نفسه: ١٦٠.

وقفه

أمام ذكرى المبعث النبوي الشريف

□ السيد محمد حسن الأمين (*)

ذكرى المبعث النبوي الشريف حيث بدأ نزول القرآن الكريم على الرسول الأعظم محمد ﷺ، هي أهم المفاصل التاريخية في مسيرة الإنسان؛ لأنها ذكرى آخر اتصال - بواسطة الوحي - بين الإنسان وخالقه، ولأن هذا الوحي الأخير المتمثل بالقرآن الكريم كان احتواءً وإكمالاً لكل الرسالات السماوية التي أرسلها الله تعالى إلى البشرية بواسطة أنبيائه ورسله، بما يعني أن المبعث النبوي الشريف هو بداية الإعلان الإلهي لبلوغ الإنسان مرحلة الرشد والنضوج التي تؤهله لمتابعة المسيرة بدون واسطة مباشرة، أي: بدون رسل وأنبياء يقومون بمهمة القيادة لهذه المسيرة البشرية.

وهذا لا يعني أن انقطاع النبوة يعني انقطاع الرعاية الإلهية للبشر والحياة والكون، ولكن يعني أن الدرجة المطلوبة ليغدو الإنسان قادراً على التصرف بما يحقق الغاية من خلقه قد تحققت كما أشار القرآن الكريم: ﴿أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

(*) باحث وقاصي / لبنان.

إنَّها إذن ذكرى إعلان الرُّشد الإنساني واكتمال عناصر الوظيفة التي خلق من أجلها الإنسان، وهي القيام بدور الخلافة على هذه الأرض؛ لذلك اختار الله تعالى أكمل خلقه للقيام بهذا الإعلان من خلال قيامه بإبلاغ البشر آخر رسالات ربهم إليهم، والرَّسول الأعظم ﷺ كان لا بدَّ أن يكون أكمل البشر ليقوم بأعباء هذه المسؤولية الكبرى.

فهو إذ يؤدِّي إلى النَّاس أكمل رسالات ربِّه لا بدَّ له أن يكون التَّموذج البشري الكامل من حيث تمثله الكامل لهذه الرِّسالة والتَّجسيد التَّام لها؛ ليكون بعد ذلك نموذجاً وقُدوةً للنَّاس من جهة، وحجَّةً عليهم من جهةٍ أُخرى. وإذن فإنَّ المبعث النَّبوي الشَّريف هو تذكيرٌ لنا بحقيقتين تقترن إحداهما بالأُخرى وتكملُّها:

الحقيقة الأولى: هي أنَّ الإنسان منذ المبعث النَّبوي الشَّريف أصبح يمتلك عناصر الوعي والرُّشد والمعرفة التي تؤهِّله لتحمل مسؤولياته الكاملة في الكون والحياة والمجتمع، وبموجب هذه المسؤولية تمَّ تكريسه بوصفه كائناً حراً يتمتَّع بهذه الحرية، ويتحمل مسؤولياته النَّاجمة عن اختياراته. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى الموجه إلى النَّبي ﷺ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۚ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ [الغاشية]، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

الحقيقة الثانية: هي أنَّ المبعث النَّبوي الشَّريف هو الإيذان ببدء نزول الرِّسالة الإلهية الشَّاملة الجامعة لما سبق من الرِّسالة والمكملة لها، بحيث أصبح للإنسان مرجعية شاملة تتمثَّل بالإسلام عقيدةً وشرعيةً وكتاب هداية شاملاً هو القرآن الكريم، ورسولاً بشراً كاملاً هو مُحَمَّد ﷺ، وهذه الرِّسالة بعناصرها التي ذكرنا باتت مرجعاً للبشر وحجَّةً عليهم.

على قاعدة هاتين الحقيقتين نرى أنَّ العالم الإسلامي يجب أن ينطلق في تجديد ذاته وحضارته تمهيداً لاستعادة دوره.

إِنَّ التَّمَسُّكَ بِهَاتَيْنِ الْحَقِيقَتَيْنِ سَوْفَ يَعِيدُ لِكُلِّ مِنَ الْعَقْلِ وَالْوَحْيِ اعْتِبَارَهُمَا، وَيُضَعُّ كُلًّا مِنْهُمَا فِي نَصَابِهِ الطَّبِيعِيِّ، فَلَا يُلْغِي أَحَدُهُمَا الْآخَرَ؛ لِأَنَّ أَحَدَهُمَا لَا يَنْوُبُ عَنِ الْآخَرِ وَلَا يَخْتَزِلُهُ، وَهُمَا مَعًا - مُتَكَامِلِينَ - يَشْكِلَانِ الْأَسَاسَ لِحَضَارَةِ الْعَدْلِ وَالتَّوَازُنِ الَّتِي هِيَ رِسَالَةُ الْإِسْلَامِ لِلْإِنْسَانِيَّةِ بِأَجْمَعِهَا.

وَمِنْ هُنَا فَإِنَّ ذِكْرَ الْمَبْعُثِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ سَوْفَ تَظَلُّ الذِّكْرَى الْمُتَجَدِّدَةُ الَّتِي لَا تَنْتَهِي حَاجَتُنَا مِنْهَا إِلَى التَّأَمُّلِ وَالْاعْتِبَارِ..

وَيَجِبُ أَنْ تَتَحَوَّلَ هَذِهِ الذِّكْرَى فِي حَيَاةِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى مَحْطَّةٍ سَنَوِيَّةٍ فِيهَا لِصَاحِبِ الذِّكْرَى نَبِينَا الْأَعْظَمَ ﷺ كَشَفَ حَسَابٍ عَنْ إِنْجَازَاتِنَا فِي سَبِيلِ قِيَامِ الْأُمَّةِ الَّتِي أَرَسَى قَوَاعِدَهَا..

أُمَّةُ الْوَحْدَةِ وَالْعَدْلِ..

وَالْأُمَّةُ الْوَسْطَى وَفَقَاً لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وَسَلَامٌ عَلَى الْمَبْعُوثِ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ...

* * *

مفكرة المناسبات الدينية

(رجب، شعبان، شهر رمضان)

إعداد: لجنة المناسبات الدينية

الأحداث والمناسبات الدينية في شهر رجب:

اليوم	المناسبة / الحدث	السنة / الهجرية
١ رجب	ولادة الإمام محمد الباقر عليه السلام ^(١)	٥٧
١ رجب	يوم ركوب نوح عليه السلام في السفينة ^(٢)	قبل الميلاد
٢ رجب	ولادة الإمام علي الهادي عليه السلام ^(٣)	٢١٢
٣ رجب	شهادة الإمام علي	٢٥٤

	الهادي عليه السلام	
٩٣	فتح الأندلس ^(٤)	٤ رجب
٢٤٤	استشهاد العالم الأخلاقي ابن السكيت ^(٥)	٥ رجب
١٠٣٣	ولادة الحرّ العاملي عليه السلام ^(٦)	٨ رجب
٢٠	فتح مصر ^(٧)	٨ رجب
٣٦	وصول أمير المؤمنين عليه السلام إلى الكوفة واتخاذها مقراً لحكومته	١٢ رجب
٢٣ قبل الهجرة	ولادة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ^(٨)	١٣ رجب
١	عقد قران الإمام علي وفاطمة الزهراء عليهما السلام ^(٩)	١٤ رجب
٦٢	وفاة السيدة زينب عليها السلام ^(١٠)	١٥ رجب
٢	تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة ^(١١)	١٥ رجب
١٠	وفاة إبراهيم ابن النبي الأعظم عليه السلام ^(١٢)	١٨ رجب
٤٧	ولادة السيدة سكينة بنت الحسين عليه السلام ^(١٣)	٢٠ رجب

٧	فتح خيبر (١٤)	٢٤ رجب
٧	عودة جعفر الطيار من الحبشة	٢٤ رجب
١٨٣	شهادة الإمام الكاظم عليه السلام (١٥)	٢٥ رجب
١ قبل الهجرة	وفاة أبي طالب عليه السلام (١٦)	٢٦ رجب
١٣ قبل الهجرة	بعثة النبي الأعظم عليه السلام	٢٧ رجب
٦٠	حركة الإمام الحسين عليه السلام من المدينة إلى مكة	٢٨ رجب
٩	غزوة تبوك	٢٩ رجب

الأحداث والمناسبات الدينية في شهر شعبان:

اليوم	المناسبة / الحدث	السنة / الهجرية
٣ شعبان	ولادة الإمام الحسين عليه السلام	٤
٣ شعبان	وصول الإمام الحسين عليه السلام إلى مكة	٦٠
٤ شعبان	ولادة أبي الفضل العباس عليه السلام	٢٤
٥ شعبان	ولادة الإمام السجاد عليه السلام	٣٨
١١ شعبان	ولادة علي الأكبر عليه السلام ابن	٣٦

	الإمام الحسين عليه السلام	
	ليلة النصف من شعبان	١٤ شعبان ليلاً
٢٥٥	ولادة الحجة المنتظر عليه السلام	١٥ شعبان
٣٢٩	وفاة أبو الحسن علي بن محمد السمرى عليه السلام (آخر النواب الأربعة)	١٥ شعبان
٦	غزوة بني المصطلق	١٩ شعبان
قبل الميلاد	ولادة النبي عيسى عليه السلام	٢٥ شعبان

الأحداث والمناسبات الدينية في شهر رمضان:

اليوم	المناسبة / الحدث	السنة / الهجرية
١ رمضان	غزوة تبوك (على رواية)	٩
٢ رمضان	فتح مكة	٨
٢ رمضان	تولي الإمام الرضا عليه السلام ولاية العهد (على رواية)	٢٠١
٣ رمضان	وفاة الشيخ المفيد عليه السلام	٤١٣
٦ رمضان	تولي الإمام الرضا عليه السلام ولاية العهد (على رواية)	٢٠١
٧ رمضان	وفاة أبي طالب عم النبي صلى الله عليه وآله وكافله (على رواية)	١٠ للبعثة

٧	فتح خير (على رواية)	٧ رمضان
١٧٥	شهادة الإمام الجواد عليه السلام (على رواية)	٩ رمضان
١ قبل الهجرة	وفاة أم المؤمنين خديجة عليها السلام	١٠ رمضان
٦٠	وصول رسائل أعيان الكوفة إلى الإمام الحسين عليه السلام	١٠ رمضان
١	المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار	١٢ رمضان
١ قبل الهجرة	وفاة أبي طالب عم النبي صلى الله عليه وآله وكافله (على رواية)	١٣ رمضان
٦٧	قتل المختار الثقفي	١٤ رمضان
٢	ولادة الإمام الحسن المجتبي عليه السلام	١٥ رمضان
٦٠	وصول مبعوث الإمام الحسين عليه السلام (مسلم بن عقيل) إلى الكوفة	١٥ رمضان
٩٦٥	استشهاد الشهيد الثاني عليه السلام	١٥ رمضان
٦ أشهر قبل الهجرة	معراج الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله	١٧ رمضان
٢	معركة بدر الكبرى	١٧ رمضان
	ليلة القدر الأولى	١٨ رمضان ليلاً

٤٠	ليلة جرح أمير المؤمنين عليه السلام	١٨ رمضان ليلاً
	ليلة القدر الثانية	٢٠ رمضان ليلاً
٤٠	شهادة أمير المؤمنين عليه السلام	٢١ رمضان
	ليلة القدر الثالثة	٢٢ رمضان ليلاً
قبل الميلاد	ولادة السيّد مريم عليه السلام	٢٤ رمضان
٣٨	معركة النهروان	٢٥ رمضان
٨	غزوة حنين	٢٩ رمضان

* * *

الهوامش:

- (١) هو الإمام مُحَمَّد بن عليّ بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، خامس أئمة أهل البيت عليه السلام، وُلِدَ في يثرب في اليوم الثالث من شهر صفر سنة ٦٥هـ، وقيل: سنة ٥٧هـ، في غرة رجب يوم الجمعة. كنيته أبو جعفر، وأبرز ألقابه الباقر؛ لأنّه بقر العلم، أي: شقّه. مات مسموماً شهيداً على يد جلاوزة بني أمية في السابع من ذي الحجة سنة ١١٤هـ.
- (٢) نقل ذلك الشّيخ الكفعمي في المصباح: ٥١٢، الطبعة الثالثة ١٤٠٤، نشر: مؤسسة الأعلمي، بيروت. وقيل: إنّهُ ركب في اليوم السابع.
- (٣) هو الإمام علي بن مُحَمَّد بن علي بن موسى بن جعفر بن مُحَمَّد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، عاشر أئمة أهل البيت عليه السلام، وُلِدَ للنصف من ذي الحجة أو ثاني رجب سنة ٢١٢هـ، وقيل: ٢١٤، وكانت ولادته في قرية صريا التي تبعد عن المدينة ثلاثة أميال. يكتنّى بأبي الحسن، ويلقّب بالهادي والنّقي. مات مسموماً شهيداً على يد المعتزّ العباسي لأربع بقين من جمادى الآخرة، وقيل: في الثالث من رجب، في سنة ٢٥٤، ودُفِنَ في داره في سرّ من رأى (سامراء).
- (٤) قال الواقدي: غزا طارق بن زياد عامل موسى بن نصير الأندلس، وهو أوّل من غزاها، وذلك

في سنة اثنتين وتسعين. فلقية أليان، وهو والٍ على مجاز الأندلس فأمنه طارق على أن حمله وأصحابه إلى الأندلس في السفن. فلما صار إليها حاربه أهلها ففتحها، وذلك في سنة اثنتين وتسعين. (راجع: فتوح البلدان للبلاذري ١: ٢٧٣، نشر وإلحاق وفهرسة: د. صلاح الدين المنجد، نشر: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٦ القاهرة).

(٥) يعقوب بن إسحاق بن السكيت: بالسين المهملة، والكاف المشددة المكسورة، والياء المنقطة تحتها نقطتين الساكنة، والتاء المنقطة فوقها نقطتين أخيراً. صاحب (إصلاح المنطق) له كتب، كان متقدماً عند أبي جعفر الثاني وأبي الحسن عليهما السلام، قتله المتوكل لأجل التشيع. (راجع: إيضاح الاشتباه للعلامة الحلي: ٣٢٠، تحقيق: الشيخ محمد الحسون، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ، نشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم).

(٦) هو المحدث الكبير، والفقيه النحرير، صاحب الكتاب المشهور (تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة)، محمد بن الحسن، المعروف بالحرّ العاملي. وُلِدَ في قرية مشغرة من قرى جبل عامل ليلة الجمعة ثامن شهر رجب ١٠٣٣ هـ. توفي في اليوم الحادي عشر من شهر رمضان ١١٠٤.

(٧) المعروف أنَّ الذي فتحها هو عمرو بن العاص، ولكنَّ البلاذري في فتوح البلدان ١: ٢٥٠، ينقل ما يدلُّ على أنَّ الذي فتحها هو الزبير بن العوام، فراجع.

(٨) هو أمير المؤمنين وسيد الوصيين وأول خلفاء الرسول صلَّى الله عليه وآله المهديين - بأمرٍ من الله ونصٍّ من الرسول - وقد صرَّح القرآن بعصمته وتطهيره من كُلِّ رجس، وباهل الرسول صلَّى الله عليه وآله نصارى نجران به وبزوجه وولديه، وهو على رأس القربى الذين وجبت مودتهم. وُلِدَ بمكة المكرمة، داخل البيت الحرام وفي جوف الكعبة في يوم الجمعة الثالث عشر من شهر رجب، سنة ثلاثين من عام الفيل، وردت في حقّه فضائل لم ترد في حقِّ بشرٍ بعد النبي صلَّى الله عليه وآله، فهو أول الناس إسلاماً، باب مدينة علم النبي صلَّى الله عليه وآله، وأمير المؤمنين، والذي كرم الله وجهه عن السجود لغير الله، ويعسوب الدين، والذي هو من النبي صلَّى الله عليه وآله بمنزلة هارون من موسى، و... ولو أردنا استقصاء فضائله - لو استطعنا - لما انتهى بنا المقام. ضربه اللعين ابن ملجم في محراب صلاته منشغلاً بصلاة الصبح، فهتف (فزتُ وربَّ الكعبة)، فالتحمت كعبة الولادة بكعبة الشهادة، وانتقل إلى بارئه في الواحد والعشرين من شهر رمضان. فسلامٌ عليه يوم ولد، ويوم يموت، ويوم يبعث حياً.

(٩) زوّجها له النبي صلَّى الله عليه وآله بالمدينة بعد الهجرة بسنة، وكان لها يومئذٍ تسع سنين، وهو ابن خمس وعشرين سنة، وذلك بأمر من الله على لسان جبرائيل، وقال لها حين زوّجها منه: «زوّجتك خير

أُمِّي، أعلمهم علماً، وأفضلهم حلماً، وأولهم سلماً». ونقل العلامة المجلسي رحمته الله عن كتاب (المتقى في مولود المصطفى) في حوادث السنة الثانية للهجرة: «في هذه السنة تزوج علي بن أبي طالب عليه السلام فاطمة عليها السلام بنت رسول الله صلوات الله عليه وآله، في صفر لليالٍ بقين منه، وبنى بها في ذي الحجة، وقد روي أنه تزوجها في رجب بعد مقدم رسول الله صلوات الله عليه وآله بخمسة أشهر، وبنى بها مرجعه من بدر...».

(١٠) هي سليمة الحسب والنسب، فجدّها النبي المختار صلوات الله عليه وآله، وأبوها حيدر الكرار علي بن أبي طالب عليه السلام، وأُمها البتول الحوراء فاطمة الزهراء عليها السلام، وأخوها الحستان سيّدا شباب أهل الجنة، شهدت كربلاء، وسببت على يد جلاوزة بني أمية إلى الكوفة ومنها إلى الشام، ولها في الشام خطبة في محضر الطاغية يزيد، تدلّ على علمها وشممها، دُفنت في الشام في المكان المعروف، وقيل: في مصر، فسلام الله وصلواته عليها.

(١١) اختلف في تاريخ تحويل القبلة إلى الكعبة، روى علي بن إبراهيم: سبعة أشهر بعد مهاجرة النبي صلوات الله عليه وآله، وقال ابن إسحاق: صرف في رجب على رأس سبعة عشر شهراً من مقدمه المدينة، وهو المروى عن ابن عباس، واختاره يعقوبي في تاريخه، ثم قال: وقيل: بسنة ونصف. وروى عن أنس بن مالك تسعة أشهر أو عشرة أشهر، وعن معاذ بن جبل ثلاثة عشر شهراً.

(١٢) قيل: وُلد سنة ثمان للهجرة، وتوفي في السنة العاشرة في ربيع الأول، ودُفن بالبقيع، وانكسفت الشمس يوم موته.

(١٣) وأُمها الزّباب بنت امرئ القيس الكلبي، وأخوها لأُمها وأبيها عبد الله الرضيع، حضرت كربلاء، وحُملت إلى الشام مع من حل، توفيت في المدينة، ودُفنت في البقيع.

(١٤) خير بلسان اليهود حصن، وهو على بعد ثمانية بردٍ من المدينة لمن يريد الشام، وتطلق على مجموع سبعة حصون فيها نخل وماء، وكانت تعتبر من أكبر التجمعات اليهودية في ذلك الزّمن، وفتح النبي أكثرها عنوة، وفي سيرة ابن هشام أنّ فتحها كان في شهر صفر. وفي غزوة خيبر قتل علي عليه السلام بطلهم مرحباً، وقلع باب الحصن، وفي ذلك يقول ابن أبي الحديد الشافعي:

يا قالع الباب الذي عن هزّها عجزت أكفّ أربعون وأربع

(١٥) هو الإمام موسى بن جعفر بن محمّد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، سابع أئمة أهل البيت عليهم السلام، اشتهر بالكاظم والعبد الصّالح، وُلد بالأبواء على مقربة من المدينة في سنة ١٢٨ هـ في أيام حكم عبد الملك بن مروان، اعتقل مراراً بأمر من هارون الرّشيد، وحبس مراراً،

وَأُسْقَى بِأَمْرِهِ سَمًا فَتَاكَأَ، فَانْتَقَلَ إِلَى رَبِّهِ شَهِيدًا مُحْتَسِبًا فِي التَّارِيخِ الْمَذْكُورِ. قَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ فِي حَقِّهِ: «قَبْرُ مُوسَى الْكَاضِمِ التَّرْيَاقِ الْمَجْرَبِ».

(١٦) شَيْخُ الْبَطْحَاءِ، أَبُو طَالِبِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنْفٍ، وَاسْمُ أَبِي طَالِبٍ: عَبْدُ مَنْفٍ، وَقِيلَ: عِمْرَانُ. وَهُوَ مِنْ نَصْرِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَوَاهُ، وَيَنْطَبِقُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ ءَاوَأَ وَنَصَرُوا أَوْلِيَاءَهُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٢]، وَلَكِنَّ أَتْبَاعَ أَعْدَاءِ ابْنِهِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ (ع) وَضَعُوا فِي حَقِّهِ أَحَادِيثَ لَا وَجُودَ لَهَا تَدُلُّ عَلَى عَدَمِ إِسْلَامِهِ؛ كُرْهًا بِابْنِهِ الَّذِي سَبُّهُ عَلَى الْمَنَابِرِ ثَمَانِينَ عَامًا، وَفِي مُقَابِلِ ذَلِكَ نَجَدْنَاهُمْ قَدْ وَضَعُوا أَحَادِيثَ تَمْدَحُ مِنْ لَآكُ فَوْهَا أَكْبَادُ الْأَوْلِيَاءِ.

الإعلام العربي

في خدمة مَنْ؟!

□ الأستاذ: أحمد فارح الحاشدي (*)

بينما كنتُ أتصفّح بعض المواقع في الشبكة الإلكترونية لفت نظري خبرٌ أوردته جريدة (الشرق الأوسط) في صفحتها الأولى من عددها رقم: (١٠٨١٩) الصادر في تاريخ: ٩ رجب ١٤٢٩م، الموافق لـ: ١٢ يوليو ٢٠٠٨م، وقد عنونته بالعنوان التالي: «نائب وداعية مغربي: عدوى التشيع تحتاج مدن شمال المغرب»، وقد وُقع الخبر باسم مراسل الجريدة في الدار البيضاء: (حسن مقنع).

وأنقل للقارئ نصّ ما جاء في الصفحة الأولى بلا زيادةٍ أو نقيصة، ثمّ اذكر عدّة تعليقاتٍ على ذلك أضعها برسم الإنصاف.

نص الكلام:

دعا النائب المغربي الشّيخ عبد الباري الزّمزمي المسؤولين المغاربة، وخاصة

(*) كاتب وصحافي يمّني.

العلماء إِلَى التَّصَدِّيِّ للمدِّ الشَّيعِيِّ قبل استفحاله، مشيراً إِلَى أَنَّ عدواه بدأت تنتقل من أوروبا، وتكتسح شباب المدن الشَّمالِيَّة للمغرب، مشيراً إِلَى أَنَّ أخذ الحذر واجبٌ، ويجب استئصال بذرة الفتنة. وتحدَّث الزَّمزَمِي في حديثٍ لـ «الشرق الأوسط» عن الدور الكبير الَّذِي تقوم به السَّفارة الإيرانيَّة بالرباط في نشر التَّشيع. وقال: «أصبح لدينا في المغرب ممثلون للفئات الشَّيعيَّة، فمن لبنان لدينا مَنْ يُمثِّل حسن نصر الله، ولدينا مَنْ يُمثِّل حسين فضل الله. إذن، هذا إنذارٌ بالخطر». وبشأن المدِّ الشَّيعِيِّ في المغرب، قال الزَّمزَمِي: «إِنَّ حجمه بالتدقيق ما زال غير معروف؛ لأنَّ العمل جارٍ في الخفاء وليس في العلن. إنَّها الظَّاهر أَنَّهُ يتغلغل في أوساط الشَّباب بصفةٍ خاصَّة، مستغلاً قصور تفكيرهم وثقافتهم، وتغلَّب العاطفة لديهم. فهم يستغلُّون لدى الشَّباب إعجابهم بمواقف إيران وحزب الله السياسيَّة، فيجعلونهم ينساقون للتَّشيع بدون تفكير، ومن دون حتَّى مناقشة مبادئ التَّشيع، متوهِّمين أَنَّ تلك المواقف نابعة من مبادئ الشَّيعيَّة». وأشار الزَّمزَمِي إِلَى أَنَّهُ لا يقول بمواجهة التَّشيع بالعنف، بل بالفكر والحوار، بمعنى أَنَّ يتفرَّغ العلماء لمحاورة هؤلاء المتشيِّعين. ليس بالضرورة المحاورَّة المباشرة، ولكن عبر خطب الجمعة، وتنظيم ندوات ومحاضرات، أي: أَنَّ يكون هناك اكتساحٌ للميدان بكُلِّ الوسائل، بما فيها الإعلام.

التعليقات

التعليق الأوَّل: من المتعارف عند كُلِّ مَنْ مارس الصَّحافة والإعلام أَنَّ الخبر الَّذِي ينقل في الصَّفحة الأولى هو الخبر الأهمُّ، الَّذِي يشغل السَّاحة التي تصدر فيها أو لأجلها الصَّحيفة - أيَّ صحيفةٍ -.
وبعبارةٍ أُخرى: إنَّ ترتيب الصَّفحات في الصُّحف والمجلاَّت - خصوصاً

التي تنحو المنحى السياسي - يخضع بالدرجة الأولى لأهمية الخبر .
ومن منطلق هذه القاعدة فإنها تعني أنَّ رئاسة التحرير أو بالأحرى من هو خلفها في صحيفة «الشرق الأوسط» ترى أنَّ أهمَّ خبرٍ يشغل الساحة العربيَّة والإسلاميَّة في اليوم الَّذي صدرت فيه الصَّحيفة هو: تصريح النائب الزَّمزمي حول انتشار التَّشيع في المغرب .

علماً أنَّ ما جاء كمعرِّف لهذه الصَّحيفة وكشعار لها أنَّها: (جريدة العرب الدُّوليَّة)، بحيث يفهم من هذا الشُّعار الَّذي اتَّخذته نهجاً لها أنَّ استراتيجيتها الإعلاميَّة قائمة على تعريف العالم والدُّول غير العربيَّة بشؤون الدُّول العربيَّة .
وحيثُ لنَّا الحقُّ في أنَّ نتساءل:

أليس من الأجدر أنَّ نعرِّف العالم بالمجازر اليوميَّة التي تجري على أرض فلسطين من قبل الصَّهاينة؟!؟

أليس من المناسب أنَّ نركِّز على الأخبار التي تعكس صورتنا للأُمم الأُخرى بشكلٍ أكثر انسجاماً وتوحّداً، بدل من أنَّ نبين للعالم المواضع التي يستطيعون من خلالها وضع الزيت على النَّار في سعيهم الحثيث لإذكاء الفتنة بين أبناء الأُمَّة الإسلاميَّة الواحدة؟!؟

ثمَّ إنَّ هذا الخبر، هل هو أهمُّ ما يشغل السَّاحة العربيَّة والإسلاميَّة في وقتنا الحاضر؛ لكي نصدِّر به الصَّحيفة، أم أنَّ وراء الأكمة ما وراءها، وأنَّ الخبيث عينه فراره^(١) .

التعليق الثاني: لماذا لم تُثر حميَّة الزَّمزمي الحركاتُ التَّيشيريَّة للكنيسة العالميَّة وخصوصاً في المغرب العربي وشمال أفريقيا؟! أم أنَّ الانتساب إلى مذهب أهل البيت عليه السلام قد أضحى هو الخطر الأساس الَّذي يشغل باله الشَّريف!!

وأين ذهب غيرته الإسلاميَّة والصَّهاينة يسرحون ويمرحون في بلاده من دون رقيبٍ أو حسيبٍ؟!؟

التعليق الثالث: ثُمَّ إِنَّهُ لم أفهم كيف يكون انتخاب بعض شباب المغرب ومثقفهم لمذهبٍ من المذاهب الإسلامية من أسباب الفتنة التي يجب محاربتها؟!!!

ولو كان الأمر كذلك، فإن جميع المذاهب التي طرأت على المغرب بعد المذهب الذي كان سائداً عندهم إبان حكومة الفاطميين تعتبر مذاهب فتنوية يجب محاربتها، أو لا أقل فقد انتشر في العصر الحاضر الفكر الوهابي في بعض الأوساط المغربية، ولكننا لم نسمع الشيخ الزمزمي ولا غيره يحذّر من ذلك، مع ما اقترن بهؤلاء من التكفير لأكثر المسلمين، وتحليل قتلهم، وما استتبع ذلك من حركة عملية في هذا المجال، من تفجيرات ونحوها نُسبت إلى الإسلام والإسلام منها بريء. والحال أنه لم يُعزَ إلى مَنْ تشيع في جميع الدول في العالم أنهم قاموا بمثل هذه الأفعال.

التعليق الرابع: إِنَّ المدَّ الشيعي إذا كانت عدواه قد بدأت تنتقل من أوروبا وتكتسح شباب المدن الشمالية، فلماذا يعزي ذلك ثانية إلى السفارة الإيرانية في الرباط، ودعوى أنها هي التي تقوم بنشر التشيع فيه.

التعليق الخامس: أَنَّ في كلام الزمزمي إهانة صريحة لشباب المغرب العربي؛ حيث وصفهم بقصور التفكير، والحال أن أكثر شباب المغرب العربي من المثقفين والمتعلمين!!

ثُمَّ إِنَّ سنَّ الشباب لا يعني قصور التفكير، وإن كان الشاب أكثر تأثراً بالغرائز من غيره، ولكن هذا شيءٌ والقصور الفكري شيءٌ آخر، كيف وقد ورد عن نبي الله أيوب عليه السلام أَنَّهُ قال: «إِنَّ الله يزرع الحكمة بالرحمة في قلب الصغير والكبير، فمتى نبتت في القلب يظهرها الله على اللسان، وليست تكون الحكمة من قبل السن ولا الشيبة ولا طول التجربة، وإذا جعل الله العبد حكيماً في الصبا لم يسقط منزلته عند الحكماء وهم يرون عليه من الله نور الكرامة»^(٢).

أوليس أكثر الَّذِينَ اتَّبَعُوا دَعْوَةَ النَّبِيِّ ﷺ من الشَّباب، والحال أَنَّ أكثر كهول مكَّة قد كَذَّبُوهُ!!؟

أولم يكن أُسامَة شاباً عندما وَلَّاهُ النَّبِيُّ ﷺ قيادة الجيش، واحتجَّ مَنْ لم يتَّبعه بكونه شاباً!!؟

ثُمَّ إِنَّ الزَّمِزِمِي نفسه قد اتَّبَعَ المذهب الَّذِي هو عليه الآن من حين بلوغه، بل قبل ذلك إِنَّ كان مميَّزاً، فهل يعني ذلك أَنَّهُ على ضلال!!؟

التعليق السادس: إِنَّهُ لا يكاد ينقضي تعجَّبي من قول مَنْ يُفترض منه الإنصاف والعدالة؛ لكونه من أهل العلم: «متوهِّمين أَنَّ تلك المواقف نابعة من مبادئ التَّشيع»؛ حيث إِنَّ ما يقوم به الشَّيعة من أعمالٍ بطوليَّةٍ لو كان خلافاً لمبادئ التَّشيع لما أُعطي النَّصر المظفَّر على عدوِّ الله والإنسانيَّة، أعني: إسرائيل وأمريكا.

ومع قطع النَّظر عن ذلك، أليس من مبادئ التَّشيع القيام ضدَّ الظَّالم، وهذا إمامهم الحسين عليه السلام يدوي صوته في صحراء كربلاء: «هيهات ممَّا الدَّلة»، ويقول لطاغية زمانه: «والله، لا أعطيكُم بيدي إعطاء الدَّليل، ولا أقرَّ لكم إقرار العبيد»، وهذا الزَّمِزِمِي نائبٌ في مجلس صوّت على العلاقة مع إسرائيل، وتراه يقول: «صلوا خلف كُلِّ إمام: برٍّ أو فاجر».

التعليق السابع: لم أستطع الجمع بين التَّنَاقُض الموجود في كلامه؛ إذ من جهة يدعو إلى محاورَة هؤلاء الشَّباب الَّذين تشيَّعوا، والمحاورَة كما هو معلوم عند أدنى من له معرفة باللُّغة مفاعلة تحتاج إلى طرفين، كُلٌّ واحدٍ يقوم بما يقوم به الآخر، ومن جهةٍ أُخرى يطلق على اكتساح الميدان بالتَّهَجُّم على الشَّيعة والمتشيَّعين حواراً!!

التعليق الختامي: ممَّا لفت نظري أكثر ممَّا تقدَّم: التَّعليقات المسجَّلة على زوَّار الموقع الَّذِي نُشرت فيه هذه الصَّحيفة؛ حيث أدهشتني الثقافة النِّيرة لشبابنا في

المجتمع العربي والإسلامي، وأنهم لا ينجرفون وراء كل ما يطرحه الإعلام، بل يتعاملون معه بوعي وحكمة ودراية، وسوف أنقل للقارئ هذه التعليقات ليطلع عن كثب على مقدار الوعي الموجود رغم كبت الحريات الذي يمارس في أكثر الدول العربية.

جاء تحت عنوان (التعليقات) على الصفحة الأولى التي نقلتها سابقاً ما يلي:

- فرات علي، الدانمارك، ١٢ / ٧ / ٢٠٠٨:

«لقد نسي السيد الرّمزي أنّ العالم أصبح قرية صغيرة وبإمكان أيّ باحثٍ للحقيقة الحصول على كلّ المعلومات التي تخصّ بحثه ورغبته لمعرفة الحقائق. فما على الفرد لأيّ مذهبٍ أو دينٍ أو عقيدةٍ انتمى إلّا أن يُشغّل جهاز (الدش)؛ لمشاهدة القنوات الفضائية المختلفة التي تروّج لهذا المبدأ أو ذاك، أو هذه الفئة أو تلك... أو أن يُشغّل جهاز الحاسوب المربوط بالإنترنت؛ ليحصل على كمّ هائل من المعلومات، فيستقي الحقائق منها بفطرته وعقله.. إذن، فالمسألة أوسع من ربطها بسفارةٍ معيّنة، أو مؤسسة، أو غير ذلك!»

- محمود العبد الله الأحري، الولايات المتحدة الأمريكية، ١٢ / ٧ / ٢٠٠٨:

«لا أرى متى سنتوقف عن هذا الشحن والتعبئة ضدّ بعضنا البعض؟ وكأنّ التشيع لا يمتّ للإسلام بصلة! شئنا أم أبينا هو مدرسة إسلامية يذهب إليها من يشاء ويخرج منه من يشاء، والاختلاف مع التشيع لا يعني نفى إسلاميته. مَنْ يُريد أن يقارع الحجّة بالحجّة، فلذلك مجاله، لا أن نجتر الاستعداد الذي لا يزيد إلّا ابتعاد الشباب أكثر عن الإسلام كليّة. شخصياً أرتاح أن أرى سنياً يتشيع أو شيعياً يتسنّن، من أن تنتهي بجيلٍ مائعٍ منهزمٍ عديم الفعالية».

- صالح بن محمّد العوّامي، المملكة العربية السعودية، ١٢ / ٧ / ٢٠٠٨:

«أنا اتفق مع السيد الرّمزي، يجب أن نتصدّى لهذه المحاولات، شكراً له على الإخلاص، فمن الواجب أن لا يكون للسيد نصر الله أو للسيد فضل الله أيّ

ممثل، فهؤلاء يشكّلون خطراً جسيماً على المغرب. ولكن لم نسمع السيّد الرّمزمي يحذّر من خطر وجود ممثلين للصّهاينة على أرض المغرب، أو يتصدّى لما هو أدهى في بلاده، وهو يعرفها جيّداً، وهي التّنظيمات والخلايا الإرهابية».

- مُحمّد المسلم (السعودية)، فرنسا/ متروبولتان، ١٢ / ٧ / ٢٠٠٨:

«يكشف مايكل برانت الرئيس الأسبق للمخابرات الأمريكية إلى أنّهم توصّلوا إلى حقيقة مفادها: أنّ المواجهة المباشرة مع الشيعة فاشلة؛ لأنّها تقوّي شوكتهم، وتضاعف من مواجهتهم، وعليه يجب اتّباع السياسة البريطانية (فرّق تسد)، وإشاعة التّفرقة بين الشيعة أنفسهم من جهة، وبين الشيعة والسّنة من جهة أخرى، ويا مسلمين: سنّة وشيعة، اصحّوا من سباتكم».

هذه بعض التّعليقات الكاشفة عن وعي لدى شبابنا المسلم، وبالطّبع كانت هناك بعض التّأييدات للرّمزمي، اتّبع منهج التّهريج والسّب والشتم، وتجنّبت الموضوعيّة، فرأينا من المناسب الإعرّاض عنها، مع اشتراكها مع كلام الرّمزمي في ورود التّعليقات المتقدّمة عليها.

* * *

الهوامش:

(١) مثلاً من أمثلة العرب، الأوّل أصله: أنّ أمةً واعدت صديقها أن تأتيه وراء الأكمة إذا فرغت من مهنة أهلها ليلاً، فشغلوها عن الإنجاز بما يأمرونها من العمل، فقالت حين غلبها الشّوق: حبستوني وإنّ وراء الأكمة ما وراءها. يضرب لمن يفشي على نفسه أمراً مستوراً (مجمع الأمثال ١: ١٥)، ولكنّه شاع في عصرنا إطلاقه على من يُخفي أمراً ويظهر خلافه. والثّاني أصله: إنّ الجواد عينه فراره، والفرار بالكسر النّظر إلى أسنان الدّابة لتعرف قدر سنّها، وهو مصدر، ويروى فراره بالضم، وهو اسم منه. يضرب لمن يدلّ ظاهره على باطنه فيغني عن اختباره، حتّى لقد يُقال: إنّ الخبيث عينه فراره (مجمع الأمثال ١: ١٢).

(٢) الطّبري، ابن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١٧: ٨٩، ضبط وتوثيق وتخريج صدقي جميل العطار، دار الفكر ١٤١٥، بيروت.

العواقب الوخيمة

لخارطة طريق الاستبداد

(القسم الثاني)

□ الأستاذ: هلال آل فخر الدين (*)

مقدمة

منذ فجر التاريخ ولعصرنا الحاضر والاستبداد ظاهرة ملازمة لكافة الأنظمة
الأسرية والحكومات الفرعونية والامبراطورية، ولا تنفك عن الاستعباد وإن
اختلفت النظريات والأساليب والآليات..
ويعد ظهور الإسلام بحق نقلة نوعية عظيمة في تفكيك أسس آفة الاستبداد
وتحرير مسار الإنسان من عبوديات البشر، ومنحه حقوقه، وإطلاق حرية
إرادته وفكره من خلال حزمة من التشريعات والتطبيقات..
لكن البحث واسع جداً في ما حصل من نكوصٍ عن تلك القيم العظيمة،
بل سحقها وبمجرد ارتحال الرسول الأعظم ﷺ إلى الرفيق الأعلى ولحدّ
الآن..

(*) باحث إسلامي.

ومن خلال أكّداسٍ من التّصرّفات الاستبدادية وما يدعمها من الموضوعات (الفتاوى) التي أصبحت ترقى إلى مستوى النصّ المقدّس وأكثر. وكُلّ ما أقوم به هو إلقاء الأضواء على مساراتٍ أساسية لتلك الثورة ومفاصل الحركة المضادة (الانقلاب على الاعقاب)..

وهنا أودّ أن أُشير إلى مطالب يستلزمها بحث الاستبداد في الإسلام؛ وذلك لخطورة هذا البحث من جهةٍ ولأهميته من جهةٍ أخرى؛ لما يتخذ منه وسيلة لاتهمّ الرسالة بتشجيعه، وما يستلزمه من التخلّف والإرهاب، ولتشعبه في مظانّ مواضيع لا يمكن تجاهلها لشديد ارتباطها به؛ كنشوء المذاهب، والتعصّب الطائفي، وتزييف النصوص وحتى طمسها، واختراع آليات لتبرير الاستبداد، وكون مجتمعاتنا لا زالت إلى الآن غارقة في مستنقعاته وإن تذرّعت الدول بلبوس متعددة لنفيه عنها، لكنّه أصبح ثقافةً سائدةً. وحاولتُ أن أجمع بين الأصالة والتوثيق، وبين الحداثة والتحليل والاختصار غير المخلّ ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، وتعمدتُ أن لا استعين بغير المصادر التي ترعرعت في أحضان الحكام للعالم الإسلامي في طول تاريخه، ومنهم شيوخ فتاوى الاستبداد والمعارضون..

ولا أقول إنّني أحطت بهذا البحث الواسع والشائك أو وافيت البحث حقّه؛ حيث لا تعدو إلّا محاولة جهد المقلّ من إلقاء أضواء على مطالب أساسية (الاستبداد والشورى والديمقراطية)، والعذر من القصور والتقصير، وما التوفيق إلّا منه سبحانه.

الإسلام وإنكاره للاستبداد:

لا يستطيع أحدٌ أن ينكر ما حفل به التشريع الإسلامي من نصوصٍ واضحةٍ وصريحةٍ من إعلان الحرب على المستبدين والطغاة من الحكام، وعلى الأنظمة

الجائزة التي تتحكم بالرقاب بحدّ السيف، وبمستوى لا يقلّ من التنديد بالغزاة والمحتلّين، وعدم الركون إليهم، بل ووجوب مجابهم دفاعاً عن (بيضة الإسلام)، ودرءاً للمفاسد والمخاطر كما يؤكد ذلك العلماء والفقهاء، ولكنّ أبواق مدرسة السُلطة تفتّنوا في وضع أو تأويل أحاديث استخدمت لتبرير ما لا يمكن تبريره من سفك وإرهاب، ونزوا على الشرعية بحدّ الحسام.

المصادر الإسلامية واجتثاث الاستبداد:

إنّ المصادر الإسلامية لا أنّها ترفض رفضاً قاطعاً تأليه الزّعماء، وتندّد بتوثين الأمراء، وتدين الاستبداد، وتحارب الاستكبار بكُلّ صوره وأشكاله فحسب، بل تحثُّ على استئصال كُلّ هذه المظاهر من جذورها، واجتثاثها من منابعها؛ لأنّها منافية للسّنن الإلهية ومتعارضة مع القيم الإنسانية.

أولاً: ذكر القرآن الكريم كثيراً بالسّنن الإلهية في معاقبة الظالمين والمكذّبين: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْدِلَ سُنَّةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٣]، وذكر بأحوال الأمم السابقة وفنائها وهلاكها؛ لتهاديهم في الغيِّ والإفساد: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: ١٦]، و ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: ٨]، و ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَكَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنْكَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٤]، وحذّر من مغبّة ظلم الظّالمين: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٣٥]، وطغيان الفراعة، وأنّ نهايتهم إلى خسران: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ [الصّافات: ٣٤]، وما حلّ بالأُمم من كوارث؛ لإذعانهم واستسلامهم وتكذيبهم: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ [الحج: ٤٨]، ﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرْيَةٍ عَنَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلُهَا فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا﴾ [الطلاق: ٨]، ﴿أَلَمْ تَكُنْ مِنْ آيَاتِنَا نُنْزِلُ عَلَيْكَ فُكْرًا مِمَّا تَكْذِبُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٥]، و ﴿فَإَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَاءَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾

[الأعراف: ١٣٣]، و ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدِيَقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [فصلت: ١٦].

ثانياً: إن الكتاب العزيز اشتمل على منظومة كبيرة من الأنظمة الصارمة التي تشدد حتى على مجرد المسايرة أو التراخي والخنوع للظلمة؛ وذلك لأجل عزلهم عن المجتمع بالوسائل السلمية، وهي: المقاطعة والاعتصام والإضراب، ناهيك عن سبل وآليات التصدي لخطرسة الاستبداد ومقارعة العدوان، والقرآن يصدق قائلاً: ﴿ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَعَمَسِكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود: ١١٣]. وسنّ قاعدة عريضة من أنّ الكل ملزمٌ بالتغيّر وقول الحقّ والأمر به في مواجهة أيّ منكرٍ أو مستقبح، وأنّ ذلك ليس مناطاً بفتنة معينة أو جهازٍ مخصّص، قال تعالى: ﴿ وَلَتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. كما لا يجوز الاستقواء بالظلمة ولا بالأعداء من الظّالين والمنحرفين والاستعانة بهم على أمة المسلمين، قال سبحانه:

- ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تُخِذُ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ [الكهف: ٥١].

- ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ [المائدة: ٥١].

- ﴿ الَّذِينَ يَرَبُّونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْنٌ مِّنَ اللَّهِ فَاقُولُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٤١].

- ﴿ الَّذِينَ يَنْخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنُغُوتٌ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ

لِللَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٣٩].

ثالثاً: السُّنَّة النبوية الشريفة

إنّ رفع عقيرة مقاومة هؤلاء بكلّ وسيلةٍ وحسب المستطاع حتّى لتصل إلى

مرتبة الأحكام التكليفية الشرعية التي لا تسقط عن أحد (الأمة المعبّنة) دائماً لخوض غمار من يشب على زعامتها أو تسوّل له نفسه العبث بها.

لذلك نلاحظ ما كان يجاهر به النَّبِيُّ ﷺ وفي مواقف مختلفة، وما ثبت من سنّته القولية منها والعملية من استنكارٍ شديدٍ لكلّ مظهر من مظاهر الاستبداد والنزوّ على سدّة الحكم بالغلبة والعنف والقهر؛ حيث وضعت الرّسالة الإسلامية ضوابط وشروط كثيرة وصعبة في اختيار الأصلح لولاية الأمر والحكّام: «يا أيّها النّاس، إياكم والظلم! فإنّ الظّلم ظلّماّت يوم القيامة»^(١). وحفّ ذلك بمجالس أهل الحلّ والعقد والشورى؛ لمنعه من التّفرد بالتسلّط، ولتقديم النّصح والمشورة، ومن وراء كلّ هؤلاء نظارة الأُمّة: «كلّكم راع، وكلّكم مسؤول عن رعيّته»^(٢)، بكلّ مكوّناتها وانتماءاتها وأعرافها لمراقبة سياسة وتصرفات الحاكم ونظام الحكم؛ خوفاً من الشّطط أو التّماهي في هوى التسلّط وبسط الاستبداد.

ولعلّي لا أغالي إذا قلت: إنّّه لم تحفل أُمّة من الأمم، ولا حضارة من الحضارات، ولا نظام حكم مثل ما سنّه الإسلام من تشريعاتٍ في انتخاب القائد ومراقبة حتى الصّغير من تصرفاته، وجعل لأدنى فردٍ في الأُمّة الحقّ في محاسبته، وبيان سقطاته، وجعلها ثقافةً لحصانة الأُمّة والحفاظ على مناخ الحرية من بوائق الاستبداد، وما يترتّب من الاضطهاد والانهيار والتخلّف؛ حيث قال الرسول ﷺ: «اذكروا الفاسق بما فيه؛ لكي يحذره النّاس»^(٣).

رابعا: وكان لحشدٍ من صفوة العلماء الأحرار والصّلحاء والأبرار، وعلى مرّ العصور دورٌ كبيرٌ للتصدّي للفراغنة وجباة الأُمراء، وقد وُفق البعض منهم لنيل الشهادة على أيدي أعتى طغاة عصرهم؛ لصدحهم بالحقّ بوجههم، واستنكارهم لجرائمهم وفي مجالسهم وتحت حراب زبانيّتهم وعلى رؤوس الأشهاد من غير وجل، كمواقف الصّحابيّ الجليل أبي ذر أمام معاوية وبني

أُمِّيَّة، وتنديده بسياساتهم وسرقاتهم وبكُلِّ جرأةٍ وشمم..

ومواقف عمرو بن الحمق الخزاعي، وصعصعة بن صوحان العبدي، وعبد الله بن حنظلة (ابن غسيل الملائكة)، وسعيد بن جبير، متخذين من السنّة منهاجاً ودليلاً، كقوله ﷺ:

- «أفضل الجهاد: كلمة حقّ عند إمام جائر»^(٤).

- وقوله ﷺ: «سيد الشهداء حمزة ورجلٌ قام إلى إمام جائرٍ فأمره ونهاه، فقتله»^(٥).

- وقوله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، وإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»^(٦).

فقد جعل المعيار في صلابة الإيمان وزنته هو مقارعة الظلم والمنكر. ومواقف الإمام الصادق عليه السلام من طغاة عصره، وبالأخص المنصور الدوانيقي، أشهر من أن تذكر. فقد حذّر عليه السلام من مغبة مدّ يد المساعدة والعون إلى الطُّغاة قائلاً: «الظلمة وأعوان الظلمة في سراق من نار يوم القيامة»^(٧).

ومواقف الإمام الكاظم عليه السلام مع فرعون عصره الرّشيد، وحديثه مع أحد أصحابه (صفوان) وتقرّيعه وتوبيخه لما يفعله لمجرّد كراء جماله من هارون الرشيد للحجّ مشهورة، وفيها عبرة لأولي الألباب.

خامساً: ولا يخفى على أحد ضخامة سلسلة الانتفاضات والثورات الكبرى التي هزّت الأنظمة وقضت مضاجع الظّالمين، وكذلك التّصديّات وحركات المقاومة للمستبدين والظّلمة التي أرقتهم، وهو ما حفل به التاريخ الإسلامي منذ الصّدر الأوّل ولحدّ الآن، والتي لم يحفل تاريخ أُمّة من الأُمم مثلما شهدته الأُمّة الإسلامية من ضخامة إرث الثورات، وثقافة مقاومة المعتدين.

وكذلك قد بليت الأُمّة بنماذج فرعونية وبأصناف من العتات والظّالمين لم تشهد لثلمهم أُمّة من الأُمم.. لكنّ الفارق هو أنّها لم تستسلم أو تنكص رغم كلّ

الحشد الدّعائي والإعلامي الديني والمطاردة وطوامير السجون وأقبية التعذيب والتنكيل وقطع الأرزاق والسيوف المصلتة ومجازر الذبح والإبادة، فلم تزدّها تلك الوسائل الإرهابية المرعبة إلّا مزيداً من العطاء والتّصدي وبكّل شجاعةٍ وعزيمةٍ للجباة من الخلفاء والولاة والأمراء والسلاطين.

والملاحظ في تلك الثورات فقدان التّوازن بين قوى الطّرفين بالمعايير العسكرية، إلّا من الروح المعنوية، والشّعور بالواجب، وعدم إعطاء الدّنية، وصرخة: (هيهات منّا الدّلة).

والأمثلة كثيرة، وفي مقدّمها النهضة الحسينية التي أصبحت مناراً لكلّ الأحرار يستلهموا منها العبر، وفي كلّ الأجيال وعلى مرّ العصور التي أطاحت بعروشٍ وأقامت عروشاً، وكما قال الأستاذ العقّاد: «وقف الإمام الحسين ساعةً، وباقية إلى قيام يوم الساعة»، وما تلاها من ثورات نبعت من تلك المدرسة، مدرسة الفداء والتضحية، وخرجت من رحمها ثورات: المدينة، ابن الزبير، التوابون، زيد بن علي عليه السلام، القرّاء، الزنج، الخ...

سادساً: الرّوح الثّورية العالية في مقاومة غزوات المحتلّين وقراصنة البحار من المستعمرين والفاشين على الرّغم من فقدان ميزان القوى لكلا الطّرفين في معارك غير متكافئة أصلاً، كثورة الأمير عبد القادر الجزائري في الجزائر، وعبد الكريم الخطابي في الرّيف المغربي، وعمر المختار في ليبيا في شمال أفريقيا، والدستور في إيران، والعشرين في العراق، وعراقي في مصر، و ميسلون الشام، والأقصى في فلسطين...

و يخيم الفساد في أرجاء الأرض كافة كما قال سبحانه: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الرّوم: ٤١]، وتزداد وطأة الجباة وتنتشر الظلامية وتضرب بأطنابها الآفاق ويعود الإسلام غريباً كما بدأ، حتّى ثورة المصلح الأكبر، ويؤيّده قول المصطفى ﷺ: «لن يصلح آخر هذه الأمّة إلّا بما صلح به

أولها^(٨)، فيملأها عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً. وهذا يؤشّر إلى عدم انفكاك الاستبداد والعدوان من محيطنا حتّى ظهور المصلح العالمي ﷺ... إنك تلاحظ أنّ ما زرعه اليتيم المضطهد المطارد مُحَمَّد بن عبد الله ﷺ من الاعتماد على ربّ العزّة وروح مواصلة الثورة، بالكلمة الطيبة والحوار بالتي هي أحسن، وأخيراً بالدّفاع عن النّفس والعقيدة مهما بلغت التّضحيات، ومجاهدة نظم الجاهلية وعتاة الشرك وذئبان العرب، كلّ ذلك ميراثٌ استلهمه الصّفاة من أهل بيته ﷺ، ومن سار على خطاهم من المصلحين والثّوّار، وهي قد تحبو أو تضمّر لفترة، ولكنها تبقى وهجاً ومعشوشباً متبرعماً في زمانٍ ومكانٍ، ومهما كانت الظّروف، وعظمت الصّعاب.

وهنا سؤالٌ خطيرٌ يطرح نفسه، وهو: ما هو السّرّ وأين يكمن الخلل؟ ونحن وإلى الآن تعتورنا أنظمة الاستبداد، ويتحكّم في رقابنا المستبدّين، ويسلمنا بعضهم لبعض تسليماً باليد، وعلى رغم مسميّاتهم وشعاراتهم، لكن تراهم يتفنّنوا بأساليب قمعنا وذبحنا بحجج واهية أو بلا حجج؛ لكي يبقوا جاثمين على صدورنا؟! على صدورنا؟!!

سابعاً: من المعلوم أنّ الحكّام مهما كانوا متفرّعين ومستبدّين ومتكّرين لكلّ مقدّسٍ ومبدئٍ إلّا أنّهم يبقون بحاجةٍ ماسّةٍ لمن يشرعن لهم كلّ جرائمهم وانتهاكاتهم وإباداتهم وإسرافهم وعظيم فسقهم، ويبرّرها لهم، بل ويجعلها من صلب الدّين، وهنا أشير وألح إلى حوادث مفاجئة حدثت بسبب فتاوى جائزة ما أنزل الله بها من سلطان.

يذكر المؤرخون في أخبار وقعة الجمل في البصرة عندما قرّر الصحابيّان (المبشّران بالجنت) السطوّ على بيت مال المسلمين: امتنع عليهم الحراس والأمناء من الاستيلاء عليه، فما كان ممّن لا أريد ذكر اسمه إلّا أن أصدر فتوى بذبح أولئك لسلب الأموال، وهنا يقول المؤرّخ السعودي: «... وأرادوا بيت المال،

فمانعهم الخُزان والموكلون به وهم السبابجة، فُقُتِلَ منهم سبعون رجلاً غير مَنْ جُرح، وخمسون من السَّبعين ضربت رقابهم صبراً من بعد الأسر، وهؤلاء أوّل من قُتِلَ ظلماً في الإسلام وصبراً^(٩).

وغير خافٍ ما ارتكبه السَّفَاك يَزِيد في الذرية الطَّاهرة في واقعة الطَّفِّ المروعة.. وما فعله من أفاعيل منكرة في ثورة أهل المدينة ضدَّ تسلطه وجوره.. وبعدها من محاولة تهديم الكعبة وضربها بالمنجنيقات في ثورة ابن الزبير. وما فعله العباسيون من جرائم وفضائع يندى لها جبين كلِّ إنسان: من الإبادات الجماعية، وحتى قتل من أعطوه الأمان شرَّ قتلة على أيدي السفاحين من الخلفاء، كالسفاح والمنصور والرشيد بفتاوى من أمثال قاضي قضاة الإسلام أبي يوسف وأضرابه من المأجورين والمرترقة.

كما أفتى شيخ الإسلام مفتى ديار المسلمين كافّة للخليفة سليم الملقب بـ (ياغوز) أي: الذئب بـ (فتوى) احتلال مصر والشام بعد أن أعطاهم الأمان وأبرم معاهدة حسن الجوار وعدم الاعتداء. ولم يتورّع هذا الشَّيخ المرافق للسلطان سليم من إصدار فتوى تبيح له قتل الشيعة؛ لأنَّهم معارضة، فقتل ياغوز في ليلةٍ واحدةٍ وفي حلب وحدها (٨٠٠٠٠) مسلم بفتوى شيخ الإجرام، وقد سطر ذلك مُحَمَّد فريد وجدي في كتابه: تاريخ الدولة العلية العثمانية.

* * *

الهوامش:

- (١) الإمام ابن حنبل، أحمد، مسند أحمد ٢: ١٠٦، دار صادر، بيروت.
- (٢) البخاري، الإمام أبو عبد الله مُحَمَّد بن إِسْمَاعِيل، صحيح البخاري ١: ٢١٥، كتاب الجمعة، نشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨١م، مصورة عن طبعة دار الطباعة العامرة باستانبول.
- (٣) النَّووي، محيي الدِّين، المجموع ٢٠: ٢٣٢، نشر: دار الفكر.

- (٤) مسند أحمد ٤: ٣١٤، مرجع سابق.
- (٥) الحاكم النيسابوري، المستدرک علی الصحیحین ٣: ١٩٥، إشراف: د. يوسف عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة، بيروت.
- (٦) النيسابوري، مسلم، صحيح مسلم ١: ٥٠، نشر دار الفكر، بيروت.
- (٧) راجع: الكليّني، محمد بن يعقوب، الكافي ٥: ١٠٧، كتاب الجهاد، باب: عمل السلطان وجوائزهم، الحديث: (٧)، تصحيح وتعليق على أكبر غفاري، الطبعة الثالثة ١٣٦٧ ش، دار الكتب الإسلامية، طهران.
- (٨) راجع: ابن حنبل، أحمد: كتاب العلل ومعرفة الرجال ١: ٦٨، تحقيق وتخريج: د. وصي الله بن محمد عباس، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ، نشر: دار الخاني، الرياض.
- (٩) المسعودي، علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر ٢: ٣٦٧، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الرابعة ١٣٨٤ هـ مطبعة السعادة، مصر.

قبس

من شعر الإمام الخميني رحمته الله

□ الأستاذ: نجاح محمد علي

بعد وفاته رحمته الله، نشر نجله السيد أحمد بعضاً من قصائده في العرفان الإلهي، ومنها هذه القصيدة التي لا يعرف سرّها إلا من أخلص النية، وسلك إلى لقاء الله، واشتاق إلى قربهِ في عالمٍ يختفي فيه الزمان، ويصبح العبد فانياً في محبوبه الأبدى.

فالإمام الخميني رحمته الله، لديه رؤيةٌ خاصّةٌ في الحبّ الإلهي عبّر عنه بالفناء، وذكر في قصائده الكثير عن الكشفيات عن أسرار الحكمة والعرفان فيه.

ويبرز العرفان عند الإمام الخميني رحمته الله ممنهجاً في أطوار ومراحل من الحبّ الإلهي بلغةٍ شعريةٍ خاصّةٍ فيها صفات العرفان، والطُّرق إلى الفناء في الحب..

وقد سار رحمته الله على نهج من سبقه من كبار رموز مدرسة العرفان في إيران كالشاعر الكبير شمس الدّين حافظ الشّيرازي، واستخدم نفس المصطلحات التي استخدمها حافظ كـ (الخمّر) التي يراد بها (غلبات الشوق)، فحين يغلب الشّوق والوجد والحال بسبب تجلّي المحبوب الحقيقي أو الله وقت غلبة المحبة على قلب السّالك، يفنى السّالك ويغيب عن وعيه ويعدم؛ لأنّ استيلاء الشّوق

والوجد يهدم القواعد العقلية.

كما استخدم كلمات مثل الكأس والقدح والحانة والخمارة، وهي تتحرّك بالسالك نحو المحبوب، ومشاهدة الأنوار الغيبية؛ حيث يكون التجلّي الذي يبدو من الأنوار الغيبية في قلب السالك.

ففي قصيدة (حسن الختام) يبدأ الشاعر منادياً: «ألا أيُّها السّاقّي املأني بالخمر كأسّي * فإنّه يخلص من الخير والشرّ رويحي * املأني كأسّي بالخمر التي تفني رويحي * وأخرج وجود الخداع والخيال من وجودي».

وفي العام ٢٠٠١م ألف الأخ والصديق العزيز طراد حمادة (وزير في الحكومة اللّبنانية السابقة) دراسةً جميلةً ورائعةً في كتاب سمّاه (أسرار الحكمة والعرفان في شعر الإمام الخميني)، وقد صدّر الأخ طراد دراسته بقسمٍ نظريٍّ يتناول مسائل العرفان عند الإمام الخميني رحمته الله، ثم تناول مفهوم الحبّ عند الغزليين والصّوفيين، ثم بحث أطوار الحبّ الإلهي عند الإمام الخميني رحمته الله، ثمّ شرح قصيدة التّرجيحات متحدثاً عن اللّغة الشّعريّة وألفاظ الدّروشة وصفات العرفان، وشرح الرباعيات، وانتهى إلى الكلام عن مفهوم الفناء في الحبّ عند السيّد الخميني رحمته الله.

ويجب أن أشير إلى أنّي ترجمتُ بعض قصائد الإمام الخميني رحمته الله في العام ١٩٨٩م. وكتبت الكثير عن عرفانه وعلاقته الرّوحية بالله من خلال شعره، ونشر ذلك في عدد خاص من مجلّة (العالم) التي كانت تصدر في لندن في ذلك الوقت، خصوصاً القصيدة الخالدة ومطلعها:

من به خال لبت اي دوست گرفتار شدم چشم بيار تو را ديدم و بيار شدم
حيث يقول السيد الإمام الخميني رحمته الله رغم كبر سنه وانشغاله بالسياسة وأعباء الدولة والحرب وغيرها:

لقد أسرني الخال الذي على شفّتك أيُّها الحبيب

وعندما نظرتُ إلى عينيك المريضتين مرضت

وأنقل هنا ترجمة شعرية لإحدى قصائد الإمام الخميني رحمته الله، قامت الأديبة والعالمة الفاضلة أم مهتدي بترجمتها، والقصيدة بعنوان (شعاع الحق):

إذا ما فتح العشق جناحه في العالم الحاكم هو
إذا ما تجلّى في هذا الكون والمكان الحاكم هو
إذا ما أظهر وجهه يوماً من مخبئه
يفشي أنّه على الظاهر والباطن الحاكم هو
ليس من ذرة في العالم ليس فيها عشق
بارك الله إذ من الحدّ إلى الحدّ الحاكم هو
إذا ما أصبح يوماً وجهه من حجاب الغيب عيان
يرى الكلّ أنّه في الغيب والعيان الحاكم هو
ما دام عليك في الرّوح والجسم حجاب حجاب
ذاتك لا ترى أنّه على كلّ الجسم والرّوح الحاكم هو
أنا ماذا أقول إذ العالم ليس سوى شعاع العشق
ذو الجلال الذي هو على الدّهر والزّمان الحاكم هو

وأشير إلى أنّه لا يمكن فهم لغة الإمام الخميني الشعرية بدلالاتها الحرفيّة والظّاهرية، فالأمر يحتاج إلى معرفة بالمصطلحات واستخداماتها، وهي مصطلحات ألفها المتصوّفة مع ملاحظة أنّ الإمام الخميني رحمته الله ليس منهم.

* * *

قسمة الاشتراك

الاسم :
العنوان :
.....
المدينة :
البلد :
المهنة :
مدة الاشتراك :
ابتداءً من :
.....
عدد النسخ :

رسالة الثقلين

مجلة اسلامية جامعة

البلد الاشتراك
الإرسال السنوي / لمدة ٦ أشهر
☐ الجمهورية الإسلامية في إيران
(بالريال) ٦٠٠٠٠ ٣٠٠٠٠
☐ باقي دول العالم بالدولار الأمريكي
٢٠ ١٠ (أو ما يعادلها)

يرافق اشتراكي: ☐ صك ☐ صك بريدي ☐ حوالة بريدية

أرسل هذه القسمة مع قيمة الاشتراك باسم «رسالة الثقلين» إلى العنوان التالي:
الجمهورية الإسلامية في إيران. قم. ص. ب ٨٩٤ - ٣٧١٨٥



الاشتراكات:

- ☐ داخل الجمهورية الإسلامية في إيران: تسدد قيمة الاشتراك السنوي (٦٠٠٠٠ ريال) بحوالة مصرفية على العنوان التالي:
الجمهورية الإسلامية في إيران - قم - بنك تجارت / شعبة سمية، شارع سمية - رقم الحساب الجاري: ٤٦٢٥٤ - ١٥١٢٠ (بالريال)، المعاونة الثقافية للمجمع العالمي لأهل البيت (عليه السلام).
- ☐ خارج الجمهورية الإسلامية في إيران: قم - بنك ملي (شعبه مركزي قم) رقم الحساب: ٢٠٠٦٥ - ٢٧٠١ (بالدولار).

ثمن النسخة:

- ☐ الجمهورية الإسلامية في إيران ١٥٠٠٠ ريال.
- ☐ وفي باقي دول العالم ٥ دولارات أمريكية أو ما يعادلها



The ahl – ul Bayt (a)
World Assembly

RISALATUTH - THAQALAYN

A General Islamic Periodical

Vol . 15, No . 60, Summer 2008